



مَهْكُومٌ لِلْعَذَابِ

---

# جَدْدُ حَيَاةِكَ

---

2



**العنوان:** جدد حياتك.

**المؤلف:** الشيخ/ محمد الغزالى .

**إشراف عام:** داليا محمد إبراهيم .

**تاريخ النشر:** الطبعة التاسعة أكتوبر 2005 .

**رقم الإيداع:** 2004/ 1665

**الترقيم الدولي:** ISBN 977-14-2581-1

الادارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة  
ت: 02/3466434 - 02/3472864 - فاكس: 02/3462576 ص.ب: 21 امبابة  
البريد الإلكتروني للادارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطباع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر  
ت: 02/8330287 - 02/8330296 - فاكس: 02/press@nahdetmistr.com  
البريد الإلكتروني للمطباع:

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -  
القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.  
ت : 02/590395 - 02/5908895 - فاكس: 02/5909827

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)  
ت: 03/5462090

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عمار  
ت: 050/2259675

موقع الشركة على الانترنت: www.nahdetmistr.com  
موقع البيع على الانترنت: www.enahda.com



**احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)  
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع  
www.enahda.com**

**جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع**

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة  
إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

أحب أن ألفت الماهميين بالإسلام والقاصرين في فقهه إلى الخاصة الأولى في هذا الدين ، وهي أنه دين الفطرة .

فتعاليمه المنوعة في كل شأن من شؤون الحياة هي نداء الطبائع السليمة والأفكار الصحيحة ، وتجيئاته المثبتة في أصوله متنفس طلق لما تنشده النفوس من كمال ، وتستريح إليه من قرار .

وقد شُغفتُ من أمد بعيد ببيان المشابه بين تراث الإسلام المطمور ، وبين ما تنتهي إليه جلة المفكرين الأحرار في غالب النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية ، وأحصيتُ من وجوه الاتفاق ما دل على صدق التطابق بين وحي التجربة ووحي السماء .

أجل . فكما تتحدد الإجابة السديدة على فم شخصين ألقى إليهما سؤال واحد ، اتحد منطق الطبيعة الإنسانية الصالحة - وهي تتحسس طريقها إلى الخير - مع منطق الآيات السماوية ، وهي تهدى الناس جميعاً إلى صراط مستقيم .

ولعل احترامى للإسلام وبقائى عليه يرجعان إلى ما لمسته بيدي من تجاويه مع الفطرة الراسدة ، فلو لم يكن ديناً من لدن عالم الغيب والشهادة ما وسعنى ولا وسع غيرى أن يخترع أفضل منه في إقامة صلاته بالله وبالناس .

ولك أن تشک في هذا الزعم وتحسبة تطرف رجل جامد ، لكن من حقّي أن أضع بين يديك مقارنات شتى لتنظر فيها ثم تحكم بعدها كيف تشاء .

وكلمة نظرة تتسع للدلائل متباعدة ، فقد تختلف طبيعتى وطبيعتك في الحكم على شيء واحد ، تذهب أنت إلى تحسينه ، وأذهب إلى تقبيله ، وقد تجنب فيه إلى أقصى اليمين ، وأجنب فيه إلى أقصى اليسار .



فهل هناك ضوابط تمنع هذا التناقض الخطير؟ .

الجواب أن كلمة فطرة إذا أطلقت لا يصح أن يراد بها إلا الفطرة السليمة ، فإن كل خلل يلحق الطبيعة لأى سبب لا يجوز أن يُحسب منها ، ولا أن يُحسب عليها .

خذ مثلاً الجنين .. المفروض أن ينزل من بطن أمه سوى الأعضاء والمشاعر .

فلو حدث أن ولد أعمى لعنة في أحد أبويه . فإن هذا العمى عَرَض غريب على الطبيعة التي يجب أن توجد كاملة .

ومن ثم فإن هذا لا يغضّ من جعل البصر أصلاً يُقاس عليه ويُطرح ما عداه .

وما يقال في عالم الحيوان كذلك في عالم النبات ، فالمفروض أن تُجني الشمار وهي نقية من كل عيب يجيئها من عدو الحشرات والديدان .

وعلى الزراعة أن يستجيدوا البذور ، ويستكملا الوسائل حتى يحصدوا غراسهم كما شاء الله لها نقاطاً وجمالاً .

وكل تشويه يعرض عظمة الفطرة وروعتها فهو شذوذ ينبغي أن يُزداد ويباد ، لا أن يُعرف به ويُسكت عليه .

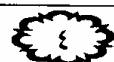
والمجتمع الإنساني يجب أن يسير على هذا الغرار .

فأصحاب الصحة النفسية والعقلية ، وأصحاب الأمزجة المعتدلة ، والطبع المكتملة هم وحدهم الذين يُسمّع منهم ويؤخذ عنهم .

أما المعلومون والمنحرفون ، وذوو الأفكار المختلّة والغرائز المنحلّة ، فهم كالشمار المعطوبة في عالم النبات أو الأجنّة الشائهة في عالم الحيوان ، ليسوا أمثلة لسلامة الفطرة ، ولا يجوز أن يُطمأن إلى أحکامهم ولا إلى آرائهم ، ولو بلغت بهم الجراءة أن يزعموا نداء الطبيعة ومنطق الفطرة !! .

إنَّ نبيَّ الإسلام لما قال للسائل عن البرِّ : « استفت قلبك » ، لم يقدم هذا الجواب هديّة مجرّم يستبيح الدماء ويغتال الحقوق .

وما أكثر الذين تتسع ضمائّرهم للكبائر !! .



إَنَّه ساق هذا الجواب النبيل لرجل يتحرَّج من الإمام بصغرٍة ، رجل سليم الفطرة شفَّافُ الجوهر عاشقُ للخير ، أراد النبي الكريم أن يريحه من عناء التساؤل والاستفتاء ، فرده إلى فواده يستلهمه الرشد كلما تشابهت أماته الأمور ، ويستريح إلى إِجادته وإن أكثر عليه المفتون ..

هذا الرجل وأمثاله من أصحاب القلوب الكبيرة هم موازين العالم ، ومناراته الهدادية .

وعندما تلمح مواريث الأجيال والحضارات المختلفة في الشرق والغرب ترى أصحاب هذه الفطرة الراقية يرسلون الحكمة الغالية والوصَاة الشمية ، ويصرّفون جهودهم لتقويم الأوضاع إذا اعوجَّت ، وتقليل الأخطاء إذا شاعت .

ولعمري إن الحياة من غير هؤلاء باطل !! وكم كان جديراً بالعالم أن يؤرخ لهم بدل أن يؤرخ للسياسة والقادة من سفاكى الدماء ومذلّى الشعوب .



إلى أصحاب هذه الفطر السليمة من كل جنس ولغة نلت الأنظار لننتفع بهم . وإلى الدخلاء عليهم من الأدباء المأجورين ، والصحافيين المنحرفين ، وأصحاب الفنون القوادة إلى الخلاعة والعبث نلت الأنظار كى نحذر على أنفسنا ومستقبلنا .

فقد كثر في الدنيا من يدعون إلى تعرية الأجسام والأرواح من لباس التقوى والفضيلة باسم أن ذلك عود إلى الطبيعة وتمش مع الفطرة !! .

والحق أن دور هؤلاء بين الناس هو دور الجرائم «الفطرية» في إعطاء الشمار وإعراض الأبدان ، أى أنهم خطر على الطبيعة الصحيحة والفطرة السليمة .



وإذا شرحنا وظيفة الفطرة السليمة في تعرُّف الحق وتعرِيفه فيجدر بنا أن ننبئ إلى أمر آخر ، هو أنَّ كثرة البضاعة من نصوص السماء لا تُغنى فتيلًا في نفع صاحبها ، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان مُلتاثط الطبيعة مريض الفطرة .

ما قيمة المظار المقرب أو المكبَّ لدى امرئ فقد بصره !؟ .



إنَّ فقدان البصيرة الوعية اللِّمَّاحة حجاب طامس دون فهم الحق بِلْه تفهيمه .  
وأفة الأديان جاءت من أَنَّ أكثر رجالها لا يصلحون ابتداءً لإدراك رسالتها ، كما لا  
يصلح المصدر للُّكُر والفرْق في ميدان القتال .

وقد رأيتُ رجالاً حظوظهم من تراث النَّبِيِّين قليل ، ومحفوظهم من توجيهات  
السماء لا يذكر ، ومع ذلك فقد كان صفاء فطرتهم هادياً لا يضل في معرفة الله ، وما  
يجب له ، وما يجب على الناس أن يصنعوه كي يحيوا على أرضه أبراًً أتقياء .

وصحيح أن هؤلاء لم يؤدوا المراسيم الدينية بالدقَّة التي نزلت بها ، وعذرهم أن فُرَصَ  
الأداء لم تُتح لهم ؛ لأن رسالاتِ الله لم تعرَض عليهم عرضاً يُغْرِي بقبولها والدخول فيها .  
ولعلَّ هؤلاء أحسن حالاً وأرجى مالاً من أناس مُكْنُوا من هدایات الله تمكيناً  
كاملاً ؛ فبدلاً من أن ترتفع بهم هبطوا بها .

إن التاريخ سجَّل هزائم كثيرة للطوائف التي تُسمَّى رجال الدين .

وقد أراد بعض الحمقى أن يحوّل هذه الهزائم إلى نكبة تحقيق بالدين نفسه ، وهذا  
ظلم شنيع ، فإنَّ انهزام هذه الأمثلة المصطنعة للتدين هو في حقيقته انتصار للفطرة  
الإنسانية ، للطبيعة المتمردة على الغباء والجمود والنفاق .

إنَّ هذا الانتصار يجب أن يكون تمهيداً لفهم الدين كما جاء من عند الله ، لا لنبذه  
بعد ما لوثته أيدي الباعة التافهين .

وللدين صورة متَّسقةٌ تتنظم فيها الملامح والمشاعر والنِّسب والأصوات ، ولهذه الصورة  
وضع واحد يبرز فيها « الرأس » وهو عالٍ ، وتبدو الحواس والأطراف كلُّ في مكانه  
العتيد لا يعوده إلى غيره .

وصاحب الفطرة السليمة وحده هو الذي تستقر في ذهنه صورة الدين على هذا  
النحو المبين .

أما مع اضطراب البصيرة وفساد الذوق فإنك ستجد من يعرض عليك الدين  
مشوشاً مشوشاً ، يتجاور فيه الرأس والقدم ، وتنخلع الأطراف والحواس من مكانها  
لتوضع العين في اليد بدل مستقرها في الوجه !! .

إن هذه الفوضى فى فقه النصوص ليست إلا ضرباً من تحريف الكلم عن موضعه ، وهو المرض الذى أفسد الديانتين السابقتين اليهودية والنصرانية .

وربما تعجزنا حماية الدين من أصحاب الفطر العليلة ، فالحلّ الوحيد أن يتقدم أصحاب الفطر السليمة ليؤدوا واجبهم .

وبهذا الحل تتحقق فائدتان جليلتان :

أولاًهما : أن ينتفع أولئك الأصفياء بما شرع الله لعباده ، فإن العقل مهمًا سمالن يستغنى عن النقل ، كما أن الذكاء لا يستغنى عن قواعد العلوم وفنون المعرفة .

وآخرهما : أن تنتفع حقائق الدين بن يُخْسِنَ فهمها وعرضها غير مشوبة ولا مضطربة ، فإن الفقه في الدين حكمة لا يؤتاهَا كل إنسان ، فليتعرض لها من لديهم استعداد خاص .

والإسلام دين لا تتحكر الكلام فيه والإبانة عنه طائفة معينة ، اللهم إلا من تؤهلهم دراساتهم المحترمة وسعتهم الروحية والفكرية لذلك ، وقد رضى الأزهر أن يقوم على رياسة مجلته منذ أنشئت إلى اليوم رجال من هذا النوع الكريم ، ولو لم يكونوا من علمائه الرسميين .

وحسن التصور لحقائق الدين - كما وردت - لا بد أن تكون إلى جانبه ضمية أخرى هي صدق العمل بها . فإن علاج مشكلات الناس وأدواتهم لا يقدر عليه إلا رجل حل مشكلات نفسه ، وداوى عللها بالحقائق الدينية التي يعرضها .

وقد تُماري في ضرورة ذلك وتقول : رب حامل فقه ليس بفقير .. رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه !! .

وأقول : إن حملة الأدوية التي ينفعون بها ولا ينتفعون منها موجودون في الحياة فعلاً .

وفي الحياة كذلك أثبت الطب أن هناك من يحمل جراثيم الأمراض ولا يعتل لظروف معقدة في بدنـه ، يجعلـه ينقل العدوى إلى الآخرين ، ويـبقى هو معافـى لا تصرعـه العلة التي قد يـصرعـ بها غيرـه !! .

على أن الأحوال الشاذة التي تـوـجـدـ فيها قـصـةـ «ـ حـاـمـلـ المـيـكـرـوـبـ »ـ لاـ تـسـوـغـ وجودـ الجـهـاـلـ الـذـيـنـ يـحـمـلـونـ الـعـلـمـ ،ـ وـالـسـفـهـاءـ الـذـيـنـ يـنـقـلـوـنـ الرـشـدـ .

وقد ندد القرآن أشد التنديد بهذه الدواب الناقلة فقال :

﴿مَثْلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ  
لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثْلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ سَفَارِيْسَ مَثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَبِّا يَمِّنَ  
اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١)

والحق أن المثل العليا لا يضيرها شيء لأن يكون نقلتها أول الناس خروجاً عليها . إن هذا وحده مطعن يكفي للصدق عنها وإهدار الثقة بها .

وفي أيامنا هذه تحولت وثيقة حقوق الإنسان التي وضعتها المحافل الدولية إلى خرافات تحوطها السخرية والزراية ، لأن الدول التي صدقت عليها مزقتها شر مزق !! لا ، بل إنها لم تتناولها لمزقتها ، لقد أنفت أن تمد اليد لتناولها فتركتها تسقط تحت الأقدام ، لتلقى مصيرها في الرغام .

إن الإنسان بفطرته قد يعرف الحقيقة ، فالحلال بين ، والحرام بين .

بيد أن هذه المعرفة لا قيمة لها إن لم نحل الحلال ، ونحرم الحرام ، وإن لم تقفنا الحدود الفاصلة بين الفضيلة والرذيلة والعدالة والعدوان .

وحملة الفقه الذين لا فقه لهم قد يدللوننا على الحقيقة ، إلا أنهم لا يستطيعون الأخذ بأيدينا إليها ، بل إن جملة الحقائق التي يدللوننا عليها محصورة في نطاق ضيق جداً . فإن تفاصيل الخير وأساليب الانطباع به والمران عليه لا يحسن تصوّرها ولا تصوّرها إلا رجال لهم في تربية أنفسهم باع طويلاً أو قصيراً ، وجهد فاشل أو ناجح . أما النّقلة الذين يقومون بدور عربات البضاعة أو دواب الحمل فهم منفيون ابتداء من ميادين التهذيب والتأديب .



إن كتلاً كثيفة من البشر لا تزال بعيدة عن الإسلام ، لأنها تجاهل تعاليمه جهلاً مطبقاً ، ومن ثم فهى لا تطلب إليه سبيلاً ولا تلتمس منه نوراً . والإسلام هو الفطرة التي جاء محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يجلو صفحتها ، ويظهر رؤاءها ، ويعود بالبشر إليها بعد أن اجتالتهم الشياطين عنها .

(١) الآية : ٥ من سورة الجمعة .

ومحمد بن عبد الله بهذا المنهج الـزكيّ يؤيد موسى الذي كفر به اليهود ، ويؤيد عيسى الذي أخذ في تعاليمه النصاري . ويؤيد كل رجل هجر الخرافات والأوهام ، وقرر أن يسير إلى الله على ضوء من الإيمان الواضح والعمل الصالح .

وللفطرة<sup>(١)</sup> في بلاد الإسلام كتاب يُتلئي ودروس تلقى وشعوب هاجعة !! .

ولها في بلاد أخرى رجال ينقبون عن هدایاتها كما ينقب المعدنون عن الذهب في أعماق الصحاري ، فإذا ظفروا بشيء منه أغلو قدره واستفادوا منه .

وصدق من قال : «الناس رجلان : رجل نام في النور ، ورجل استيقظ في الظلام!!» .

وتنابع الفطرة الإنسانية في البلاد المحرومة من أشعة القرآن الكريم نتاج واسع الدائرة متفاوت القيمة .

وليس يصعب على من له أثارة من علم بالإسلام الحنيف أن يرى المشابه بين الدلالة الصامتة هناك ، والدلالة الناطقة هنا .

أو بين العنوان المفصول عن موضوعه هنا ، والموضوع الذي فقد عنوانه هناك !! .

إن الانحطاط الفكري في البلاد المحسوبة على الإسلام يشير اللوعة .

والبيضة العقلية في الأقطار الأخرى تثير الدهشة .

ولا يحملنا على العزاء إلا أن هذه البيضة صدى الفطرة التي جاء الإسلام على شأنها ، أما تحالف المسلمين فسببه الأول تنكرهم لهذه الفطرة السليمة وتخاذلهم عن السير معها .

وفي هذا الكتاب مقارنة بين تعاليم الإسلام كما وصلت إلينا ، وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك . وسيرى القارئ من روعة التقارب بل من صدق التطابق ما يبعثه على الإعجاب الشديد .

لقد قرأت كتاب «دع القلق وابدا الحياة» للعلامة «دليل كارنيجي» الذي عرّبه الأستاذ عبد المنعم الزيادي ، فعزمت فوراً انتهائي منه أن أرد الكتاب إلى أصوله الإسلامية !! .

لا لأن الكاتب الذي نقل شيئاً عن ديننا ، بل لأن الخلاصات التي أثبتتها بعد استقراء جيد لأقوال الفلاسفة والمربيين وأحوال الخاصة وال العامة تتفق من وجوه لا حصر لها مع الآيات الثابتة في قرأننا والأحاديث المؤثرة عن نبينا .

(١) اقرأ مقدمة كتابنا «الإسلام والمناهج الاشتراكية» .

إن المؤلف لا يعرف الإسلام ولو عرفه لنقل منه دلائل تشهد للحقائق التي قررها أضعاف ما نقل من أي مصدر آخر .

إن الفطرة السليمة سجّلت وصايتها في هذا الكتاب بعد تجارب واختبارات ، وما انتهت من تسجيله جاء صورة أخرى للحكم التي جرت على لسان النبي العربي الكريم محمد بن عبد الله منذ قرون .

وبذلك اتفق وحى التجربة ووحى السماء .

وسيرى القارئ مدى الصحة أو الوهم في هذا القول الذي نقول .

وخطتني في هذا الكتاب أن أعرض الإسلام نفسه في حشدين متمايزين : الأول من نصوصه نفسها ، والأخر من النقول التي تُظاهرها في كتابات وتجارب وشواهد الأستاذ الأميركي « ديل كارنيجي » .

فكأن المقارنة العلمية تجيء عرضًا ، أو في المرتبة التالية .

وذلك ما قصدته ، وتعمّدته .

فأنا قبل كل شيء كاتب مسلم ، آمنت بهذا الدين عن دراسة مجردة لأصوله ، وأعرف أن حاجة العالم إليه غير متوقفة على شواهد تجيئه من هنا ومن هناك ، طبيعية كانت أو متكلفة .

ثم إنّ جهلي باللغات الأجنبية يجعلني مقيدًا بما ينبلج المترجمون لي عن اللغات التي يتقنونها .

ومن يدرى ؟ لعل في غيرها من آثار الفطرة السليمة ما يستحق التنويه والإشادة !!  
فلا مكان إذًا للمقارنة بين دين الله ، وبين جهود فرد بعينه أو مدرسة بأسرها ، إلا أن تُساق هذه الجهود المشكورة على أنها أمثلةٌ فحسب للقواعد التي سبق الإسلام إلى تهييدها ، وذكر أنّ وقائع الحياة ستؤكدها على حد قوله جل شأنه :

﴿سَرِيرُهُمْ إِيَّنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يُتَبَّعَنَ هُمْ أَنَّهُمْ أَنْجَحُ﴾<sup>(1)</sup>

وأمر ثان أشير إليه : إن مشاعر التعصب الجنسي من الأجناس ماتت في دمي لأنني مسلم ، غير أن التحمس للعروبة وأدبها غلبني في هذه الآونة ، إذ أحسست كأن التضحية بالعرب ولغتهم بعض ما تكثّن السياسة الدولية في ضميرها الملوث ؟ وبعض ما تسخر له أتباعها وأذنابها في ربوع بلاد الإسلام .

(1) فصلت الآية ٥٣

ودوافع هذا اللدد لا تخفي ، ومن آثاره أن كُتاباً معروفيـن - ومحفوظة الجهات التي يعملون لها - يريـدون قطـعاً عن تراثـنا الفـكري والـعاطـفى ، بل عن الحـروف التي نـكتب بها لـغـتنا .

وقد اصطنـع هـؤلـاء لـونـاً من الأـدب الصـحفـى التـافـه فـقـيرـاً كـلـ الفـقر من المعـانـى الحـيـة . لـذـلـك حـرصـتُ فـى كـتابـى عـلـى إـحـيـاء الـحـكـمـة الـعـربـيـة الـأـولـى ، وـإـمـتـاع الـقـراء بـطـرفـها فـى سـيـاق الـعـارـف الـدـينـيـة وـالـعـلـمـيـة الـتـى يـجـدوـنـها .

وإذا كان « ديل كارنيجي » يحيـا بـقـرـائـه فـى جـوـأمـريـكـى بـحـث ، فـمـن واجـبـى أـنـ أـعـيـشـ معـ قـرـائـى فـى جـوـعـربـى خـالـصـ ، لـأـتـرـكـه إـلـا لـلـمـقـارـنـات الـإـنسـانـيـة الـأـخـرى ، وـهـى مـقـارـنـات لـا صـلـة لـهـا بـجـنـسـ معـيـنـ ...

وـأـمـرـ أـخـير : إـنـ تـبـدـيـدـ الغـيـومـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـمـخـيـمـةـ فـىـ كـثـيرـ مـنـ أـقـطـارـنـاـ الـعـربـيـةـ وـاجـبـ لـاـ مـحـيـصـ عـنـ الـقـيـامـ بـهـ ، وـلـاـ أـسـتـطـيـعـ التـخلـىـ عـنـهـ تـقـيـدـاًـ بـبـحـثـ مـحـدـودـ ، فـلـاـ يـسـتـغـرـبـنـ أـحـدـ أـنـ أـخـوـضـ فـىـ مشـكـلـاتـ شـخـصـيـةـ وـعـلـلـ خـلـقـيـةـ ، وـلـاـ أـنـ أـسـتـطـرـدـ بـذـكـرـ حـوـادـثـ وـشـوـاهـدـ مـخـتـلـفـةـ تـمـسـئـىـ مـنـ قـرـبـ أوـ بـعـدـ .

إـنـىـ لـاـ أـكـتـبـ إـشـبـاعـاًـ لـتـرـفـ عـلـمـىـ قـدـرـ ماـ أـكـتـبـ إـصـلـاحـاًـ لـأـغـلـاطـ شـائـعةـ وـأـوـضـاعـ جـائـزةـ .

وـأـعـرـفـ أـنـ مـنـ أـحـزـابـ الـمـيـمـنـةـ وـأـحـزـابـ الـمـيـسـرـةـ مـنـ يـكـرـهـ هـذـهـ الـكـتـابـاتـ وـيـتـمـنـىـ الشـرـ لـصـحـابـهـ ، وـقـدـ أـرـدـدـ وـأـنـاـ ضـاحـكـ قـوـلـ العـقـادـ :

وـكـذـاـ العـهـدـ بـشـبـوبـ الـقـلـىـ  
عـارـمـ الـفـطـنـ جـيـاشـ الـفـؤـادـ  
أـبـداـ يـهـتـفـ بـالـقـوـلـ فـلـاـ  
يـعـجـبـ الـغـنـىـ وـلـاـ يـرـضـىـ الرـشـادـ

لـكـنـىـ أـسـتـدرـكـ فـأـقـوـلـ : إـنـ مـاـ لـاـ يـعـجـبـ الـغـنـىـ يـجـبـ أـنـ يـرـتـضـيـهـ الرـاـشـدـوـنـ .

وـإـذـاـ اـسـتـوـحـشـتـ مـنـ صـنـوـفـ النـاسـ فـإـلـىـ رـبـ النـاسـ المـفـزـعـ :

﴿رَبِّ هَبْ لِرُحْمَانَ وَأَحْقِنِي بِالصَّلَحِينَ ﴽ٨٧﴾ وَاجْعَلْ لِلْسَّانَ صَدِيقٍ  
فِي الْأَخْرِينَ ﴽ٨٨﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَتَهُجَنَّهُ الْغَيْمَ﴾<sup>(١)</sup>

محمد الغزالى

## جدد حياتك

كثيراً ما يحب الإنسان أن يبدأ صفحة جديدة في حياته ، ولكن يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة ، كتحسن في حالته ، أو تحول في مكانه . وقد يقرنها بموسم معين ، أو مناسبة خاصة كعيد ميلاد ، أو غرة عام مثلاً .

وهو في هذا التسويف يشعر بأن رافداً من روافد القوة المرموقة قد يجئ مع هذا الموعد ، فينشطه بعد خمول ويمنيه بعد إياس .

وهذا وهم . فإن تجدد الحياة ينبع قبل كل شيء من داخل النفس .

والرجل المقبل على الدنيا بعزيمة وبصر لا تخضعه الظروف المحيطة به مهما ساعت ، ولا تصرفه وفق هواها . إنَّه هو الذي يستفيد منها ، ويحتفظ بخصائصه أمامها ، كبذور الأزهار التي تُطمر تحت أكواخ السُّبَخ ، ثم هي تشق الطريق إلى أعلى مستقبلة ضوء الشمس برائحتها المنعشة !! ، لقد حوت الحما المسنون والماء الكدر إلى لون بهيج وعطر فواح ... كذلك الإنسان إذا ملك نفسه وملك وقته ، واحتفظ بحرية الحركة لقاء ما يواجه من شئون كريهة ، إنه يقدر على فعل الكثير دون انتظار أمدادٍ خارجية تساعدة على ما يريد .

إنه بقواه الكامنة ، وملكاته المدفونة فيه ، والفرص المحدودة ، أو التافهة المتاحة له يستطيع أن يبني حياته من جديد .

لا مكان لتراث ، إنَّ الزمن قد يفدي بعون يشدُّ به أعصاب السائرين في طريق الحق ، أمَّا أنْ يهب المقدِّم طاقةً على الخطأ أو الجري فذاك مستحيل .

لاتعلق بناء حياتك على أمنية يلدها الغيب ، فإنَّ هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير .

الحاضر القريب الماثل بين يديك ، ونفسك هذه التي بين جنبيك ، والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتف حوليك ، هي وحدتها الدعائم التي يتمخض عنها

مستقبلك . فلا مكان لإبطاء أو انتظار ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهر ليتوب مسىء الليل »<sup>(١)</sup> .

ثم إن كل تأخير لإنفاذ منهاج تجدّد به حياتك ، وتصلح به أعمالك لا يعني إلا إطالة الفترة الكابية التي تبغى الخلاص منها ، وبقاءك مهزوماً أمام نوازع الهوى والتفريط .

بل قد يكون ذلك طريقاً إلى انحدار أشدّ ، وهنا الطامة .

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ : « النادم ينتظر من الله الرحمة . والمعجب ينتظر المقت . واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها .

والليل والنهر مطيتان فأحسنوا السير عليهم إلى الآخرة . واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة . ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله . ثم قرأ :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَأَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَأَهُ ۚ﴾<sup>(٢)</sup>

ما أجمل أن يعيid الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين ، وأن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها ليتعرف عيوبها وأفاتها ، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى والطويلة المدى ليتخلص من هذه الهنات التي تزرى به .

في كل بضعة أيام أنظر إلى أدراج مكتبى لأذهب الفوضى التي حلّت به من قصاصات متاثرة ، وسجلات مبعثرة ، وأوراق أدت الغرض منها .

يجب أن أرتب كل شيء في وضعه الصحيح ، وأن يستقر في سلة المهملات ما لا معنى للاحتفاظ به .

وفي البيت ، إن عرقه وصالاته تصبح مشعّثة مرتبكة عقب أعمال يوم كامل . فإذا الأيدي الدائبة تحول هنا وهناك لتنظف الأثاث المغبر ، وتطرد القمامات الزائدة ، وتعيد إلى كل شيء رؤاهه ونظامه .

(١) مسلم . (٢) الزلزلة ، آية ٨، ٧ .

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد ؟ . ألا تستحق نفسك أن تعهد شئونها بين الحين والحين لترى ما عرّاها من اضطراب فتزيده ، وما لحقها من إثم فتنفيه عنها مثلما تُنفِي القُمامَةُ عن الساحات الطَّهُورَ ؟ ! .

ألا تستحق النفس بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن تعيد النظر فيما أصابها من غُنم أو غُرم ؟ وأن نرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رجَّتها الأزمات ، وهزَّها العراق الدائب على ظهر الأرض في تلك الدنيا المائحة ؟ ..

إنَّ الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه وتعهُّد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك .

ذلك أن الكيان العاطفى والعقلى للإنسان قَلَّما يبقى متماسك اللبنات مع حدَّة الاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات ... فإذا ترك لعوامل الهدم تنال منه فهي آتية عليه لا محالة ، وعندئذ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سُلْكُه ... وهذا شأن

﴿مَنْ أَغْفَلْنَا فَلَبَّهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَبْعَثَهُ هَوَنَةً وَكَانَ مُرْفُطًا﴾<sup>(١)</sup> كما يقول الله عز وجل . وكلمة « فُرُط » هذه ينبغي أن نتأمل فيها . فالعامة عندنا يسمُون حبات العنبر الساقطة من عنقودها أو حبات البلح الساقطة من عُرْجونها « فرطًا » .

وانزع حبات الأذرة من كيزانها المترادفة تمهيداً لطحنتها تُشتق تسميتها من المادة نفسها .

والنفس الإنسانية إذا تقطعت أواصرها ، ولم يربطها نظام يُنسق شئونها ويركز قواها ؛ أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حركة لها .

ومن ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس وإحكام الرقابة عليها . والله عز وجل يهيب بالبشر - قُبَيل كل صباح - أن يُجدِّدوا حياتهم مع كل نهار مقبل .

فبعد أن يستريح الأنام من عناء الأمس الذاهب ، وعندما يتحرّكون في فُرُشِهم ليواجهوا مع تحرك الفلك يومهم الجديد .

(١) الكهف آية ٢٨ .

في هذه الأونة الفاصلة تستطيع أن تسائل : كم تعثّر العالم في سيره ؟ . كم مال مع الأثرة ؟ . كم اقترف من دنّية ؟ . كم أصلته حِيرته فبات محتاجاً إلى المحبة والحنان ؟ .

في هذه اللحظة يستطيع كل امرئ أن يجدد حياته ، وأن يعيد بناء نفسه على أشعة من الأمل والتوفيق واليقظة .

إنَّ صوت الحق يهتف في كل مكان ليهتدى الحائرُون ويتجددُ الْبَالُون . قال رسول الله ﷺ : «إِذَا مضى شطر الليل ، أو ثلثاه ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فيُعطى ؟ . هل من داع فيستجاب له ؟ . هل من مستغفر فيُغفر له ؟ .. حتى ينفجر الفجر»<sup>(١)</sup> . وفي رواية : «أقرب ما يكون العبد من ربّ في جوف الليل»<sup>(٢)</sup> . فإن استطعت أن تكون من يذكر الله في تلك الساعة فكُنْ .

إنها لحظة إدبار الليل وإقبال النهار ، وعلى أطلال الماضي القريب أو البعيد يمكنك أن تنھض لتبني مستقبلك .

ولا تؤودنَك كثرة الخطايا ، فلو كانت رُكاماً أسودَ كزَبَدَ البحر ما بالى الله عز وجل بالتعفية عليها إن أنت اتجهت إليه قصداً وانطلقت إليه ركضاً .

إنَّ الْكُنُودَ الْقَدِيمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَائِقاً أَمَامَ أُوبَةَ صَادِقَةَ ..

﴿ قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ  
أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا نَقْطُو مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ  
جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَيْنَا وَأَسْلِمُوا إِلَّا وَهُوَ ۝﴾<sup>(٣)</sup>

وفي حديث قدسي عن الله عز وجل : «يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبيك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي . يا ابن آدم لو أثيتني بقرب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقربابها مغفرة»<sup>(٤)</sup> .

(١) مسلم .

(٢) الترمذى .

(٣) الزمر: ٥٣ - ٥٤ .

وهذا الحديث وأمثاله جُرعةٌ تُحيي الأمل في الإرادة الخدّرة ، وتنهض العزيمة الغافية وهي خَجْلٌ ل تستأنف السير إلى الله ، ولتجدد حياتها بعد ماضٍ ملتوٍ مستكينٍ<sup>(١)</sup> ! .

لا أدرى لماذا لا يطير العباد إلى ربهم على أجنحة من الشوق بدل أن يُساقوا إليه بساط من الرهبة ؟ إنَّ الجهل بالله وبدينه هو علة هذا الشعور البارد ، أو هذا الشعور النافر - بالتعبير الصحيح - مع أنَّ البشر لن يجدوا أبئبَ لهم ولا أحنى عليهم من الله عز وجل . وبئه وحنؤه غير مشوّبين بغرض ما ، بل هما من آثار كماله الأعلى وذاته المزّهة . قصة الإنسان تشير إلى أن الله خلقه ليكرّمه لا ليهينه ، وليس وده في العالمين ، لاليؤخر منزلته أو يضع مقداره :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا شَكَرُونَ ﴾  
﴿ ۚ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ صُورَاتِكُمْ ثُمَّ قَلَّنَا لِلنَّاسِ كَيْفَيَةً أَسْبَدُوا لِأَدَمَ ﴾<sup>(٢)</sup>

وظيفة الدين بين الناس أن يضبط مسالكهم وعلاقتهم على أساس من الحق والقسط حتى يحيوا في هذه الدنيا حياة لا جُور فيها ولا جهل .. فالدين للإنسان - كالغذاء لبدنه - ضرورة لوجوده ومتعة لحواسه .

والله عز وجل - بشريعته - مع الوالد ضد عقوق الولد ، ومع المظلوم ضد سطوة الظالم ، ومع أي امرئ ضدَّ أن يصاب في عرضه أو ماله أو دمه .

فهل هذه التعاليم قسوة على البشر ونكال بهم ؟! أليست محض الرحمة والخير ؟! . وإذا كلف الله أبناء آدم بعد ذلك بعض العبادات اليسيرة ، ليحمدوا فيها آلاءه ويدركوا له حقه ، فهل هذه العبادات المفروضة هي التي يتلّم الناس من أدائها ، ويتبّرّمون من إيجابها ؟! . الحق أنَّ الله لم يرد للناس قاطبة إلا اليسر والسماحة والكرامة ، ولكن الناس أبوا أن يستجيبوا لله وأن يسيروا وفق ما رسم لهم ، فزادت بهم الأهواء في كل فج ، وطفحت الأقطار بتظالمهم وتناكرهم .

ومع هذا الضلال الذي خبطوا فيه فإن منادي الإيمان يهتف بهم أن عودوا إلى بارئكم . إن فرحته بعودتكم إليه فوق كل وصف . قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتُوبَةِ عَبْدٍ مُّؤْمِنٍ مِّنْ رَجُلٍ نَّزَلَ فِي أَرْضِ دَوْيَةٍ مُّهْلَكَةٍ ، مَعَهُ رَاحْلَتَهُ ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ

(١) اقرأ مبحث الخطية والثواب من كتابنا « عقيدة المسلم » .

(٢) الأعراف : ١٠ ، ١١ .

وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحتله !! فطلبها ، حتى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش ، أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت . . . فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحتله عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة المؤمن من هذا براحتله »<sup>(١)</sup> .

ألا يبهرك هذا الترْحاب الغامر . أترى سروراً يعدل هذه البهجة الخالصة ؟ .

إنَّ أبل الناس عرقاً وأطهرهم نفساً قلماً يجد فؤاداً يتلهف على لقائه بثل هذا الحنين . فكيف بخطاء أسرف على نفسه وأساء إلى غيره ؟ إنَّه لو وجد استقبالاً يستر عليه ما مضى لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر . أما أن يفاجأ بهذه الفرحة ، وذلك الاستبشرار ، فذاك ما يثير الدهشة .

لكنَّ الله أبِرُّ الناس وأسْرُّ بآوبة العائدین إلَيْهِ مَا يَظْنُ الْقَاصِرُون !! . وطبعيَّ أن تكون هذه التوبة نُقلة كاملة من حياة إلى حياة ، وفاضلاً قائماً بين عهدين متمازين ، كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء .

فليست هذه العودة زُورَة خاطفة يرتد المرء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف . ولنْ يُنْقَصَ محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم وقوَّة التحمل وطول الجلد ، كلا .. كلا . إنَّ هذه العودة الظافرة التي يفرح الله بها هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول ، وسحقه لجرائم الوضاعة والمعصية ، وانطلاقه من قيود الهوى والجحود ، ثم استقراره في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان ، والنضج والاهتداء .

هذه هي العودة التي يقول الله في صاحبها :

﴿ وَإِذْ لَغَفَّارٌ لِّمَنْ نَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَلِحَاتٍ أَهْتَدَى ﴾<sup>(٢)</sup>

إنها حياة تجددت بعد يلى ، ونُقلة حاسمة غيرت معالم النفس ، كما تتغير الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخصبات .

إن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة ، أو النيات الحسنة وسط جملة ضخمة من العادات الذميمة والأخلاق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشئ به المرء مستقبلاً حميداً ، ولا مسلكاً مجيداً .

بل إنَّه لا يدلُّ على كمال أو قبول ، فإنَّ القلوب المتحجرة قد ترشح بالخير ، والأصابع الكرزة قد تتحرك بالعطاء .

(١) البخاري . (٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

والله عَزَّ وجلَ يصف بعض المطرودين من ساحتة فيقول :  
 » أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّ إِنَّمَا أَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى « (١) ويقول في المكذبين بكتابه :

» وَمَا هُوَ بِقُولٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ لَوْلَا يَقُولُ كَاهْنٌ قَلِيلًا مَا ذَرُونَ تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ « (٢)

فالأشرار قد تمُّ بضمائرهم فترات صَحْوٌ قليل ثم تعود بعد ذلك إلى سباتها .  
 ولا يُسمّى ذلك اهتداء ، إنَّ الاهتداء هو الطُّورُ الأَخِيرُ للنَّصْوح .

### ﴿۳۴﴾

إنَّ الْبَعْدَ عَنِ اللَّهِ لَنْ يَشْمَرْ إِلَّا عَلَقْمًا ، وَمَوَاهِبُ الذِّكَاءِ وَالْقُوَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْمَعْرِفَةِ تَتَحَوَّلُ كُلُّهَا إِلَى نِقَمٍ وَمَصَائبٍ عِنْدَمَا تَعْرَى عَنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَتُحْرَمُ مِنْ بَرَكَتِهِ .  
 ولذلك يخوّفُ اللَّهُ النَّاسُ عَقْبَى هَذَا الْاسْتِيْحَاشَ مِنْهُ ، وَالْذَّهُولُ عَنْهُ .

قد تكون سائِرًا فِي طَرِيقِكَ فَتُقْبِلُ عَلَيْكَ سِيَارَةٌ تَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهْبًا وَتَشْعُرُ كَأَنَّهَا مُوشَكَةٌ عَلَى حَطْمِ بَدْنِكَ وَإِتَالَفِ حَيَاتِكَ ، فَلَا تَرَى بَدًّا مِنَ التَّمَاسِ النَّجَاةِ وَسُرْعَةِ الْهَرَبِ . . . إِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ إِشْعَارَ عِبَادِهِ تَعْرُضَهُمْ لِمُثْلِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ وَالْحَتْوَفِ إِذَا هُمْ صَدَفُوا عَنْهُ ، وَيُوصِيهِمْ أَنْ يَلْتَمِسُوا النَّجَاةَ - عَلَى عَجَلٍ - عِنْدَهُ وَحْدَهُ :

» فَرَوَاهُ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلَا يَتَحَمَّلُوْا مَعَ اللَّهِ إِلَهَآءٌ أَخْرَى إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ « (٤)

وَهِيَ عُودَةٌ تَتَطَلَّبُ - كَمَا رأَيْتَ - أَنْ يَجْدُدَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ ، وَأَنْ يَعِيدَ تَنْظِيمَ حَيَاتِهِ ، وَأَنْ يَسْتَأْنِفَ مَعَ رَبِّهِ عَلَاقَةً أَفْضَلَ ، وَعَمَلاً أَكْمَلَ ، وَعَهْدًا يُحْرِى عَلَى فَمِهِ هَذَا الدُّعَاءُ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنَعْمَتِكَ عَلَىَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » (٤) .

(٢) الحاقة : ٤١ - ٤٣ .

(١) النجم : ٣٣ - ٣٤ .

(٤) البخاري .

(٣) الذاريات : ٥٠ - ٥١ .

## عش في حدود يومك

من أخطاء الإنسان أن ينوه في حاضره بأعباء مستقبله الطويل .

والمرء حين يؤمل ينطلق تفكيره في خط لا نهاية له ، وما أسرع الوساوس والأوهام إلى اعتراض هذا التفكير المرسل ، ثم إلى تحويله هموماً جاثمة ، وهواجس مقبضة .

لماذا تخامرُك الريبة ويخالجك القلق؟! عِشْ في حدود يومك فذاك أجدرك ، وأصلح لك .

ولقد ساق « ديل كارنيجي » عدداً من التجارب التي خاضها رجال ناجحون ، رجال لم يتعلّقوا بالغد المرتقب ، بل انغمموا إلى الأذقان في حاضرهم وحده يواجهون مطالبه ويعالجون مشكلاته ، فأمنوا بهذا المسلك الراشد يومهم وغدّهم جميعاً ، ثم أهدوا لنا خلاصات تجاربهم في هذه الكلمات : ( ليس لنا أن نتطلع إلى هدف يلوح لنا باهتاً من بعد ، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بين ) .

وهي نصيحة للأديب الإنجليزي « توماس كارليل » .

ويزيد عليها دكتور « أوسلر » فيأمر طلبه في جامعة « ييل » أن يبدأوا يومهم بالدعاء المؤثر عن السيد المسيح : « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » .

وذكّرهم بأن هذا الدعاء كان من أجل خبز اليوم فحسب .

إنه لم يحزن على الخبز الرديء الذي حصل عليه أمس ، ولم يَصُّخْ : يا إلهي لقد عمّ الجفاف ، ونخشى ألا نجد القوت في الخريف القادم !! .

أو تُرى كيف أطعم نفسى وأولادى لو فقدت وظيفتى؟! .

إنه لم يرتكب مقدّماً لهذه الدواهى المتوقعة ، إنه يطلب خبز اليوم وحده ، لأن خبز اليوم وحده هو الذي يمكنك أن تأكله في ذلك اليوم ..

والعيش في حدود اليوم - وفق هذه الوصايا - يتّسق مع قول الرسول ﷺ : « من أصبح آمناً في سريره ، مُعاافى في بدنـه ، عنده قوت يومـه ، فكأنـما حـيزـت له الدـنيـا

بحذافيرها<sup>(١)</sup> . إنك تملك العالم كله يوم تجتمع هذه العناصر كلها في يديك فاحذر أن تحررها .

إن الأمان والعافية وكفاية يوم واحد قوى تُتيح للعقل النير أن يفكر في هدوء واستقامة تفكيراً قد يغير به مجرى التاريخ كله ، بل حياة فرد واحد .

إن هذه النعم الميسرة ضمان كبير لصاحبها كى يقطع من الزمن فترة كاملة الإنتاج ، مطردة السير ، مراحة من العوائق والثبيطات ..

والحق أن استعجال الضوابط التي لم يحن موعدها حمق كبير ، وغالباً ما يكون ذلك تجسيداً لأوهام خلقها التشاوؤم ، ولو كان المرء مصيباً فيما يتوقع فإن إفساد الحاضر بشؤون المستقبل خطأ صرُف ، والواجب أن يستفتح الإنسان يومه وكأنَّ اليوم عالم مستقل بما يحييه من زمان ومكان . كان الخليل إبراهيم عليه السلام إذا طلع عليه الصباح يدعو : « اللهمَّ هذا خلقٌ جديدٌ فافتحه علىَّ بطاعتك ، واحتمنه لى بعفترتك ورضوانك ، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزُكْها وضعفها لى ، وما عملت من سيئة فاغفره لى ، إنك غفور رحيم ودودٌ كريمٌ »<sup>(٢)</sup> .

وكان يقول : « من دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه » .

وسيرة رسول الله ﷺ تلفتنا إلى صحة هذه الطريقة في تجزئة الحياة ، واستقبال كل جزء منها بنفس محتشدة وعزم جديد .

فهو إذا أصبح يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ، لا شريك له ، لا إله إلا هو وإليه النشور »<sup>(٣)</sup> وإذا أمسى قال مثل ذلك ، وقد يدعو : « اللهمَّ إني أصبحت منك في نعمةٍ وعافيةٍ وسترٍ ، فأتمْ نعمتك علىَّ وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة »<sup>(٤)</sup> . وإذا أمسى دعا بهمثل ذلك .

وبعض الناس يستهين بما أولاه الله من سلامه وطمأنينة في نفسه وأهله ، وقد يزدرى هذه الآلاء العظيمة ، ويضخم آثار الحرمان من حضوظ الثروة والتمكين . وهذه

(٤) أبو داود .

(٢) الترمذى .

(٣) الإحياء .

(١) الترمذى .

الاستهانة غَمْط للواقع ومُتَلِّفة للدين والدنيا . روى أن رجلاً سأله عبد الله بن عمرو ابن العاص : أَلسْتُ من فقراء المهاجرين ؟ . فقال له عبد الله : أَلَكَ امرأة تأوي إِلَيْهَا ؟ . قال : نعم . قال : أَلَكَ مسكن تسكنه ؟ . قال : نعم . قال : فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاء .. قال : فَإِنِّي خادِمٌ . قال فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ<sup>(١)</sup> ..

إنَّ الاكتفاء الذاتي ، وحسن استغلال ما في اليد ، ونبذ الاتكال على المُنْسَى هي نواة العظمة النفسية وسر الانتصار على الظروف المُعْنَّة .

والذين لا يَشْكُونُ الحرمان - لأنهم أُوتوا الكثير - قَلَّما ينتفعون بما أُوتوا إذا هم فقدوا الطاقة النفسية على استغلال ما معهم والإفادة بما حولهم . هذه حقيقة يؤكدها النبي الكريم مطلع كل صباح فيقول : « ما طلعتْ شمسٌ قطُّ إِلَّا بُعثَتْ بِجَنْبِتِيهَا ملِكانَ يُسْمِعُانَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الشَّقْلَيْنِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلَّمُوا إِلَيْ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفِيَ خَيْرًا مَا كَثَرَ وَأَلْهَى . وَلَا غَرِبَتْ شَمْسٌ قَطُّ ، إِلَّا وَبُعثَتْ بِجَنْبِتِيهَا ملِكانَ يَنْادِيَانِ : اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمَنْفَقَ خَلَفًا وَعَجِّلْ لِمُمْسِكَ تَلَفًا »<sup>(٢)</sup> .

آخر هذا الحديث وعدُّ للكرام بالعِوض ، ووعيد للبخلاء بالمقت .

وأوله مقارنة قد تحسُبُ تفضيلًا للقلة على الكثرة .

والحقيقة أنها تفضيل للقلة الكافية على الكثرة الملهية .

أما الكثرة التي تغنى صاحبها ثم يَبْقَى فيها فضل يسع الحاجات ويسد الحقوق فإنَّها بمنزلة أنسى من القلة المخصوصة . ولم يتعرض لها الحديث هنا ، كل ما أعني به هذا الأثر النبوى تحريرض المؤمنين على الكرم ، والجراءة فى البذل ، دون خشية من إملاق ، أو تبرُّم بكفاف . وهذا الفقه فى معالجة الحياة يورث المؤمنين شجاعة هائلة .

واسمع قول « أبي حازم » : ( إنما يبني وبين الملوك يوم واحد !! ) .

أمَّا أمس فلا يجدون لذته .

وأنا وهم من غدٍ على وجَلٍ .

وإنما هو اليوم . فما عسى أن يكون اليوم ؟ ! ) .

(١) مسلم .

(٢) الترغيب والترهيب .

هذا الفقير الصالح يتحدى الملوك . إن لذائذ الماضي تفني مع أمس الذاهب ، ما  
يستطيع أحد إمساك بعضها .

والغد فى ضمير الغيب يستوى السادة والصعاليك ، فى ترقبه .

فلم يبق إلا اليوم الذى يعيش العقلاء فى حدوده وحدتها  
وفى نطاق اليوم يتحول إلى ملك من يملك نفسه ويبصر قصده .  
فما وجه الهوان ؟ ، وما مكان التفاوت ؟ ! .



على أن العيش فى حدود اليوم لا يعنى تجاهل المستقبل ، أو ترك الإعداد له ، فإن  
اهتمام المرء بعده وتفكيره فيه حصافة وعقل .

وهناك فارق بين الاهتمام بالمستقبل والاهتمام به ، بين الاستعداد له والاستغراق فيه ،  
بين التيقظ فى استغلال اليوم الحاضر وبين التوجُّس المربِّك المُحِير مما قد يفدي به الغد .

إن الدين فى حظره للإسراف وحبه للاقتصاد إنما يؤمّن الإنسان على مستقبله ،  
بالأخذ من صحته لمرضه ، ومن شبابه لهرمه ، ومن سلمه لحربه . كان سفيان الثورى  
من كبار التابعين ، وكانت له ثروة حسنة ، وكان يشير إليها ويقول لولده : لو لا هذه  
لتمندل بنا هؤلاء - يقصد بنى أمية - .

يعنى أن غناه حماه من حكام زمانه ، فلم يتحرج إلى مداهنتهم أو تلقهم .

والواقع أن ذلك مسلك يعين على بلوغه إحسان العيش فى حدود اليوم ، فإن  
الحاضر المكين أساس جيد لمستقبل ناجح ، ومن ثم يجب نبذ القلق .

قال الشاعر :

سهرتْ أعينْ ونامت عيونْ  
فِي شَوْؤنْ تكونُ أو لا تكونْ  
إنْ رِبَا كَفَاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَانَ  
سيكفيك فى غد ما يكون

أتدرى كيف يُسرق عمر المرء منه ؟ يذهل عن يومه فى ارتقاب غده ، ولا يزال  
فذلك حتى ينقضى أجله ، ويده صفر من أى خير .

كتب «ستيفن ليكوك» يقول : ( ما أعجب الحياة !!

يقول الطفل : عندما أشب فأصبح غلاماً .

ويقول الغلام : عندما أترعرع فأصبح شاباً .

ويقول الشاب : عندما أتزوج . فإذا تزوج قال : عندما أصبح رجلاً متفرغاً .  
فإذا جاءته الشيخوخة تطلع إلى المرحلة التي قطعها من عمره ، فإذا هي تلوح  
وكان ريحان باردة اكتسحتها اكتساحاً .. إننا نتعلم بعد فوات الأوان أن قيمة الحياة  
في أن نحياها ، نحيا كل يوم منها وكل ساعة ) .

في هؤلاء الذين ضيّعوا أعمارهم سدى ، وتركوا الأيام تفلت من أيديهم لقى ،  
يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَقِسِّمُ الْجِنِّينَ مَا لَبِثُوا إِغْرِيَّ سَاعَةٍ ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا مَلِكُونَ إِلَّا عَيْشَةَ أَوْ خَمْرَهَا ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾

(١) الآية : ٥٥ من سورة الروم .

(٢) الآية : ٤٦ من سورة النازعات .

## الثبات والأناة والاحتياط

إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله ، فما عساك تصنع ؟ .

تدع الرُّوع ينهب فؤادك ، والعواصف الجائحة ترمي بك في مكان سحيق ؟ ! أم تقف مطمئناً ، وتحاول أن تتلمَّس بين هذه الضوابط مأمناً يهديك إليه الفكر الصائب ؟ .

يقول « ديل كارنيجي » :

١ - سل نفسك : ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لي ؟ .

٢ - ثم هيئ نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات .

٣ - ثم اشرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وهذه خطة يوصى العقل والدين معًا باتباعها . وفي أدب العرب ذخائر لا تحصى من شجاعة الرجال في استقبال المحن ، ومن حرصهم على الخروج منها مخرجاً لا يخدش المروءة ولا الشرف .

ولا بأس أن نذكر هنا أبيات ثابت بن زهير الملقب « تأبَّط شرًا » :

أضاع وقادى أمره وهو مُذْبِر به الخطبُ إلا وهو للقصد مُبَصِّرُ إذا سُدَّ منه منخر جاس منخر	إذا المرء لم يَحْتَلْ وقد جدَّ جدَّه ولكنْ أخو الحزم الذي ليس نازلاً فذاك قريعُ الدهر ما عاش حُولُ
---	--

« تأبَّط شرًا » في هذه النصائح يشرح ما قاله المهندس الأمريكي « ويليام كاريير » : ( إنَّ شرَّ آثار القلق تبديده القدرة على التركيز الذهني ، فنحن عندما نقلق تتشتَّت أفكارنا ، ونعجز عن حسم المشكلات واتخاذ قرار فيها ، ولو أنَّا قسرنا أنفسنا على مواجهة أسوأ الاحتمالات ، وأعدناها لتحمل أي النتائج لاستطيعنا النفاذ إلى صميم الواقع ، ولأنَّا أحسننا الخلاص منه ) .

ولا شك أنَّ الرجل الذي يضبط أعصابه أمام الأزمات ، ويملك إدارة البصر فيما حوله هو الذي يظفر في النهاية بجميل العاقبة .

وتأمل في قول قَطْرِيٌّ :

أقول لها وقد طارت شَعاعًا  
فإنك لو طلبتِ بقاء يومٍ  
من الأبطال وريحك لن تُراعى  
على الأجل الذي لك لن تُطاعى

وقول الآخر :

أقول لها وقد جشأت وجاشت  
مكانك تُحْمِدِي أو تستريحي  
إن هذه الأبيات تصوير حسن لوقف الرجلة من النوازل العصيبة .  
ماذا يجديك أن تفقد رشك إذا هدَدتَك أو دهمتك أزمة ؟ .

هذا الشاعر عندما أحسَّ المنايا تقترب منه أعمل فكره بقوة : أيسِلم سيقانه للريح طليباً للنجاة ؟ . كلا . إنَّ الفرار لن يرجئ أجيلاً حان ، إنَّه لن يجلب إلا المرة ، فليبق إذن في مكانه ، فالبقاء - إن قتل - أروح للنفس ، وإن عاش أدعى للحمد .

وعندما يبقى الفكر يقظاً على هبوب الأخطار ، وعندما يظل المرء رابط الجأش يقلب وجوه الرأي ابتغاء مخلص ما عراه ، فإن النجاح لن يخطئه .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

وقد يتوقع الإنسان بعض النوازل الخوفة ، ويستبد به القلق في انتشارها ، وكأنما هي الموت أو أشد .

وربما لم يهنا له طعام ولا ارتسم على فمه ابتسام من تفكيره المشدود إلى ما يتوقع .  
والناس من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف الذل في ذل !! .

وهذا خطأ بالغ . فالؤمن الراسد يفترض أن أسوأ ما يقلقه قد وقع بالفعل ، ثم ينتزع مما يتبقى له - بعد هذا الافتراض - عناصر حياة تكفى ، أو معانى عزاء تشفى ، على نحو ما قال الرسول ﷺ : « لِتَعْزَّ الْمُسْلِمُونَ فِي مَصَابِهِمُ الْمُصِيبَةِ فِيَّ ، إِنَّهُمْ لَنْ يُصَابُوا بِمَا لَمْ يَرَوْا » .  
أجل فقد كانت حياته لهم بركةً ما تُعوض ، ثم حُمَّ القضاء وذهب ، فكل مُصاب بعده هينٌ .

إن الإنسان يتخوّف فقدان ما أُلف ، أو وقوع ما يفتح حمله ، وكلا الأمرين - بعد حدوثه - يستقبل دون عناء جسيم .

أعرف رجلاً قطع قدمه في جراحة أجريت له ، فذهبت إليه لأواسيه ، وكان عاقلاً عالماً ، وعزمت أن أقول له : ( إن الأمة لا تنتظر منك أن تكون عداءً ماهراً ، ولا مصارعاً غالباً ، إنما تنتظر منك الرأي السديد والفكر النير ، وقد بقي هذا عندك ولله الحمد ) .

وعندما عُدْته قال لي : ( الحمد لله . لقد صحبتنى رجلٌ هذه عشرات السنين صحبة حسنة ، وفي سلامته الدين ما يُرضي الفؤاد ) .

وقد نقل لنا « ديل كارنيجي » هذه النصائح : ( أعدوا أنفسكم لتقبل الحقيقة فإن التسليم بما حدث هو الخطوة الأولى في التغلب على المصائب . وهذه الحكمة « لوليم جيمس » فسرها الفيلسوف الصيني « لين يوتانغ » بقوله : إن طمأنينة الذهن لا تتأتي إلا مع التسليم بأسوأ الفروض ، ومرجع ذلك - من الناحية النفسية - أن التسليم يحرر النشاط من قيوده . قال : ومع ذلك فإن الألوف المؤلفة من الناس قد يخطّمون حياتهم في سورة غضب ، لأنهم يرفضون التسليم بالواقع المر ، ويرفضون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبدلًا من أن يحاولوا بناء أمالهم من جديد يخوضون معركة مريرة مع الماضي ، وينساقون مع القلق الذي لا طائل تحته ) .

والتحسُّر على الماضي الفاشل ، والبكاء المجهد على ما وقع فيه من آلام وهزائم هو - في نظر الإسلام - بعض مظاهر الكفر بالله والسخط على قدره .

ومنطق الإيمان يوجب نسيان هذه المصائب جملة ، واستئناف حياة أدنى إلى الرجاء وأحفل بالعمل والإقدام .

وفي هذا يقول الله عز وجل :  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِيمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْرَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا عُزَّزٍ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَأْتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُنْهِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

(١) الآية ١٥٦ من سورة آل عمران .

وفي ضوء هذه الآية تُدركُ قول القائل :  
 فإنْ تَكُنِ الأيامَ فِينَا تَبْدَلْتِ  
 فَمَا لَيَّنَتْ مَنَا قَنَاءَ صَلِيبَةَ  
 وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نُفُوسًا كَرِيمَةَ  
 وَقَيْنَا بِحَسْنِ الصَّبْرِ مَنَا نُفُوسَنَا  
 إِنَّ الْيَنْبُوْعَ الَّذِي تَسِيلُ مِنْهُ مَخَالِيلُ الرَّجُولَةِ النَّاضِجَةِ هُوَ الَّذِي تَسِيلُ مِنْهُ مَعَانِي  
 الْيَقِينِ الْحَيِّ .

إِذَا وَجَدَتِ الصَّبْرَ يَسَاوِي الْبَلَادَةَ فِي بَعْضِ النَّاسِ فَلَا تَخْلُطُنَّ بَيْنَ تَبْلُدِ الطَّبَاعِ  
 الْمَرِيضَةِ وَبَيْنَ تَسْلِيمَ الْأَقْوَيَاءِ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ .  
 وَأَوْلَى مَعَالِمِ الْحَرِيَّةِ الْكَاملَةِ أَلَا يَضْرِعَ الرَّجُلُ لَحْاجَةٍ فَقَدَهَا .

وَعِنْدَمَا يَكُونُ الْمَرْءُ عَبْدُ رَغْبَةِ تَنْقُصِهِ فَتَلِكُ ثَغْرَةُ فِي رَجُولَتِهِ ، وَهِيَ بِالْتَّالِي  
 ثُلْمَةُ فِي إِيمَانِهِ .

وَالْإِيمَانُ الْحَقُّ يَجْعَلُ الرَّجُلَ صُلْبَ الْعُودِ ، لَا يَمِيلُ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، وَلَا يَنْحْنِي مَعَ  
 أَيِّ خَلَّةٍ . إِذَا أَحْصَيْنَا الرِّجَالَ الَّذِينَ لَا يَأْخُذُهُمُ الدَّهْشُ أَمَامَ الْمَفَاجَاتِ عَرَفْنَا أَنَّ لَهُمْ  
 مِنْ أَنفُسِهِمْ مَا يَهُوَنُ عَلَيْهِمْ أَيُّ مَفْقُودٍ وَمَا يَسْلِيْهِمْ عَنْ كُلِّ فَائِتٍ ، وَبِهَذَا الشَّعُورِ  
 يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقْتَحِمُوا كُلَّ حَصَارٍ تَضْرِبُهُمْ الْلَّيَالِيُّ الْكَوَالِحُ .

### ❀❀❀❀❀

إِنَّ الرَّجُلَ الْعَرِيدَ الْهَجَّامَ عَلَى لَذَائِذِ الْحَيَاةِ - مَتَعْسِفًا أَوْ مَتَلْطِفًا - فِي اقْتِنَاصِهِ رِبْعًا  
 تَصِيبِهِ النَّازِلَةُ مِنْ نَوَالِ الْدَّهْرِ فِي لِقَاهَا فِي غَيْرِ مُبَالَاهٍ ، أَوْ يَقُولُ قَوْلُ امْرَئِ الْقَيْسِ :  
 (الْيَوْمُ خَمْرٌ وَغَدَّاً أَمْرٌ) .

وَفِي الْحَيَاةِ أَنَّاسٌ يَلْوِذُونَ بِالْاِسْتِخْفَافِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا صَوَّبَتِ  
 الْأَحْدَاثُ لَهُمْ سَهْمًا مَسَّ جَوَانِبِهِمْ كَمَا تَمَسَّ الْقَذِيفَةُ الطَّائِشَةُ أَطْرَافَ رَجُلٍ مَشْغُولٍ  
 عَنْهَا بِأَمْرِ نَفْسِهِ .

وَحَالَاتٌ هُؤُلَاءِ لَا تَجْعَلُ مثلاً يُحْتَذِى فِي تَحْمُلِ الشَّدَائِدِ بِجَلَدٍ أَوْ مَرْحٍ .

وَكُلُّ مَا تَدَلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَسَاسِيَّةَ بِالْآلامِ تَتَفاوتُ تَفَاوِتًا وَاسِعًا بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِنَّ  
 الْاسْتِغْرَاقَ فِي حَالٍ مَا - طَيْبَةً أَوْ خَبِيثَةً - يَخْفَفُ مِنْ حَدَّ الشَّعُورِ بِالْأَذْى .

ومن ثُمَّ وجب على طلاب الكمال وأهل المروءة أن يتحصنوا بِعُثُلِهم العليا ، وأن يتلمسوا السُّلُوك في ظلِّها .

وأن يجدوا في ذلك عزاء لا يجده الشُّطار والفُجَار في الرُّضى بِعَرَبِهم الدنيا .

ولقد قصَّ علينا « ديل كارنيجي » قصة رجل أصابته قُرْحة في أمعائه بلغ من خطورتها أنَّ الأطباء حذَّدوا له أوان وفاته ، وأوعزوا إليه أن يجهَّز كفنه . قال : ( وجاءَ أتَخَذْ « هانى » - اسم المريض - قراراً مدهشاً . إنَّه فكر في نفسه إذا لم يبقَ لِي في هذه الحياة سوى أمد قصير ، فلماذا لا أستمتع بهذا الأمد على أكمل وجه ، لطالما تمنَّيت أن أطوف حول العالم قبل أن يدركني الموت ، فها هو ذا الوقت الذي أحقق فيه أمنيَّتي . وابتاع تذكرة السفر ، فارتاع أطباؤه وقالوا له : إننا نحدِّرك ، إنك إن أقدمت على هذه الرحلة فستدفن في قاع البحر ، لكنه أجاب : كلا ، لن يحدث شيء من هذا ، لقد وعدت أقاربى ألا يُدفن جثمانى إلا في مقابر الأسرة . ) وركب « هانى » السفينة ، وهو يتمثَّل بقول الحِيَام :

إِنَّمَا أَقْصَى النَّعَيمِ بِمَا مَلَكَ يَدَاكَ  
قَبْلَ أَنْ تَوَسَّدَ اللَّحْدَ فَلَا شَيْءَ هُنَاكَ  
سَوْى تَرَابَ مِنْ تَحْتِكَ وَتَرَابَ مِنْ أَعْلَاكَ  
فَلَا شَرَابَ وَلَا غُنَاءَ وَلَا نَهَايَةَ بَعْدَ ذَاكَ

وببدأ الرجل رحلةً مشبعة باللهو والاستخفاف ، وأرسل خطاباً لزوجته يقول فيه : « لقد شربتُ النبيذ على ظهر السفينة . ودخنتُ السيجار ، وأكلتُ ألوان الطعام كلَّها ، حتى الدَّسم المحظوظ منها ، وتمتنعتُ في هذه الفترة بما لم أتمتع به في ماضى حياتى » ثم ماذا ؟ . ثم يزعم « ديل كارنيجي » أنَّ الرجل صحٌّ من علته ، وأنَّ الأسلوب الذى سار عليه أسلوب ناجع في قهر الأمراض ومغالبة الآلام . . .

لقد أيقن الرجل أنَّ ساعته حانت فلم تفزعه رهبة الموت ، وبني مسلكه عقب تكشف مصيره له على انتهاز كل لحظة للعبٍ من المتع الميسرة . فإذا هو بما عراه من سرور مذهل يتغلَّب على القرحة المعاوية ويستعيد عافيته الأولى .

ونحن لا ننكر آثار الانتعاش النفسي في هزيمة الصعب ، ونعرف بما لارتفاع القوى المعنوية من استهانة بالتعب ، واستطالة على العوائق ، وانتصار في أغلب معارك الحياة .

بيد أننا نلتفت النظر إلى الغلط الشنيع في فهم الموت على أنه عدم محضر ، وسوق أبيات الخيام السابقة لحفل الشهوات على التهام ما يمكنها من الحياة قبل أن تنتهي هذه الحياة ولا تعود .. هذه أكذب فرية يشيّعها المبطلون في أرجاء العالم .

والحقُ الذي كان يجب على المنتسبين للأديان كافة أن يفهموه وأن يقفوا عنده هو أنَّ الموت مرحلة تتلوها حياة أضخم من حياتنا هذه ، وأعمق إحساساً ، وأرحب آفاقاً .

حياة تعدُّ حياتنا هذه لهُواً وَعَبَثاً إلى جانبها ، ولذلك يعبر القرآن عنها بلفظ أكبر في مبناه ليكون أوسع في معناه فيقول :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ لَعْنٌ وَلَنِّ الْدَّارُ الْآخِرَةُ لِهِ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

إن الشعور بأن الموت بداية فناء مطلق وَهُمْ يشيع للأسف بين الكثيرين ، وهو الذي يخامر المنتحررين عندما يقررون مغادرة الحياة .

إنَّهُمْ معدُّون بالإحساس السارى في أعصابهم بحملهم الغم والكرب ، فما الذي يريهم من هذا الإحساس ؟ . الموتُ الذي يتوهّمونه ضياعاً وانقطاعاً وفراغاً من كل شعور !! .

فكيف إذا علموا بالحقيقة المرأة ، ووجدوا أنفسهم التي يريدون إزهاقاها ما تزال باقية لم يتغير منها إلا الإهاب الذي احتواها حيناً ، ثم عريت عنه دون أن ينقص وعيها أو يقل حسُّها ؟ ! .

إنَّ ما بعد الموت طور آخر من أطوار الوجود الإنساني يتسم بزيادة الوعي وحدَّة الشعور .

قيل : إنَّ أبا حامداً الغزالى لما أحسَّ دُنُونَ أجله قال لبعض أصحابه : ائتنى بثوب جديد . فقال له : ما تريده به ؟ .

قال أبو حامد : سألقى به الملك !! .

فجاءوه بالثوب ، فطلع به إلى بيته ، وأبطنَ على أصحابه ، فلم يَعُدْ . فذهب إليه أصحابه يستطلعون نبأه ، فإذا هو ميت ، وإذا عند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات :

(١) العنكبوت : ٦٤ .

فرَثُونِي ، وبِكَوَالِي حَزَنَا ..  
 ليس<sup>(١)</sup> هذا الميت والله أنا ..  
 كان بيته وقميصي زمانا  
 طرط<sup>٢</sup> عنه وبقى مُرتَهنا  
 لامتحانى فنفيت المحانا<sup>(٣)</sup>  
 وبينى لى فى المعالى سَكَنا  
 فحَيَّتُ ، وخَلَعْتُ الْكَفَنا  
 وأرى الله جَهَارًا عَلَنَا<sup>(٤)</sup>  
 لست أرضى داركم لى وطني<sup>(٥)</sup>  
 كَحِيَا ، وهو غَيَايَاتُ الْمُنَى ..  
 هى إِلَى نُقلَةٍ مِنْ هاهنا ..  
 وهذه الأبيات ، سواء صحت نسبتها للغزالى أم لم تصح ، فهى صورة صحيحة

قُل لِإِخْرَوْنَ رَأَوْنِي مَيِّتًا  
 أَتَظَنُونِي بِأَنِّي مَيِّتُكُمْ  
 أَنَا فِي الصُّور<sup>(٦)</sup> وَهَذَا جَسْدِي  
 أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي  
 أَنَا دُرْقَدْ حَوَاهْ صَدَافٌ  
 أَحَمَدُ اللَّهُ الَّذِي خَلَصَنِي  
 كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَنْاجِي مَلَأَ  
 وَأَنَا الْيَوْمُ أَنْاجِي مَلَأَ  
 قَدْ تَرَحَّلْتُ وَخَلَفْتُكُمْ  
 لَا تَظَنُّوا الْمَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ  
 لَا تَرْعَكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا  
 لِفَكْرِ الدِّينِي عَمَّا دَارَ وَرَاءَ الْمَوْتِ .  
 وهذه الأبيات ، سواء صحت نسبتها للغزالى أم لم تصح ، فهى صورة صحيحة

ولقد قرأت لأحد الماديين أنه رأى صرصاراً يموت - لعله من ضربة عابرة -  
 فتمثل مستقبل البشرية كلها في نهاية التافهة ، إنها هكذا تنقضى ، ويحتويها  
 ظلام العدم والنسيان !! .

أما أبيات الخيام التي تصوّر الميت جثة تحتها تراب وفوقها تراب ، ثم لا شيء بعد ،  
 فهى ليست إلا تخليطاً فى تخليط .

وأى امرئ يبني حياته على هذا الزعم فهو يبنيها على الخرافه .  
 وقد يلتذر بعيشة على أوسع نطاق ، وقد يكون غرامه في ملاقاۃ الدنيا بخيرها  
 وشرها مثار نجاح وتأمل ، ولكن لا يجوز أن تخدع بهذه الصورة الباطلة .  
 فالنهج الأقوم أن يكون مصدر طاقتنا المادية والمعنوية هو الحق وحده .

وماذا على المريض المصاب بقرحة الأمعاء لو أنه حسب الموت نُقلَةٍ من بلد إلى بلد ،  
 فلم ير فيه وحشة مروعة ولا ظلاماً مهولاً .

(١) يرفض أن تكون الشخصية الإنسانية هي تلك الجثة البالية .

(٢) يعني البرزخ بين الحياتين ؛ وما كان الجسد قبلأ إلا ملباً خلعاً .

(٣) بالموت تنتهي فترة الاختبار وتبدأ سعادة السعداء .

(٤) رؤية روحية بداهة لا كما يتبارد إلى الذهن .

(٥) الجيء إلى الدنيا ثم تركها مشيئة إلهية خالصة ، ولكن في الكلام معنى الاستبشار بالقى ..

وماذا عليه لو تحمل نبأ العلة التي أصابته بطمأنينة وتسليم لأنه يؤمن بالله ، ولا يحزن من لقائه وإن اقترب موعده ؟ ! .

وأقرب إلى الحقيقة من أبيات الخيام الآنفة أبيات الشاعر « محمد مصطفى حمام » التي يقول فيها<sup>(١)</sup> :

علمْتني الحياة أَنَّ (حياتي)  
قد أرى بعده نعيمًا مقيمًا  
علَّ خوفى من الحساب كفيل  
علَّ خوفى يردنى عن أمور  
 وعدَ الله من ينيب ويخشى  
 وبخُسْبى وَعْدُ من الله حقٌّ

إنما كانت امتحاناً طويلاً  
أو أرى بعده عذاباً وبيلاً  
لى بالصفح يوم أرجو الكفيلاً  
خُبِثْتُ غاية وساعت سبيلاً  
بطشه رحمةً وصفحاً جميلاً  
إنه كان وعده مفعولاً

الواقع أنَّ الجزع والجبن والتحسر وشتى العواطف التي تنتاب الناس بإزاء الموت تعود إلى فهمه على أنَّه انتقال من وجود إلى عدم ، ومن ضياء إلى ظلام ، ومن إيناس إلى وحشة .

فهل يدرى هؤلاء أنَّ هذه الحياة الدنيا بما فيها ومن فيها ستكون ذكريات حافلة مثيرة ، وأنَّ يوماً لا بدَّ منه سوف يقدم ليتلاقى فيه الصالحون ، فيقول بعضهم لبعض :

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَاقِبُلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَنْهَا اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا  
عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ تَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾٢﴾

أما حديثهم عن الملحدين والجحدة فإليك نبأ :

﴿ فَاقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَهُمْ ﴾٣﴾  
قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٤﴾ يَقُولُ أَئْنَكَ لَمَنْ مُصَدِّقِينَ ﴿٥﴾ أَئْذَا  
مِشَاقِقُنَا تُرَأِبًا وَعَظَلَمًا أَئْنَ الْمُدِينُونَ ﴿٦﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُظَلَّمُونَ  
﴿ فَأَطْلَعَ فَرِئَاهُ فِي سَوَاءٍ أَبْخِيمٍ ﴾٧﴾ قَالَ تَالَّهُ إِنِّي كِدَّ لَتُرَدِّينَ ﴾٨﴾



(٣) الصافات : ٥٠، ٥٦.

(٤) الطور : ٢٦، ٢٨.

(١) من قصيدة ثبتت بقيتها في موطن آخر .

## هموم وسموم

الخبراء بحياة الغرب يُشكّون من مرارة الكفاح الدائري في أرجائه للحصول على المال والمكاثرة به .

فالأفراد والجماعات منطلقون في سباق رهيب لإحراز أكبر حظّ مستطاع من حُطام الدنيا .

وقواهم البدنية والنفسية تدور كالآلية الدائبة وراء هذه الغاية ، وقد احتشدت فيها جميع الخصائص الإنسانية الدنيا والعليا .

إلا أنَّ الآلات قد يقطُر عليها من الزيت ما يرطّب حدة الاحتكاك في حركتها ، ويمنع الشرر المتولّد من إحراقها . أما أعصاب الناس في عراك المادة الرهيب فكثيراً ما تفقد هذا العنصر الملطف ، وتقضى مُستشاراً يستبدل بها القلق والضيق حتى تشتعل فتاتيَ على الأخضر واليابس .

وقد كتب « ديل كارنيجي » يصف مشاهد هذا السُّعار الماديٌّ وما خلفه في النفوس والجسوم من بلاء فقال : ( عشتُ في نيويورك أكثر من سبع وثلاثين سنة ، فلم يحدث أن طرق أحد بابي ليحدِّرني من مرض يُدعى « القلق » ، هذا المرض الذي سبب في الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر أكثر مما سببه الجدرى بعشرة آلاف ضعف ، نعم لم يطرق أحد بابي ليحدِّرني أنَّ شخصاً من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرض للإصابة بانهيار عصبيٍّ مرجعه في أغلب الأحوال إلى القلق !! ) .

ويقرر الأطباء أنَّ واحداً من كل عشرينأمريكيًّا سوف يقضي جانباً من حياته في مَصَح للأمراض العقلية ، ومن الحقائق المريمة أنَّ واحداً من كل ستة شبان تقدّموا للالتحاق بالخدمة العسكرية في خلال الحرب العالمية الأخيرة رُدَّ على أعقابه لأنَّه يعاني مرضًا جسديًّا أو نفسيًّا عقليًّا ... قال : ( وألقى الدكتور « هارولدسين هابين »

الطيب بمستشفى «مايو» رسالة في الجمعية الأمريكية للأطباء والجراحين العاملين في المؤسسات الصناعية قال فيه : «إنه درس حالات ١٧٦ رجالاً من رجال الأعمال أعمارهم مُتجانسة في نحو الرابعة والأربعين ، فاتضح له أنَّ أكثر من ثلث هؤلاء يعانون واحداً من ثلاثة أمراض تنشأ كلها عن توتر الأعصاب ، وهي : اضطراب القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم . ذلك ولما يبلغ أحدهم الخامسة والأربعين بعد». أهذا هو ثمن النجاح ، هل يعُد ناجحاً ذاك الذي يشتري نجاحه بقرحة في معدته ولغط في قلبه ، وماذا يفيده المرض إذا كسب العالم أجمع وخسر صحته؟! لو أنَّ أحداً ملك الدنيا كلها ما استطاع أن ينام إلا على سرير واحد ، وما وسعه أن يأكل أكثر من ثلاث وجبات في اليوم ، فما الفرق بينه وبين الفاعل الذي يحفر الأرض؟! لعلَّ الفاعل أشد استغرقاً في النوم ، وأوسع استمتاعاً بطعمه من رجل الأعمال ذي الجاه والسطوة .

ويقول الدكتور «و . س . الفاريز» : اتَّضح أنَّ أربعة من كل خمسة مرضى ليس لعلتهم أساس عضوي البتَّة ، بل مرضهم ناشئ عن الخوف ، والقلق ، والبغضاء ، والأثرة المستحكمة ، وعجز الشخص عن الملازمة بين نفسه والحياة )

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

على ضوء هذه الصيحات المخزونة نحب أن نذكر بعض أحاديث النبي محمد رسول الله ﷺ في ذم هذا التكالب والترهيب من عقباه ، قال : «من جعل الله همَّا واحداً كفاه الله همَّ دنياه . ومن تَشَعَّبَتْهُ الهموم لم يُبَالِ الله في أَىْ أُودِيَّةِ الدُّنْيَا هَلَّكَ»<sup>(١)</sup> .

هذا اللون من التوجيه النبوى يقصد به بث السكينة في الأفئدة ، واستئصال جراثيم الطمع والتوجع التي تُطْلِيلُ لُعُوبَ الإنسان وراء الدنيا وتحسّره على ما يفوته منها ، وفي ذلك يقول : «من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شَمْلَه ، وأتَّهُ الدنيا وهي راغمة . ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفَرَقَ عليه شَمْلَه ، ولم يأْتَهُ من الدنيا إلَّا ما قُدِرَ لَهُ»<sup>(٢)</sup> . وقال : «تَفَرَّغُوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإِنَّهُ من كانت الدنيا أكبر همَّه أفشى الله ضَيْعَتَه ، وجعل فقره

---

(١) الحاكم . (٢) الترمذى .

بين عينيه . ومن كانت الآخرة أكبر همه جمَعَ الله لَهُ أموره ، وجعل غناه في قلبه .  
وما أَقْبَلَ عَبْدًا بِقَلْبِهِ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا جَعَلَ الله قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَفَدِّي إِلَيْهِ بِالْوُدُّ  
والرحمة ، وكان الله إِلَيْهِ بِكُلِّ خَيْرٍ أَسْرَعَ «<sup>(١)</sup>» .

وفي مواريث النبوة أحاديث كثيرة من هذا النوع الرضي الهادئ ، وهي حكم بالغة  
إذا سبقت في مجالها ووضعت في مواضعها ، وهي لا تعنى إلا كفَكَفة  
الجهود المجنونة في معركة الخبز ، وضبط عواطف البشر وراء مطالب الحياة ، فلا  
يكون زحاماً لهم وسباقهم ذريعة إلى غرس الأضغان ، ونسيان الفضائل ، وحرق  
الصداقات ، ورد الإنسان المذهب الرقيق حيواناً محدود الظفر والناب يحول مناكب  
الأرض إلى مسبعة متهاشرة .

ولكن بعض الزهاد فهم الأحاديث الآنفة فهمماً مقلوباً ، واستخدمها لإبطال أعمال  
الحياة بدلاً من تهذيبها ، فأساء بذلك إلى الدين والدنيا معاً .

إن من حق الدنيا علينا أن نعمل فيها ، وأن ننال من ضروراتها ومرفهاتها ما يحفظ  
حياتها ويسعدها ، وقد يكلّفنا هذا العمل جهداً شاقاً يتصبّب معه العرق ويطول فيه  
العناء ، ولكن هذا الحق المقرر ، وهذا الجهد المبذول لبلوغه لا يجوز أن يميلاً بنا عن  
الجادّة ، أو يزيغاً بنا عن الرشاد .

فالمال إذا طلبناه فلكى نتفقه لا لكي نخترنه ، وإذا أحببناه وحصلناه فلننزله فيما  
يحقق مصالحتنا ويصون حياتنا .

ومن الحماقة أن يتحول المال إلى هدف مقصود لذاته تذوب في جمعه المهج ،  
وترتخص العافية ، وتتكاثر الهموم ، وتُجتذب الأمراض !! .

❀❀❀❀❀

قال ابن الرومي :

إنما الحرث مركب الأشقياء وعلى المتعبات ذيل العفاء لعيش مشمر للفناء	قرب الحرث مركباً لشقي مرحباً بالكاف يأتي هنيئاً ضلة لامرئ يشمر في الجم
--	--

(١) البهقى .

رث والعمر دائب في انقضاء  
نت لرب الكنوز كنزة بقاء  
وهو منه على مدى الجوزاء  
وما ذاق عاجل النعماء  
ن يرى أنه من السفداء  
نظرت عينيه بلا غلواء  
ض وإخراز مسكة الحروباء  
يجمع الناس من فضول الشراء  
ق وليسوا بتابعين الأهواء  
إنما عيش عائش بالهباء

دائيا يكتنز القناطير للوا  
حبذا كثرة القناطير لو كا  
يُحسب الحظ كله في يديه  
ليس في أجل النعيم له حظ  
ذلك الخائب الشقي وإن كا  
حسب ذي إرية ورأي جلي  
صحة الدين والجوارح والعر  
تلك خير لعارف الخير مما  
ولها من ذوي الأصالة عشا  
ليس للمكثر المنافق عيش

وللإسلام تعاليم طيبة في موقف الإنسان من دنياه ، إنَّه يتوجه ابتداء إلى القلب  
فيغرس فيه العفاف والترفع ، ويُكره إليه الجشع والشرابة والتطلع .

إن لعشق المال ضراوة تفتك بالضمائر والأبدان ، وتوثر المذلة والهوان ، وانظر ما  
يعقبه الحب الشديد للمال والقلق البالغ من فواته .. يقول « ديل كارنيجي » : ( من  
الحقائق المعروفة أنه عندما تهبط قيمة الأسهم في (البورصة) ترتفع نسبة السكر في  
البول والدم بين المضاربين !! ) .

أى علاج لهذه الحال أكرم من قول محمد رسول الله ﷺ : « إنَّ هذا المال خضر  
حُلو ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك  
له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع .... »<sup>(١)</sup> .

إن المال كالفاكهه الجميلة اللون ، الشهية المذاق ، وميل الطياع إلى اقتناه هذا  
الخضر الحلو معروف ، بيد أن من الناس من يظل يطعم حتى تقتله التخمة . ومنهم  
من يختطف ما في أيدي الآخرين إلى جانب نصيبه المعقول .

ومنهم من يدخر ويجوع . ومنهم من يشغله القلق خشية الحرمان ، ومن يشغله  
القلق طلب المزيد .

(١) أبو داود .

وأفضل الناس من يأخذونه بسماحة وشرف ، فإذا تحول عنهم لم يشيعوه بحسنة أو يرسلوا وراءه العبرات لأن بناءهم النفسي يقوم وحده بعيداً عن معايير المكاثرة ، ورذائل النّهم والتّوسيع ..

قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس إنَّ الغنى ليس عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس . وإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْتِي عَبْدَه مَا كُتِبَ لَه مِن الرِّزْق ، فَاجْمِلُوا فِي الْطَّلب ، خَذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُّم »<sup>(١)</sup> .

والإجمال في الطلب - كما رأيت - لا يعني القعود أبداً .

إنَّ الطلب الجميل تكبُّل الحلال في سماحة ورفق ، واطراح الحرام في زهادة وأنفة ، ثم تجيء بعد ذلك بقية تعاليم الإسلام القائمة على الإيمان بالله ، والتصديق بلقاءه ، وإيثار ما عنده ، ومعرفة قدر الدنيا بالنسبة إلى الأخرى .

ثم معرفة قدر الله جل شأنه بالنسبة إلى ما عداه .

إن هذه المعرفة تنفي الأحزان عن صاحبها ، وتذر في فؤاده ثقة تغمر يومه وغدو بالراحة والرضا :

«الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطَمِّنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ كُلُّهُمْ تَطَمِّنُ  
الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَ الْمَهْرُ وَحُسْنُ مَيَابِ»<sup>(٢)</sup>

أجل . طُوبى لهم ، إنهم سعداء بيقينهم وإخلاصهم واستقامتهم على النهج الذي رسمه الإسلام لهم . « طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره . طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله .. »<sup>(٣)</sup> .

إن جماهير غفيرة من الرجال الذين تظلّهم حضارة الغرب محرومون من هذه الوداعة .

يقول « ديل كارنيجي » : ( لقد أثبتت الإحصاء أنَّ القلق هو القاتل ( رقم ١ ) في أمريكا ، ففي خلال سنين الحرب العالمية الأخيرة قُتل من أبنائنا نحو ثلث مليون مقاتل . وفي خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليوني نسمة .

(١) أبو يعلى .

(٢) الرعد : ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) الترغيب والترهيب .

ومن هؤلاء الآخرين مليون نسمة كان مرضهم ناشئاً عن القلق وتوتر الأعصاب .. نعم إنَّ مرض القلب من الأسباب الرئيسية التي حدت بالدكتور «الكسيس كاريل» إلى أن يقول : إنَّ رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون مبكرین .

وقلما يمرض الزوج في أمريكا أو الصينيون بأمراض القلب ، فهؤلاء أقوام يأخذون الحياة مأخذًا سهلاً ليناً . وإنك لنرى أنَّ عدد الأطباء الذين يموتون بالسكتة القلبية يزيد عشرين ضعفاً على عدد الفلاحين الذين يموتون بالعلة نفسها ، فإنَّ الأطباء يحيون حياة متواترة عنيفة ويدفعون الثمن غالياً .

أجل فإنَّ القلق والهم يُحطمان العمالقة ، ويُذبلان الوجوه الطافحة بالحياة ، ولذلك يقول الشاعر :

**والهمْ يخترم الجسم نحافةً      ويشيب ناصية الصبي وتهرمُ**

وقد كنتُ أعجب كيف أنَّ فلاناً امتلكه الحزن إثر كارثة عصيبة ، فإذا بعض أضراسه قد سقط من فمه ، ثم أدركت بعد كشفوف الطب الحديث أنَّ الأزمات النفسية العاتية شديدة الوطأة على الجسم ، وأنها تحول العصارات الهاضمة إلى سمو ، فلا تستفيد المعدة من أغنى الأطعمة بالغذاء ، وأنها تفتت جير الأسنان ، وتنزللها من مستقرها العتيق .

وقد قرأتنا كيف أنَّ بكاء يعقوب على ابنه أفقده بصره ، وكيف أنَّ الغمَّ بلغ مداه بالسيدة عائشة - عندما تطاول عليها الأفاؤون - فظلت تبكي حتى قالت : « ظننتُ أنَّ الحزن فالق كبدى » .

وقد أدرك الموجّهون خطر الأحزان على كيان الأم وإن>tagها ، فتألفت في (المانيا) منذ سنين جماعة جعلت شعارها : القوة في السرور . وإنَّ لخير للألم أن تستقبل الحياة بشُرٍ وأمل كى تستفيد من وقتها ومالها ، ومن حقّها على قادتها أن يجنبوها القُنوط والتلاؤم والاستكانة ، فإنَّ هذه المشاعر الباردة تطويها في أكفان الموت قبل أن تموت :

**إِنَّا الْمَيْتُ مَيْتُ الْأَحْيَا  
كَاسِفًا بِالْهُ قَلِيلَ الرَّجَاء**

**لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بَيْتَ  
إِنَّا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِبًاً**

وما أظن عاقلاً يزهد في البشاشة أو مؤمناً يجتمع إلى التشاوم واليأس ، وربما غلت المراء أعراض قاهرة فسلبته طمأنينته ورضاه ، وهنا يجب عليه أن يتثبت بالعناية العليا كى تنقذه مما حل به ، فإن الاستسلام لتيار الكآبة بداية انهيار شامل في الإرادة يطبع الأعمال كلها بالعجز والشلل .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن يستعينوا بالله في النجاة من هذه الآفات . قال أبو سعيد الخدري : دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : « يا أبو أمامة .. ما لى أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمني وديون يا رسول الله . قال : أفلأ أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ؟ قلت : بلـى يا رسول الله . قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسـت : اللهم إـنـى أـعـوذـ بـكـ مـنـ الـهـمـ وـالـحـزـنـ ، وأـعـوذـ بـكـ مـنـ الـعـجـزـ وـالـكـسـلـ ، وأـعـوذـ بـكـ مـنـ الـجـبـنـ وـالـبـخـلـ ، وأـعـوذـ بـكـ مـنـ غـلـبـةـ الـدـيـنـ وـقـهـرـ الرـجـالـ »<sup>(١)</sup> . قال : فعلـتـ ذـلـكـ ، فأـذـهـبـ اللهـ هـمـيـ وـقـضـىـ عـنـ دـيـنـيـ .

وبديهي أن تردـيدـ كلمـاتـ معـيـنةـ ليسـ إـلاـ مـفـتـاحـاـ لأـحـوالـ نـفـسـيـةـ جـدـيـدةـ تـتـغـيـرـ بـهـاـ حـيـاةـ الرـجـلـ ، ثـمـ تـسـتـقـيمـ بـعـدـهـ خـطـاهـ وـتـلـاحـقـهـ عـنـيـةـ اللهـ .

وقد رأـيـتـ أـنـ النـبـيـ ﷺ استـغـرـبـ قـعـودـ الرـجـلـ فـيـ الـمـسـجـدـ ، فـرـدـهـ إـلـىـ الـمـيـدانـ مـزـوـداـ بـدـعـاءـ يـفـتـتحـ بـهـ نـهـارـهـ ، وـيـبـتـدـئـ بـهـ أـعـمـالـهـ بـعـيـداـ مـنـ أـغـلـالـ الضـيقـ الـنـفـسـيـ وـالـشـلـلـ الـفـكـرـيـ . وبـذـلـكـ يـأـمـنـ « غـلـبـةـ الـدـيـنـ ، وـقـهـرـ الرـجـالـ » .

وعن شـدـادـ بـنـ أـوـسـ قـالـ : كـانـ رـسـولـ اللهـ ﷺ يـعـلـمـنـاـ أـنـ نـقـولـ : « اللـهـمـ إـنـىـ أـسـأـلـكـ الشـبـاتـ فـيـ الـأـمـرـ ، وـأـسـأـلـكـ عـزـيـمـةـ الرـشـدـ ، وـأـسـأـلـكـ شـكـرـ نـعـمـتـكـ وـحـسـنـ عـبـادـتـكـ ، وـأـسـأـلـكـ لـسـانـاـ صـادـقاـ ، وـقـلـبـاـ سـلـيـمـاـ ، وـأـعـوذـ بـكـ مـنـ شـرـ مـاـ تـعـلـمـ ، وـأـسـأـلـكـ مـنـ خـيـرـ مـاـ تـعـلـمـ ، وـأـسـتـغـفـرـكـ مـمـاـ تـعـلـمـ ؛ إـنـكـ أـنـتـ عـلـامـ الـغـيـوبـ »<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « قـلـمـاـ كـانـ رـسـولـ اللهـ يـقـوـمـ مـنـ مـجـلسـ حتـىـ يـدـعـوـ بـهـؤـلـاءـ الدـعـواتـ لـأـصـحـابـهـ : « اللـهـمـ أـقـسـمـ لـنـاـ مـنـ خـشـيـتـكـ مـاـ يـحـولـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـ مـعـاصـيـكـ ، وـمـنـ طـاعـتـكـ مـاـ تـبـلـغـنـاـ بـهـ جـنـتـكـ ، وـمـنـ الـيـقـيـنـ مـاـ تـهـوـنـ بـهـ عـلـيـنـاـ مـعـصـيـاتـ الـدـنـيـاـ . وـمـتـعـنـاـ بـأـسـمـاعـنـاـ وـأـبـصـارـنـاـ وـقـوـتـنـاـ مـاـ أـحـيـيـتـنـاـ ، وـاجـعـلـهـ الـوارـثـ مـنـاـ . وـاجـعـلـ

(١) أبو داود . (٢) الترمذى .

ثَارَنَا عَلَى مِنْ ظَلَمَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَنَا ، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينَنَا ،  
وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمَنَا ، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلَا تُسْلِطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا»<sup>(١)</sup> .

إنَّ هذه الأدعية - كما أشرنا إلى ذلك في بعض كتبنا - أشبه بالأشيد الحماسية  
التي تشير عواطف الرَّكب السائر، فهي ليست جُوار القاعدين ولا أمانٍ الهاهدين، بل  
هي أمداد دافقة من الحق والضياء واليقين يتغلب بها البشر على مشكلات العيش  
ومضائق الأيام .

ثم هي تحديد للمعاني التي يصح التمسك بها والتقلُّب في جوها ، وهي معانٍ  
قوامها عقد العزم على العمل في ظل الإيمان والعافية والعدالة ، وفي ظل الكبرياء  
على مشاغل الدنيا ومحرجاتها الجمة .

وبهذا المنهج يطيب المرء روحًا وبدنًا ، ويكتمل دينًا ودنيا .

وبعض الناس يتصرّف أنَّ الدعاء موقف سلبي من الحياة ؟ أليس عَرْضُ حاجات  
وانتظار إجابة ؟! .

ويوم يكون الدعاء كذلك لا يعدو تردید أمانی ، وارتقاء فرج من الغد المجهول ؛  
إِنَّ الدَّعَاءَ يَكُونُ لَغْوًا ، وَلَا وزَنَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ..

إنَّ الدعاء أولاً تحديد وجهة ، ورسم مثل أعلى ، فأبراهيم عندما قال :

﴿رَبَّ أَجْعَلَنِي مُقِيمًا صَلَوَاتِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَرَبِّنَا وَرَبِّ دُعَائِهِ﴾<sup>(٢)</sup> كان بهذا الدعاء يجعل إقامة

الصلوة منهج حياة ، ومشغلة إنسان .

أين منه أولئك الذين يضيقون بالصلوة ، ولا يأتونها إلا وهم كُسالٍ ؟

وعباد الرحمن عندما قالوا : ﴿رَبَّنَا هُبَّ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَرَبِّنَا قُرْشَةً أَعْيُنٌ وَاجْعَلْنَا لِلْمُقْرِنِينَ إِمَامًا﴾<sup>(٣)</sup>

كانوا بهذا النداء ينشدون في المجتمع البشري الأسرة المستقرة ، والبيت السعيد ، كما  
كانوا ينشدون لأنفسهم السُّبُق في مجال التقوى ، والتقدم في كل خير .

وبديهيٌ أن ينضم إلى ذلك ما يحقق المثل المرسوم من عمل يُقرّب ، وخطوات موصّلة .

(١) الترمذى . (٢) إبراهيم : ٤٠ .

(٣) الفرقان : ٧٤ .



على أنَّ من أهل الدين من ظلم حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر ، فظنَّ أنَّ هذا الإيمان يعترض الحياة الصحيحة ، كما يعترض ظلَّ الأرض ضوء القمر ليلة الخسوف .

إن وظيفة هذا الإيمان لديهم أن يجئ إلى الحياة البهجة فيرمي جوانبها بالقتمام والوحشة ، فما تصفو الدنيا مؤمن ، أو بتعبير أدق : إن مقتضى الإيمان اجتذاب البأساء والضراء والكبد والنُّكَد إلى حياة الأفراد والجماعات .

وهذا خطأ كبير وظلم للدين جسيم ، فإنَّ نبيَّ الإسلام - وهو أزكي من عبد الله - لم يفهم الحياة هذا الفهم ، ولم يحمل الإسلام هذا العبء .. كيف وهو القائل :

«اللَّهُمَّ أصلحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِيْ ، وَأصلحْ لِي دُنْيَايِ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِيْ ، وَأصلحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِيْ ، واجعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، واجعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍ»<sup>(١)</sup> !! .

ولماذا يُحسب الألم والهوان والقلق من لوازم اليقين ، أو تُحسب وسائل لمرضاة الله ، مع أنَّ رسول الإسلام كان يكرهها كلَّها ويستجير بالله منها . فعن أبي هريرة رضي الله عنه : كان رسول الله يتَعَوَّذ من جَهَدِ الْبَلَاءِ ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ ، وَشَمَائِتَةِ الْأَعْدَاءِ !! .

إنَّ من الصحابة - رضوان الله عليهم - من وقع في هذا الغلط ، وحسب أنَّ التعرض العمد للضرر كفارة للخطايا ، فأفههم النبي السَّمْح أنَّ الأمر أيسر من ذلك . رُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفتَ فصار مثل الفرخ - هُزَالاً - فقال له رسول الله ﷺ : «هل كنت تدعوا الله بشيء أو تسأله إياه؟». قال : نعم . كنت أقول : «اللَّهُمَّ مَا كنْتَ معاقبِي به فِي الْآخِرَةِ فَعجلْه لِي فِي الدِّنَيْ» ، فقال رسول الله : «سبحان الله !! لا تطيقه ، أفلأ قلت : اللَّهُمَّ أَتَنَا فِي الدِّنَيْ حَسْنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسْنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup> . قال : فَدَعَا اللَّهُ لَهُ فَشَفَاهُ .

وسمع النبي رجلاً يقول : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الصَّبْرَ) . فقال : «سأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ فَسَلِّهِ الْعَافِيَةَ»<sup>(٣)</sup> .

وقال مُطَرِّف بن عبد الله : (لأنَّ أَعْفَى فَأشَكَرُ أَحَبَ إلىَّ منْ أَبْتَلَى فَأَصْبِرُ ، لأنَّ مَقَامَ الْعَوْافِي أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ ، فَلَذِلِكَ أَخْتَارَ الشَّكَرَ عَلَى الصَّبَرِ لَأَنَّ الصَّبَرَ حَالَ أَهْلَ الْبَلَاءِ) .

قال الدكتور زكي مبارك : (وصاحب هذا الكلام يرى العافية من أبواب السَّلَامَةِ ، أَيْ سَلَامَةِ النُّفُوسِ ، لَأَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ يَعْرُضُ النَّفْسَ لِلْجُزْعِ وَالْأَرْتِيَابِ ،

(٣) الترمذى .

(٤) مسلم .

(١) الترمذى .

وتعريض النفس للفتنة غير مأمون العاقب . أما العافية فتحفظ توازن النفس ، وتجعل الرجل قادرًا على صالح الأعمال .

والحق أنَّ الإنسان يكابر حين يرحب بالمصائب ، لأنَّه أسيء نظام الأعصاب في أغلب الأحيان . ومن الخير له أن يسأل الله العافية وأن يتجنِّب التعرُّض للامتحان ، فقد يضعف عن مواجهة ما يشهي من المصاعب ، ويعرف بعد الانزلاق في هوة المكاره أن العزيمة قد تفتر أو تخون ..

وعند التأمل ترى النعم والعواقب تزيد في الصلة الروحية بين الإنسان وبين ربِّه ، والفرق بعيدٌ بين الحالين : حال الطمأنينة ، وحال الاحتساب ، فالمطمئن ينظر إلى ربِّه نظرة المدين ، وهي نظرة كلُّها ترقُّ وتخشُّ . أما الصابر المحتسب فيتعرَّض للزهو بالصبر على ما يُعاني . والزهو من أشد آفات النفوس ) . وهذا كلام حسن جيد ..

ونحن نحبُّ أن نكون عبيد إحسان لا عبيد امتحان .

ولكن هل تحبُّ الأيام بما تحبُّ ؟ . ما أكثر العواصف التي تهبُ علينا ، وتملاً آفاقنا بالغيوم المرعدة ، وكم يُواجه المرء بما يكره ، ويُحرم ما يشهي !! .

هنا يجيء دور الصبر الذي يطارد الجزء ، والرضا الذي ينفي السخط .

وفي هذا المقام يقول الدكتور زكي : ( التسليم لله من أدب النفس ، وهو يطرد نوازع شتى يخلقها التفكير في النصيب الحاضر من حظوظ الحياة ) .

ومن الواضح أنَّ هذا المقام يحتاج إلى رياضة شديدة ، لأن الرضا لا يكون إلا بعد تطهير القلب من الوساوس النفسية ، وهو بالتأكيد من أسباب الاطمئنان ، والطمأنينة أكبر الغنائم في الحياة الأخلاقية .

وقد يقال إن الرضا المطلق يبعث على البلادة ، ويغرس النفس بإيثار الركود . ونحيب بأنه لا تناهى بين الرضا بالواقع والرغبة في تكميل النفس ، وإمدادها بما تحتاج إليه من الأغذية الدنيوية والعقلية والروحية ..

فإذا قال رسول الله ﷺ : « ارضِ بما قسم الله لك تكون أغنى الناس »<sup>(1)</sup> فلا تجعل الرضا ذريعة القصور والقواعد .

بل ارضِ بيومك . وأمِّل ما يسرُّك في غدك ..

(1) مسند أحمد .

إن الجد والنجاح والإنتاج تظل أحلاماً  
لذيدة في نفوس أصحابها، وما تتحول حقائق  
حية إلا إذا نفح فيها العاملون من روحهم،  
ووصلوها بما في الدنيا من حسٍ وحركة.

محمد الغزالى

# كيف نُزيلُ أسبابَ القلقِ؟

لا أعرف مظلوماً تواطأ الناس على هضمه ، وزهدوا في إنصافه كالمحقيقة !!  
ما أقل عارفيها ، وما أقل - في أولئك العارفين - من يقدّرها ويغالى بها  
ويعيش لها !!

إنَّ الأوهام والظنون هي التي تمرح في جنبات الأرض ، وتغدو وتروح بين الألوف  
المؤلفة من الناس .

ولو ذهبتَ تبحث عن الحق في أغلب ما ترى وتسمع لأعياك طلابه .

هناك ألف الصحف والإذاعات تمرح بها الدنيا صباحاً ومساءً ، لو غلغلتَ النظر  
فيما ينطقها ما وجدت إلا حقاً قليلاً يكتنفه باطل كثيف ، حقاً يبرق في خفوت كأنه  
نجمة توشك أن تنطفيء في أعماء الليل .

في مجال العقيدة كم من دين قام على إشاعة كاذبة أو خرافية سمجة .

وفي ميدان السياسة كم من هوئٌ جعله الجور عدلاً ، وقوءة أحالت الخير شرّاً .

لهذا قال الله لنبيه ولكل معتصم بالصدق في مجتمع طافح بالرّيغ :

﴿وَإِنْ تُطِعُ الْكُفَّارَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُلُوكُمْ﴾

عن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظُّنُونَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وقال :

﴿فَإِنْ شَهَدُوا فَلَا تَشَهَّدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرِّهُمْ يُعَذَّلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) الأنعام : ١١٦ .

(٢) الأنعام : ١٥٠ .



وقال :

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظُنْنًا إِنَّ الظُّنْنَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وجدير بالإنسان في عالم استوحش فيه الحق على هذا النحو أن يجتهد في تحرّيه ، وأن يلتزم الأخذ به ، وأن يرجع إليه كلما بعدته التيارات عنه .

ولعل هذا هو السر في أن الله طلب إلى كل مؤمن أن يسأله الهدى ، وكلّفه ألا يسام من تكرار هذا السؤال حيناً بعد حين .

ففي كل صلاة مفروضة أو نافلة يقف المرء بين يدي ربه يقول :

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ  
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾<sup>(٢)</sup>

ما هو هذا الصراط المستقيم ؟ إنه ليس سكة مطروقة في إحدى البلاد ، ولا جسراً مضمروباً هنا أو هناك . إنه المنهج الذي يشقه المرء لنفسه بين مشكلات الحياة ، والخط الذي يلتمس فيه الصواب بين وجوه الرأي .

وكلما استمسك المرء بعرى الاستقامة واستكشف الحق فيما يعرض له من مسائل اليوم والغد فإنه يكون أدنى إلى التوفيق ؛ إذ الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين ، وصاحبه أبعد عن التخبط في شتى المحننات والمنعرجات .

على أن الاهتداء إلى الحق والثبات على صراطه يحتاج إلى جهد ودأب ، ويحتاج كذلك إلى استلهام طويل من عناء الله .. وقد كان رسول الله إذا حزبه أمرٌ جَنَحَ إلى الصلاة يضمُ إلى عَزِيمَتِه وَجْلَدِه حَوْلَ اللَّهِ وَطَوْلَه .



وقد يخبط المرء في الدنيا خبط عشواء ، وقد يصحبه « خداع النظر » في تقديره للحقائق المحيطة به .

(١) الفاتحة : ٦، ٧ .

(٢) يونس : ٣٦ .



ومعنى التصور الغلط للأشياء أن ينتقل المرء من ضلال إلى ضلال ، وألاً يحسن السلوك بإزاء أىٰ واجب ينطاط به أو أزمة يقف أمامها .

والله عزّ وجلّ نهى الإنسان عن الشرود وراء الأوهام والتخيّلات فقال :

﴿ وَلَا يَقْفَضُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُفْلِكٍ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴾<sup>(١)</sup>

فليستخدم الإنسان فكره وحواسه في تعرّف ما حوله ، وليقرب خطّة سيره بعيداً عن الظنوں والتخّصصات .

قال «دييل كارنيجي» : (بقي أن نتعلّم الخطوات الثلاث التي يجب اتخاذها لتحليل مشكلة ما والقضاء عليها ، وهذه الخطوات هي :

- ١ - استخلص الحقائق .
- ٢ - حلّ هذه الحقائق .
- ٣ - اتخذ قراراً حاسماً ثم اعمل بمقتضى هذا القرار ) .

وقال : (إنه لا مناص من اتخاذ هذه الخطوات إذا كان علينا أن نحلّ المشكلات التي تعينا ، والتي تخيل أيامنا وليلينا جحيناً لا يطاق ) .

أجل لا مناص من ذلك . والخطوة الأولى تفرض علينا التأمل الهدى فيما حولنا لتجميع الحقائق الواضحة ، وإرساء سلوكتنا على قواعدها .  
ولمّ هذه الحقائق واجب ، وإن كان صعباً على الإنسان .

ولكن لماذا يكون ذلك صعباً على الإنسان ؟ ، لأن حبَ الشيء يعمى ويُصمّ ، وكذلك كرهه ، ومن ثم قيل :

وعين الرّضا عن كل عيوبٍ كليلةٍ ولكن عين المقت تُبدي المساوايا  
ومثل المحبة والكراهية أغلب الانفعالات النفسية التي تسسيطر على تفكير المرء ،  
وتجعله يلوّن الحياة بإحساسه الخاص ، فلا يستطيع أن يراها كما هي .  
وقد يصلُ المرء عن الحقيقة لانطواره مع عرف سائد ، أو لاسترساله مع نظرة سابقة  
لا أساس لها .

(١) الإسراء : ٣٦ .

وإذا خُدِعَ المرءُ أبداً عن الحقيقة ؛ فكيف يُوفَقُ إلى حلٍ صحيح لمشكلات الحياة  
التي تلقيه؟! .

واندراج الناس في مطاوي الغفلة وهم لا يشعرون هو حكمة ختّم آيات كثيرة جداً  
في القرآن الكريم بهذا التذليل : « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَتِ لَعَلَّكُمْ تَفَكَّرُونَ »<sup>(١)</sup>  
« أَفَلَا نَذَرَكُمْ رُونَ »<sup>(٢)</sup> ، « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »<sup>(٣)</sup> .  
وكأنَّ « ديل كارنيجي » يشرح هذه الآيات إذ يقول : ( إننا قلماً نُعْنِي بالحقائق ،  
وإذا حدث أن حاول أحدنا استخلاص الحقائق فإنه يتضيَّدُ منها ما يُعَضِّدُ الفكرة  
الراسخة في ذهنه ولا يبالى بما ينقضها ، أيْ أنه يَسْعَى إلى الحقائق التي تُسَوِّغُ  
عمله ، وتَسْقِي مع أمانِيَّه ، وتَتَفَقَّ مع الحلول السطحية التي يرتجلها . )

قال « أندريه موروا » : كل ما يتفق مع ميولنا ورغباتنا الخاصة يَبْدُو معقولاً في  
أعْيُنِنا . أمّا ما يُنَاقِضُ رغباتنا فإنه يُشَعِّلُنا غَضَباً . فهل من المستغرب والحالة هذه  
أن يصْعُبَ علينا الوصول إلى حل مشكلاتنا ، أو لستنا نسخر من الذي يحلُّ مسألة  
حسابية بسيطة مفترضاً أن اثنين زائد اثنين يساوى خمسة؟! ومع ذلك فإنَّ كثيراً  
من الناس يجعلون حياتهم سعيراً بإصرارهم على أن مجموع اثنين واثنين هو  
خمسة ، وربما خمسماة؟! .

فما العلاج؟ . العلاج أن نفصل بين عاطفتنا وتفكيرنا ، وأن نستخلص الحقائق  
المجردة بطريقَةِ مُحايدة ) .



والخطوة التالية لجمع الحقائق استشعار السكينة التامة في تلقيها ، وضبط النفس أمام  
ما يظهر محيراً أو مرؤعاً منها ، فإن الفرق من الأحداث ينتهي حتماً بالغرق في لُجّتها .

وحياة عدد كبير من القادة والأبطال تحفل بالمازق التي لم يُنجِّ منها إلا تقييد الرَّهبة  
وإطلاق العقل .

(٢) البقرة : آية ٢٤٢ .

(٢) يونس : ٣ .

(١) البقرة : آية ٣١٩ .

عندما أوشك القتال أن ينشب في حرم مكة بين المسلمين والشركين ، والتفت عوامل الاستفزاز بالنبي وصحابه وهم بالحديبية يريدون العمرة ؛ كظم النبي على ما أحس به من حزن ، وأمر أصحابه أن يطروا الريبة والهم ، وأن يقبلوا معاهدة تضييع الدماء وتنشر الأمان على ما بها من قيودٍ تعنتهم .

وفي ذلك نزل قول الله :

﴿إِذْ جَعَلَ اللَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحُمَىَةَ حَمَىَةً أَجْهَلَهُمْ  
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سِكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَهُمْ كَلِمَةَ  
الْتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(١)</sup> .

وكلمة السكينة هذه تكررت في موضع كثيرة ، وهي حيشما وجدت تشير إلى ما يبشر بالإيمان في النفوس من طمأنينة مرجعها الأنس بالله ، والركون إلى قضائه ، والاستظهار بعونه كلما راب أمر أو أظلم أفق .

قد يجد المرء نفسه أمام سلسلة من الفروض المقترحة للخروج من أزمة طارئة ، وقد يُقلب النظر فيها فيجد أن أحلاها مر ، وقد يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد يدور حول نفسه لا يرى مخلصا ، أو يرى المخلص فادح التضحيه .

ومثل هذه الأفكار القائمة تتکاثر وتتراكم مع ضعف الثقة بالله وبالنفس .

أما المؤمن فهو يختار أقرب الفروض إلى السكينة والرشد ، ثم يقدم وهو لا يبالى ما يحدث بعد ذلك ، وعلى لسانه هذه الآية :

﴿قُلْ لَّنِ يُصِيبُنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مُوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَوَكِيلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وما أكثر أن تتبع خواطر السوء ووساوس الضعف ، ويكتشف أن الإنسان يُبتلى بالأوهام أكثر مما يُبتلى بالحقائق ، وينهزم من داخل نفسه قبل أن تهزمه وقائع الحياة :

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا  
وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>(٣)</sup> فانقلبوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ  
لَهُ وَسُهْمَ سُوْءٍ وَأَنْبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَلَهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

(٢) آل عمران ١٧٣ ، ٥١ .

(٣) التوبه ٥١ .

(١) الفتح : ٣٦ .

والي هذا يشير المتibi بقوله :

وما الخوف إلا ما تخوّفه الفتى  
وما الأمان إلا ما رأه الفتى أمنا

### ﴿٣٤٣٤٣٤﴾

فإذا عرف الإنسان الحقائق المتصلة به ، وسَبَرَ غُورَها جميعاً دون دهشة أو روع ،  
بقيت أمامه الخطوة الأخيرة ؛ وهي أن يتصرف بحزم وقوة ، وأن ينفذ القرار الذي  
انتهى إليه بعزم صادق .

أعرف كثيراً من الناس لا يُعوزهم الرأي الصائب ، فلهم من الفطنة ما يكشف  
 أمامهم خوافي الأمور .

بيد أنهم لا يستفيدون شيئاً من هذه الفطنة لأنهم محرومون من قوة الإقدام ،  
 فيبقون في مكانهم محسورين بين مشاعر الحيرة والارتباك .

وقد كره العقلاء هذه الضرب من الخور والإحجام :

إذا كنتَ ذا رأيِ فكُنْ ذا عزيمةٍ      فإنَّ فسادَ الرأيِّ أَن تترددَا  
أجل .. فإن للبحث والتبصر أجيلاً يتضح بعده كل شيء ، ولا يبقى مكان إلا  
للعمل السريع وفق ما هدأتُ إليه الروية واستبانه الصواب ، وقد قال الله عز وجل :

﴿ وَشَاءُوْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١)

إن مرحلة المشورة في أمر ما لا يجوز أن تستمر أبداً ، بل هي حلقة تسلّم إلى ما  
بعدها من عمل واجب .

فإذا تقرر العمل ، فلنمضي في إقامته قُدُّماً ، ولننهر علـ القعود والخوف ، ولنستعن  
بالله حتى نفرغ منه .

قال « ديل كارنيجي » : ( سألت « وايت فليس » - أحد رجال الأعمال  
البارزين - : كيف كنت تنفذ قراراتك ؟ فأجاب : لقد وجدت أن التفكير المستمر في  
مشكلة ما إلى أبعد من مدى معين يخلق القلق ، ويولد الاضطراب ، فإنه يأتي وقت

(١) آل عمران : ١٥٩ .

تصبح فيه المداومة على التفكير ضرراً يجب اجتنابه ، فمتنى اتخذت قراراً عمدت إلى تنفيذه دون أن أطلع البتة إلى الوراء .

وقال « وليم جيمس » : عندما تصل إلى قرار وتشرع في تنفيذه ضعْ نصب عينيك الحصول على نتيجة ، ولا تهتم لغير هذا . يقصد أنك لا تتردد ولا تحجم ولا تخلق لنفسك الشكوك والأوهام . ولا تعاود النظر إلى الوراء ، بل أقدم على إنفاذ قرارك غيرَ هيَّاب ولا وَجِل ) .

والحقُّ أنَّ الرِّجُولَاتِ الضَّحْمَةُ لَا تُعرَفُ إِلَّا فِي مِيدَانِ الْجَرَأَةِ .

وأنَّ الْمَجْدَ وَالنَّجَاحَ وَالْإِنْتَاجَ تَظَلُّ أَحَلَامًا لِذِيَّذَةٍ فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهَا ، وَمَا تَحْوِلُ حَقَّاقَ حَيَّةٍ إِلَّا إِذَا نَفَخَ فِيهَا الْعَالَمُونَ مِنْ رُوحِهِمْ ، وَوَصَّلُوهَا بِمَا فِي الدُّنْيَا مِنْ حَسْنٍ وَحَرْكَةٍ .

وكما أنَّ التَّرَدُّدَ خَدْشَ فِي الرِّجُولَةِ فَهُوَ تُهْمَةٌ لِإِيمَانِهِ ، وَقَدْ كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ يَرْجِعَ عَنِ الْقَتَالِ بَعْدَمَا ارْتَأَتْ كُثْرَةُ الصَّحَابَةِ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ .

فقد كان من رأيه عندما بلغ المشركون جبل « أحد » أَنْ يَدْعَهُمْ يدخلون المدينة ثم يقاتلهم في دروبها ، ورأى جمهور الشباب أن يخرجوا إليهم فيقاتلواهم دون الجبل ، واستطاعوا بكثرتهم وحماستهم أن يوجّهوا النفوس إلى هذا القرار ، فنزل النبي عنده ، واتخذ الأُهبة لمناجزة العدو خارج المدينة .

وأحسَّ أُولَئِكَ كَانُوهُمْ اسْتَكْرَهُوا النَّبِيَّ عَلَى غَيْرِ مَا يَرِى ، فَاقْتَرَحُوا مَرَةً أُخْرَى أَنْ يَدْرُو الْقَتَالَ فِي الْمَدِينَةِ نَفْسَهَا ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ رَفَضَ هَذَا التَّرَاجُعَ ، وَأَبَى أَنْ تَصْطَبِعَ شَؤُونَهُ بِطَابِعِ التَّرَدُّدِ ، أَوْ التَّأْرِجُحِ بَيْنَ إِرَادَاتِ شَتَّى ، فَقَالَ كَلْمَةً حَاسِمةً : « مَا كَانَ النَّبِيُّ أَنْ يَلْبِسَ لِأَمَّتِهِ ثِيمَ يَرْجِعُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ » .

﴿٣٦﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٦﴾

فلندرس مواقفنا في الحياة بذكاء ، ولنرسم منهاجنا للمستقبل على بصيرة ، ثم لنرم بصدورنا إلى الأمام ، لا تشيننا عقبة ، ولا يلوينا توجُّس .

ولنشق بأن الله يحب منا هذا المضاء ، لأنَّه يكره الجبناء ، ويケفِلُ المُتَوَكِّلِينَ .

﴿٣٦﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٦﴾

## علم أثمره العمل

في دراساتنا القديمة تلقينا - في تعريف العلم - أنه : إدراك ، وقواعد ، وملكة .  
يعنون بالإدراك : التصور المجرد للأشياء .

وبالقواعد : جملة المبادئ والقوانين والصطلاحات التي وضعها أهل الفنون المختلفة .

وبالملكة : الخبرة المكتسبة من رسوخ المفهوم فيما حصل عليه من معارف ، وفيما وعاه من مناهج علم خاص أو علوم شتى .

والملكة إنما تتكون من وفرة الإدراك واستحضار القواعد ، فهي ثمرة ما قبلها بعد ما يبلغ تمامه .

وأصحاب الملكات المتألقة في شعب الثقافة الواسعة هم العلماء الأصالة ، وعليهم المعول في صحة الفهم والحكم والتعليم والأداء .

ولنترك مجال العلم النظري إلى مجال الخلق والسلوك والإيمان والعمل . لنقول إن الدين قد يكون منهاجاً كاملاً للرقى والتهذيب ، ولكن الإفادة منه لا تصلح بإدارة معلوماته بين الألسنة والأسماع ، ولا باستيعاب أحکامه في الذاكرة الجيدة ، ولا بالأداء الصوري لعباداته المقررة .

فهذا التناول للدين قليل النفع ، بل عديم الجدوى ، وفي الأثر : العلم علماً : علم في القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله على ابن آدم .

وقال « برنارد شو » : ( إذا لقنت إنساناً شيئاً فإنه لن يتعلم أبداً ) .  
يقصد أن التلقين لا يخلق من المتعلم شيئاً طائلاً .

ويعلل « ديل كارنيجي » هذا الحكم فيقول : ( إنَّ التعلم عمل إيجابي لا سلبي ، ونحن نتعلّم حين نعمل ، فإذا أردت أن تستفيد من النصائح المبذولة في تضاعيف هذا الكتاب - أو أى كتاب - فجريبها ، واعمل بها ، وطبقها في كل فرصة تسعن لك .



فإنك - إن لم تفعل هذا - فسوف تنسى ما لقنته سريعاً .

إن المعرفة التي نستخدمها هي وحدها التي تعلق بأذهاننا .

وهذا صحيح ؛ وقد جاء عن أحد التابعين : ( كنا نستعين على حفظ أحاديث رسول الله ﷺ بالعمل بها ) .

إن العمل يُحيي القلوب بالمعرفة اليقظة الدافعة .

والعلم الذي ينشأ عن العمل هو الملكة التي يستنير بها المرء ، ويعرف منها موقع أقدامه في دروب الحياة المتشابهة .

وفي هذا يقول الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ قَوْمًا لَّا يُؤْتُكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ فُرَادَىٰ مُشْتَوْنَ بِهِ وَيَغْرِي لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١)

ومقتضى الإيمان بالرسول بعد تقوى الله هو اقتداء أثره واتباع سُنه ، لأن الترجمان العملي الحى لما في الكتاب الكريم من توجيه وموعظة .

والمؤمن المواظب على اتقاء الدنيا و فعل الواجبات يكتسب من هذا الإدمان حدة في بصيرته ، وحسنة دقيقة يميز بها الخبيث من الطيب .

وقلما تختلط الأمور على فطنته ، ولو لم يرد فيها نص حاسم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَاهُ اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرَقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (٢)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ قَوْمًا لَّا سَدِيدًا هُمْ يُصلِحُونَ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » (٣)

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

إن المعلومات النظرية التي لم ينقلها العمل من دائرة الذهن إلى واقع الحياة تشبه الطعام الذي لم يحوّله الهضم الكامل إلى حركة وحرارة وشعور .

وهذه المعلومات تبدأ مبتسرة مهوشة مهما أجيد تصويرها .

(١) الحديد : ٢٨ . (٢) الأنفال : ٢٩ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

ولذلك ترى الجنود وطلاب المعاهد العسكرية يتلقون الخصوص المقرّرة ، ثم يمرون بعدها في مرحلة المناورات التي تمثّل جانباً من الحياة العامة .

ومع ذلك فخبرة هؤلاء ، ولصوق الفن الحربي في أنفسهم دون مستوىه عند من حاضوا المعارك وذاقوا أهوال القتال .

وكذلك تعلم الصلاة ، إنَّ الأمر يبدأ دروساً تقع في الآذان ، ثم يحاول التلميذ أن يقيِّم الصلوات المكتوبة كما تعلَّمها ، أمّا أن يتعلم هو من صلاته الخشوع والإخلاص والتسامي فذاك يجيء بعد إقبال المصلَّى على ربه ، وإتقانه الطويل لشكل الصلاة ولو موضوعها جميعاً .  
إنَّ العلم الناشئ عن العمل هو خلاصة المران والتجربة .

في مجال التربية والإصلاح لا بدَّ أن تتطور المعلومات إلى اكتمال نفسي واجتماعي ، ولا يُقبل من أحد أن يقف عند حدود القول مهما كان بلِيغاً ، ولا عند حدود الشرح مهما كان مستفيضاً .

إذا أمرتَ بالخير فافعله أولاً ، وإذا نهيتَ عن شرٍ فاسبق إلى البعد عنه ، ثم اجتهد أن يتحول أمرُكَ ونهيُكَ إلى حقائق حيَّة في المجتمع ، بحيث يكون تغيير المنكر وإقرار المعروف غaiيات بيّنة يراد إيقاعها بكل وسيلة ، وبأقصر وقت .

إنَّ تعشُّق الكمال قد ينتهي إلى حسن الحديث عنه ، وقد يكتفى عُشاقه بسرد تفاصيل دقيقة عن مسائله وقضاياها .  
ثم يُطوى الأمر كله دون نتيجة فعالة .

كما تموت الأمانيُّ الحلوة في نفوس الكسالي .

وقد كره الله عزَّ وجلَّ هذا اللون من السلوك الناقص لأنَّه أقرب إلى الادعاء ، ولأنَّ أصحابه يقصرون وهم أبصراً من غيرهم بمواطن الرشد :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿كُبْرَ مَقْتاً عَنْهُ اللَّهُ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١)

إنَّ الوقوف بالإصلاح المنشود عند حدَّ الكلام المرسل والمفترحات المبتوطة يفتح أبواباً مخوفة للجدل الطويل ، وللثرثرة القاتلة للوقت والجهد .

(١) الصف ٣-٢ .

ولو أنَّ كلَّ امرئٍ عنده حبُّ الخيرِ ارتقى بعاطفته تلك إلى مرحلة تنقلُ الخير من دائرة التصورات النظرية إلى «عمل» يبصر الضوءُ والحياةُ لاختصراً - كما يقول «ديل كارنيجي» - نصف متاعبنا ، وحللنا أعقد مشكلاتنا .. ولتسمع له يروي هذه القصة عن «ليون شميكن» من رجال الأعمال قال : ( وضعْتُ قاعدةً تحتمَّ على كلِّ واحدٍ من مساعديَّ يريدُ أنْ يَعرضَ علىَ مشكلةٍ ما أنْ يقدمَ لِي أولاً مذكورةً تشملُ الإجابة عن هذه الأسئلة الأربعةَ :

- ١ - ما هي المشكلة؟ . وقد تعودنا فيما مضى أن نتفق ساعة أو ساعتين في مناقشة حامية دون أن ندرى ما هي المشكلة على وجه التحديد ، كما اعتدنا أن نحيط المشكلة باللبس والغموض ، دون أن يفكر أحدنا في تدوين موضوع المشكلة بوضوح .
- ٢ - ما هو منشأ المشكلة؟ . واذ أرجعُ بذاكرتي إلى الوراء يروعنى ما أنفقناه من ساعات دون أن نحاول الوقوف على الأسباب التي دفعت المشكلة إلى حيز الظهور .
- ٣ - ما هي الحلول الممكنة لهذه المشكلة؟ .. وفيما مضى كان كلَّ من يقترح حلًا فيجادله زميل له ، وكثيراً ما كانت تهتاجُ الخواطر فتنأى بنا عن الحل المقترن ، وفي نهاية الاجتماع لم يكن يخطر لأحدٍ منَّا أن يدونَ الحلول التي عرضنا لها أثناء المناقشة .
- ٤ - ما هو أفضل الحلول؟ . وقد اعتدت من قبلُ أن أدخل قاعة الاجتماع مع مساعدىَّ الذين أمضُّهم القلق ساعات طوالاً ، وأجلأهم إلى الدوران حول المشكلة في حلقات مفرغة دون أن يستخلصوا حلاً محدوداً .

وكان من نتيجة هذه الخطبة أنْ قلَّ التجاء مساعدىَّ إلى لعرض مشكلاتهم علىَ .. لماذا؟ لأنهم لكي يجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعة يجب أن يحصلوا على كافة الحقائق المحيطة بالمشكلة ، فإذا توفرت لهم هذه الحقائق فغالباً ما يُحلُّ ثلاثة أربع المشكلة من تلقاء ذاته ، ولم يعد حلُّ الباقي يحتاج إلى معاونتي ؛ وحتى إذا أوجبت الظروف مشاورتى ، فإن المناقشة لا تستغرق أكثر من ثلث الوقت الذي كانت تستغرقه قبلًا ، لأنها - أى المناقشة - تسير في طريق مرسوم .

ونحن الآن بفضل هذه الخطبة نستهلِّك وقتاً ضئيلاً في القلق ومناقشة الأخطاء ، ووقتاً طويلاً «في العمل» على تلافي هذه الأخطاء ) .

وَثُمَّ أمر آخر نحب أن نشير إليه : إنَّ الكلام مع رؤساء الأعمال وأصحاب الدعوات ، وولاة المناصب الكبار قد يكثر ويتشع من غير مسوغ واضح ؛ اللهم إلا أنَّ الأتباع والأعون يطيب لهم أن «يتكلموا» مع رئيسهم الكبير .

وقد يكون كلامهم هذا متصلةً بموضوع الرسالة التي يهتمون جميعاً بها أو العمل الذي يتعاونون جميماً على إنجاحه .

لكن هذا الكلام في أغلب الأحيان يكون قليل الجدوى .

ولو أن كل واحد منهم انصرف إلى نفسه يتعهد بها ، وإلى عمله الخاص يتلقنه ، وإلى واجبه المنوط به يجيده ، ويبتكر الطرق للنبوغ به ؛ لكن ذلك أربى لإنجاح ، وأذكى عند الله !! .

ولعل هذا سرُّ الأمر الذي صدر للصحابة أن يخففوا من مناجاتهم للرسول الكريم ، وأن يقدموا بين يدي نجواهم صدقة !! .

إنَّ الإِحْسَانَ لِلْفَقَرَاءِ قُرْبَةٌ مِّيسَّرَةٌ فِي كُلِّ آنٍ .

فإذا أراد أحد أن ينال حُظْوةَ عند الله وعند رسوله فليتصدق ، فهذا مجال رَحْبٌ للثواب المطلوب .

وهو أولى من الجلوس عند رسول الله رغبة في الجلوس فحسب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَيَّمَ رَسُولُ فَقَدْ مُوَابَيْنَ يَدِي بَحْوَلَكُمْ  
صَدَقَهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَتَحَدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

على أنَّ هذا التوجيه لا يعني فرض ضريبة على كل من يريد مخاطبة صاحب الرسالة ، فإن الكلام معه مُباح ، بل قد يجب في شؤون كثيرة ، وإنما المقصود تنبيه المؤمنين إلى الطريق الصحيح لشهادة الله ، وتوفير الوقت لصاحب الرسالة حتى لا يشغلها - بلا ضرورة - هوا الجلوس مع العظاماء .

لذلك قال عزَّ وجلَّ :

﴿ أَشْفَقْنَاهُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ بَحْوَلَكُمْ صَدَقَتِ فَإِذَلِهِ تَقْعِلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِلُوا الصَّلَاةَ وَأَلْوَأُلَّا زَرْكَوَهُ وَأَطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

إن مجالسة العظاماء كما علمنا التجارب وسيلة للزلفى ، ومضيعة للوقت ، وشغل عن واجبات كثيرة .

فلا عجب إذا وضعتم القيد عليها ونبهتم إلى ما هو أجدى منها .

(١) المجادلة : ١٢ .

(٢) المجادلة : ١٣ .

## آفات الفراغ

في أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل ، وتحتقر جراثيم التلاشي والفناء .

إذا كان العمل رسالة الأحياء فإن العاطلين موته .

وإذا كانت دنيانا هذه غراساً لحياة أكبر تعقبها ، فإن الفارغين أحرى الناس أن يُحشروا مُفلسين لا حصاد لهم إلا البوار والخسران .

وقد نبه النبي ﷺ إلى غفلة الألوف عما وُهبوا من نعمة العافية والوقت فقال : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » .

أجل .. فكم من سليم الجسم محدود الوقت يضطرب في هذه الحياة بلا أمل يحدوه ، ولا عمل يشغله ، ولا رسالة يخلص لها ويصرف عمره لإنجاحها .

ألهذا خلق الناس ؟ . كلا ، فالله عز وجل يقول :

﴿أَفَسِبْدُمْ أَنَا خَلَقْتُكُمْ وَأَنَّكُمْ إِلَيَّا لَا تُرْجِعُونَ﴾ فَعَلَى اللَّهِ الْمُلْكُ وَالْحُكْمُ (١)

إنَّ الْحَيَاةَ خَلَقْتَ بِالْحَقِّ ، الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهُمَا .

والإنسان في هذا العالم يجب أن يتعرَّفُ هذا الحق وأن يعيش به .

أمَّا أن يدخل في قوقة من شهواته الضَّيْقة ، ويحتجج في حدودها مذهولاً عن كل شيء فيبيس المهداد ما اختار حاضره ومستقبله !! .



ومن أصدق ما رواه «الشافعي» في أسس التربية هذه الكلمة الرائعة : «إذا لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل» .

وهذا صحيح ؛ فإنَّ النفس لا تهدأ .

إذا لم تَدْرُ في حركة سريعة من مشروعات الخير والجهاد والإنتاج المنظَّم لم تلبث أن تنهبها الأفكار الطائشة ، وأن تُلْفِها في دوامة من التُّرَهَات والمهازل .

(١) المؤمنون : ١١٥، ١١٦.

وأفضل ما تصون به حياة إنسان أن ترسم له منهاجاً يستغرق أوقاته ، ولا ترك فرصة للشيطان أن يتطرق إليه بوسوسة أو إضلال .

وتوزيع التكاليف الشرعية في الإسلام منظور فيه إلى هذه الحقيقة ، ألا يُترك للنفس فراغ يمتليء بالباطل ، لأنه لم يمتليء من قبل بالحق .

ويشرح « ديل كارنيجي » هذا فيقول : ( إننا لا نحسُّ أثراً للقلق عندما نعكف على أعمالنا ، ولكن ساعات الفراغ ، التي تلى العمل هي أخطر الساعات طرّاً .

فعندما يتاح لنا وقت فراغ لا تلبث شياطين القلق أن تهاجمنا ، وهنا نتساءل : أترانا نَحْصُل من الحياة على ما نشتتى ؟ . أُتُرى كان الرئيس يعني شيئاً بلاحظته التي أبداها اليوم ؟ . أُتُرى أنا مرضى ؟ .

ذلك أن أذهاننا تشبه أن تكون خاوية عندما تفرغ من العمل ، والطلاب في دروس الطبيعة يعلمون أن الطبيعة تمقت الفراغ ، ت يريد تجربة على ذلك ؟ . أحدث ثقباً في مصباح كهربائي مفرغ من الهواء ، وسترى أن الطبيعة تدفع بالهواء إلى داخل المصباح ليملأ ما فيه من خلاء ، كذلك تسرع الطبيعة إلى ملء النفس الفارغة ، بماذا ؟ بالعواطف والإحساسات غالباً . لماذا ؟ لأن مشاعر القلق والخوف والحدق والغيرة والحسد تندفع بقوة بدائية عنيفة متوارثة من عهد الغابة ، وتلك المشاعر من القوة بحيث يمكنها أن تبدد السلام من نفوسنا والاستقرار من عقولنا ) .

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

من حق المربيين إذن أن يحذروا آفات الفراغ ، وأن يحصنوا النفوس من شرورها . وأمثل الوسائل في هذه الحالات وضع سياسات محكمة للإنشاء الدائم ، والبناء المستمر .

فإنَّ شحن الأوقات بالواجبات ، والانتقال من عمل إلى عمل آخر - ولو من عمل مرهق إلى عمل مرفَّه - هو وحده الذي يحمينا من علل التبطل ولوثات الفراغ .

وأحسبُ أن المجتمع يستطيع الخلاص من مفاسد كثيرة لو أنه تحكم في أوقات الفراغ ، لا بالإفادة منها بعد أن توجد ، بل بخلق الجهد الذي يستنفد كل طاقة ، ويوجه هذا وذاك إلى ما ينفعه في معاشه ومعاده .

فلا يبقى مجال يشعر امرؤ بعده أنه لا عمل له .

من قديم عرف المصلحون أنّ بطالة الغنى ذريعة إلى الفسق .

**إِنَّ الشَّيْبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجَدَةَ مُفْسِدَةٌ لِلْمَرءِ أَيُّ مُفْسِدَةٌ**

ونضمُ إلى هذا أن بطالة الفقراء تضييع لقدرة بشرية هائلة ، وبعشرة مخزية لما أودعه الله في العضلات والأعصاب والأفءدة من طاقات لو فُجّرت لغيرت وجه العالم .

وأحق الأنظمة بالقبول والتشجيع ما راعى هذه الحقيقة ورتب عليها تعاليمه .

والإسلام يملك على الإنسان أقطار نفسه من هذه الناحية ، فإنَّ أغلب شرائعه يدور على جهاد النفس وجهاد الناس .

وجهاد النفس فطامها عمّا تشتته من أثام ، أو تجنب إلية من مناكر .

وجهاد الناس منع مظلومهم من إفساد الحياة وخلخلة الإيمان ، والإصلاح في جنباتها .

وكلا الجهادين يستغرق العُمُر كله لحظة لحظة ، ولا يستبقى فرصة للعبث والذهول والغفلات .

لقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله الاستمساك بدينه مع نبض قلبه بالحياة ،  
فيدعوه : « يا مُقلّب القلوب ثبت قلبي ، على دينك »<sup>(١)</sup> .

وكان يقول : « اللهمَّ رحمتَك أرجو ، فلا تكُلْنِي إلى نفسي طَرْفة عين ، وأصلح لِي شَانِي كَلَه ، لا إله إلا أنت »<sup>(٢)</sup> .

وهذا الاستمداد اليقظ الدائم هو أساس الاتصال النفسي :

أما شغل الوقت كله بالجهاد العام بعد ذلك فأمر معروف في سيرته ، فما استراح من مناهضة الكفر في فج من فجاج الجزيرة إلا ليتحول إلى فج آخر يعمره بالإيمان والتفوي .

(٢) الترمذى .

(۱) داود ابو

وقد جاء أصحابه من بعده أبو بكر وعمر فلم يدعوا للمسلمين مجالاً لالقعود ، فرموا بجيوشهم على معاقل الطغيان في الأرض ، فما هي إلا سنوات معدودات حتى امتلأت بقاع العالم بأصوات الإيمان .

فماذا حدث بعد أن ترك المسلمون هذه الواجبات المهيمنة على أوقاتهم كلها ؟ .

فرغ بعضهم لبعض ، وعاثت بينهم الفتنة !! .

ثم خلفت خلوف جعلت من تفسير المتشابه في كتاب الله مضيعةً للوقت الواسع الرخيص !! .

فأساءت بذلك إلى آيات الكتاب كلّها مُحْكَمها ومتتشابهها .

٣٤٣٤٣٤٣٤

إِنَّ الْحَقَّ إِذَا اسْتَنْفَدَ مَا لَدِيَ النَّاسُ مِنْ طَاقَةٍ مُخْتَزَنَةٍ لَمْ يَجِدِ الْبَاطِلُ بَقِيَةً يَسْتَمِدُّ مِنْهَا .

وإذا استولى على قلبه ولبه فلا مجال لوساوس اللهو وهواجس الريبة .

ويتساءل « ديل كارنيجي » : ( ما السبب في أن أمراً هيناً كالاستغراف في العمل يطرد القلق ؟ . السبب في ذلك هو أحد القوانين الأساسية التي اكتشفها علم النفس وهو : من الحال لأى ذهن بشري مهما كان خارقاً أن ينشغل بأكثر من أمر واحد في وقت واحد ) .

وهذا صحيح ، وهو قريب من قول الله عز وجل :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾<sup>(١)</sup>

إنك كما تعجز عن تخيل شيئاً في وقت واحد ، فكذلك تعجز عن الجمع بين إحساسين متناقضين . ليس في استطاعتنا أن نتحمّس لعمل مثير ونحسّ القلق في الوقت نفسه ، فإنّ واحداً من هذين الإحساسين يطرد الآخر .

(١) الأحزاب : ٤ .

وهذا القانون البسيط هو الذى مكّن الأطباء النفسيين الملحقين بالجيش أن يأتوا بالعجائب فى خلال الحرب ، عندما كان يأتي إليهم الجنود الذين ضَغَضَعُت الحرب أعصابهم ، كانوا يقولون : أشغلوهم بعملٍ ما .

إنَّ الفراغ فى الشرق يدمرُأَلوف الكفايات والمواهب ، ويخفيها وراء رُكام هائل من الاستهانة والاستكانة ، كما تختفى معادن الذهب وال الحديد فى المناجم المجهولة!! .

ويستطيع هذا الإهدار الشنيع لقيمة العمل والوقت مصائب لا حصر لها فى الأحوال النفسية والاجتماعية والسياسية .

يُروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : إنِّي لأرى الرجل فيعجبنى ، فإذا سألت عنه فقيل : لا حرفة له ، سقط من عينى .

وفي الحديث : « إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ » .

فلا جَرَمَ أَنَّ شعوبًا بأسرها تسقط من عين اللَّه ، وتسقط من أعين أهل الجد والإنتاج لأنها لا عمل لها ، استهلكتها الفراغ وأسلمها للفناء ..

وعندى أَنَّ العَلَةَ الْأَوَّلِيَّةَ لِتَخَلُّفِ الْأَمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشَّعُوبِ إِسْلَامِيَّةٍ مَا غَلَبَ عَلَى أَحْوَالِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ قَعْدَةِ وَاسْتِكَانَةِ وَتَقَاعُسٍ .

ويستحيل أن تحرز هذه الأجيال الغفيرة من البشر سهماً من نجاح فى الدنيا أو فلاح فى الأخرى إلا إذا تغيير أسلوبها فى الحياة ، وامتحن من ربوعها آثام البطالة والفراغ .



## لا تدع التوافه تغلبك على أمرك

تهب الإنسان للكبائر يبعده عن مواقعتها وينجيه من غوايela .

بيد أن المре الذى يخشى على حياته أن يتناول جرعة كبيرة من السم - لوضوح خطرها - قد يستهين بتناول أجزاء دقيقة منها تكون مطوية فى أطعمة مكشوفة ، أو أطباق قدرة ، أو أيدٍ ملوثة ، أو ما شابه ذلك .

ومن ثم يصيب بدنـه من العلل ما قد يُودي به ، مثلما تُودي به رصاصة قاتلة ، أو طعنة غادرة .

وارهاباً للمؤمنين من اقتراف الصغائر ، وخوفاً على كيانهم النفسي والاجتماعي من تجمعها ، أهاب النبي بأمته أن تخذلـها ، وأن تنزعـها عن فعلها ، وأن تتظاهر حيناً بعد حين من آثارها .

صحيح أن الهدف الأكبر من رسالته هو محاربة الشرك ، وازالة أوهامه عن الأفكار والضمائر .

وقد استطاع في حياته أن يسقط دولة الأصنام ، وأن يقيم أمـة تعبد الله وحده .

ومع ذلك فقد حذر من أمور قد يستريح الشيطان من إقبال الناس عليها استراحته من سقوطهم في حمأة نفسه ، فقال : « إن الشيطان قد يئس أن تُعبد الأصنام في أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات ، وهي الموبقات يوم القيمة »<sup>(1)</sup> . وفي حجة الوداع - وهو يرسى قواعد السلوك الكامل - قال : « أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه أبداً . ولكن إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرـون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم » .

قال « ديل كارنيجي » : ( إنـا غالباً ما نواجه كوارث الحياة وأحداثها في شجاعة نادرة وصبر جميل ، ثم ندع التـوافـه بعد ذلك تغلـبـنا على أمرـنا ، ومن أمثلـة ذلك ما قالـه « صمويل بيـز » في مذـكرـاته عن « سـيرـهـارـيـ فـانـ » حين سـيـقـ لـتـنـفـيـذـ حـكـمـ

(1) الطبراني .



الإعدام فيه بضرب عنقه ، فإنه لم يلتمس العَفْوَ ولم يطلب الرحمة ، وإنما رجا الجلاد ألا يضرب بسيفه موضعًا في عنقه كان يُؤلمه . ومن أمثلة ذلك أيضًا ما كتبه «أدميرال بيِرد» في مذكراته عن ليالي الظلام والزمهرير التي قضتها في القطب الجنوبي ، فقد ذكر أن رجاله كانوا منشغلين بتوافق الأمور عن الكوارث الخدقة بهم ، وهم يعيشون في جَوًّا درجة حرارته ثمانون تحت الصفر . قال «بيِرد» : كان رجالى يتخاصمون إذا اعتقد أحدهم على المساحة المخصصة لنوم زميل له واستقطع لنفسه منها بعض بوصات ، ومن ثمَّ رجل من رجالى كانت نفسه تعاف الطعام في مواجهة زميل له اعتقد أن يمضغ اللقمة ثمانينًا وعشرين مرة قبل أن يُزدرَها ، ولستُ أَعْجَبُ لهذا ، فإنَّ صغارَ كهذه في مسكنِ قطبي يسعُها أن تَسْلُبَ عَقْولَ أشد الناس دُرْبةً على الطاعة والنظام ) .

ويقصُّ علينا «كارنيجي» حكاية شجرة ضخمة نبتت منذُ أربعينَة عام ، وتعرضت في حياتها الطويلة للصواعق أربع عشرة مرة ، وهزَّتها العواصف العاتية طوال أربعة قرون متواتلة ، ومع ذلك ظلت هذه الشجرة جاثمة في مكانها كأنها جبل عتيق ، ثم حدث أخيرًا أن زحفت جيوش الهوام والحيشرات على هذه الشجرة الضخمة فما زالت بها تَنْخَرُها وتَقْرُضُها حتى سوتها بسطح الأرض ، وجعلتها أثراً بعد عَيْنٍ . لقد انفتحت ماردة الغابة التي لم تهزمها الصواعق ولم تَنْلِ منها الأنواء ، اختفت من الوجود بفعل هوامٌ هي من الضالة بحيث يستطع الإنسان أن يسحق إحداها بين سبابته وإيهامه ، ألا ترانا مثل هذه الشجرة؟ أو لسنا ننجو من الأعاصير التي تعترض حياتنا ثم نَسْتَسْلِمُ بعد ذلك للتوافة التي تلتهم حياتنا التهاماً .

وأمثلة التي ذكرها المؤلف من واقع الحياة التي يعالج شئونها قد سبق النبي إلى ضربِ أمثلة تشبهها مأخذة من طبيعة البيئة التي عاش العرب فيها ، فعن عبد الله بن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمِثْلِ قَوْمٍ نَزَّلُوا أَرْضَ فَلَةٍ ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ ، فَجَعَلَ الرَّجُلَ يَنْطَلِقُ فِي جَهَنَّمَ بِالْعُودِ ، وَالرَّجُلُ يَجْهَنَّمُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا ، وَأَجْجَوَا نَارًا ، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»<sup>(١)</sup> .

(١) مسند أحمد .

وروى عن سعد بن جنادة قال : لَمْ يُفرِغَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ « حُنَيْنٍ » نَزَلَنَا قَفْرًا مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اجْمَعُوا .. مَنْ وَجَدَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ عَظِيمًا أَوْ سَنَاً فَلْيَأْتِ بِهِ ». قَالَ فَمَا كَانَ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى جَعَلْنَا رِكَامًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذَا ، فَكَذَلِكَ تَجْتَمِعُ الذُّنُوبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هَذَا ، فَلَيَتَّقَ اللهُ رَجُلٌ فَلَا يَذْنُبُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا فَإِنَّهَا مُحْصَةٌ عَلَيْهِ » .

وقد علم أولو النهى من تجاربهم أن هناك أشياء تبدىء من الإنسان وهو غير آبه ولا يقظ لها ، يعدها الآخرون عليه ، ويستنتجون منها أفكاراً أو يرون وراءها نيات غريبة .

وقد تترتب على ذلك نتائج فادحة ، كما قيل :

**إِنَّ الْأَمْوَارَ صَغِيرُهَا      مَا يَهْيِيجُ لِهِ الْعَظِيمُ !!**  
فيحسن بالكيس أن يتدبّر ما يصدر عنه من أفعال ، ربما لم يلتفت إليها لصغرها ، ولكنها قد تعقب الكبير من الشرور .

وكما أن تجمّع الصغار مخوف العقبي على حياة الإنسان ، فإن تجسيم الصغار بحيث تبدو إحداها وقد حجبت ما يجاورها من خير ليس من الإنفاق في شيء .

ومن المؤسف أن بعض الناس يقع على السيئة في سلوك شخص ما فيقيم الدنيا ويقعدها من أجلها ، ثم يعمى أو يتعامر عما تمتليء به حياة هذا الشخص من أفعال حسان وشمائل كرام .

والنظر الذي يثبت على الصغار لا يعودوا ولا يعتذر عنها بما يجاورها من خير وكمال هو نظر جائز .

وقلما يقود صاحبه إلى راحة .

إن الله عز وجل يتتجاوز عن التوافه ويغتفر اللّمّ لـكـلـ مؤـمـنـ يـنـشـدـ الـكـمالـ وـيـصـبـغـ بـهـ عـمـلـهـ عـلـىـ قـدـرـ اـسـطـاعـتـهـ ،ـ قـالـ عـزـ وـجـلـ :

**﴿ إِنَّمَا يَنْهَا عَنِ الْمُحَاجَةِ كَبَآءِرَمَاهِنَوْنَ عَنْهُ تَكْفِرُ عَنْ كُوْسَيْنَاتِ كُمْ وَنُدُخْلُكُمْ دَخْلَكَرِيَّا ﴾ (١)**

(١) النساء : ٣١ .

وجميل في أجزية الله للناس أن يترك لهم فلتات الطياع وزلات الأقدام .  
وجميل من الناس أن يعاشر بعضهم بعضاً على هذه القاعدة من السماحة ، وفي ذلك قال الشاعر :

صديقك ، لم تلقَ الذي لا تعاته  
مقارفُ ذنب مرةً ومجانبه  
ظمئتَ وأيُّ الناس تصفو مشاربه  
كفى المرءَ ثُبلاً أن تُعدَّ معايبه

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً  
فعشنْ واحداً أو صلْ أخيكَ فإنه  
إذا أنتَ لم تشرب مِراراً على القذى  
ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كُلُّها

وهذه القاعدة إذا حسن تطبيقها فيما بين الأصحاب من أواصر ، وما يعرض لعلاقاتهم من هزّات ، فهي بين الزوجين ألزم ، وللسسيطرة على حياتهم أحبت وأحکم .  
فإن ضاق الزوج بغلطة من أمرأته تذكر أنَّ لها صواباً .

وإن حزن بجانب من نفسها نظر إلى جانب آخر يسرُّ منها .

والى ذلك يشير رسول الله ﷺ بقوله : « لا يُفرِّكْ - لا يكره - مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خُلُقاً رضي عنها آخر » (١) .

على أنه من المؤسف أن كثيراً من التوافه تعصف برشد الألوف المؤلفة من الناس ، وتقوّض بيوتهم ، وتهدم صداقاتهم ، وتذرهم في هذه الدنيا حيارى محسورين .  
ويشرح « ديل كارنيجي » عواقب الاندفاع مع وحى هذه التوافه ، فيقول : ( إن الصغائر في الحياة الزوجية يسعها أن تسلب عقول الأزواج والزوجات ، وتسبّب نصف أوجاع القلب التي يعانيها العالم .

أو ذاك على الأقل ما يؤكّده الخبراء ، فقد صرّح القاضي « جوزيف ساباث » من قضاة شيكاغو بعد أن فصل في أكثر منأربعين ألف طلاق بقوله : إنك لتجدن التوافه دائمًا وراء كل شقاء يصيب الزواج .

(١) مسلم .

وقال «فرانك هوجان» النائب العام في نيويورك : إن نصف القضايا التي تُعرض على محاكم الجنائيات تقوم على أسباب تفاهة ، كجدال ينشأ بين أفراد أسرة ، أو من إهانة عابرة ، أو كلمة جارحة ، أو إشارة نابية .

هذه الصغائر البسيطة هي التي تؤدي إلى القتل والجريمة .

إن الأقلين منا قساة بطبعهم ، بيده أن تواли الضربات الموجهة إلى ذواتنا وكباريائنا وكرامتنا هو الذي يسبب نصف ما يعانيه العالم من مشكلات ) .

هذا الكلام الذي يصف علل الجرائم في مدن أمريكا يمكن أن نقله بنصّه في وصف علل الجرائم التي تقع في مدننا وأريافنا .

والواقع أن سوء التصور للأمور ، وشدة الإحساس بالكرامة الخاصة ، والمبادرة إلى تفسير أي تصرف بأنه احتقار لا يغسله إلا الدم ، وغير ذلك من التخيّلات التي تضخم التوافه هو السبب الأول لما شهد وقرأ من أحداث مرؤعة .

والعلاج ؟ .. صقل مرأة الذهن بحيث تلتقط صوراً حقيقة لما تحفل به الحياة . صوراً لم تفسدتها المبالغة ، ولم يشوّها الهوى .

ثم الحكم على هذه الصور في نطاق النظرة الرحبة . النظرة التي تضع النظائر والنقائص في جوار واحد ، فلا تنسى الخير إذا هاجها شر .

وبذلك يتلاشى أغلب ما يحسه المرء من شقاء ، وما يتورط فيه من أخطاء .



لو أنَّ أيدينا يمكنها أن تتدَّى إلى الماضي لتمسُك حوادثه  
المُذبِّرة ، فتغيّر منها ما نكره ، وتحوّرها على ما تحب ؛ لكانَت  
العودة إلى الماضي واجبة ، ولهُرعنَا جمِيعاً إِلَيْهِ ، نحو ما ندَّمنا  
على فعله ، ونضاعف ما قلَّتْ أنصبَتنا منه .

أما وذلِك مستحيل فخَيْرٌ لنا أن نكرَّس الجهود لما نستأنف من  
أيام ولِيالٍ ، ففيها وحدَها العِوض .

محمد الغزالى

## قضاء وقدر

إحساس المؤمن بأنَّ زمام العالم لن يُفلت من يد الله يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده .

إذ مهما اضطربت الأحداث وتقلبت الأحوال فلن تُبُت فيها إلا المشيئة العليا :

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وهذا يفسّر ركون المسلم إلى ربّه بعد أن يؤدّي ما عليه من واجب .

إنَّه يتوكّل عليه ويستريح إلى ما يتمخَّض عنه المستقبل من نتائج بعد ما بذل جهده فيما وُكِلَ إليه من عمل وإعداد واحتياط .

والحقُّ أنَّه لا معنى لتوتر الأعصاب واشتداد القلق بإزاء أمور تخرج عن نطاق إرادتنا .

قد يقع الإنسان سنَّ الندم على تغريمه ، وقد يستوجب أقسى اللوم على تقصيره . أمَّا أن يطلُّ القدرُ عليه بما لا دخل له فيه فهو ما لا مكان فيه لندم أو ملام ، وبالتالي لا مكان فيه لقلق أو ريبة .

ومن ثمَّ ينبغي أن نستقبل الدنيا بيقين وشجاعة . ويعجبني قول علىَّ :

أيُّ يومٍ من الموت أفترِّ؟      يوم لا يُقدِّرُ؟ أو يوم قُدرَ؟  
يُقدِّرُ لا أحذِّره      ومن المقدور لا ينجو الحذْر !!

بهذا المنطق يواجه الرجل العُطُوب وهو جرىء .

أمَّا إذا فرغتْ نفسه من الله ، ونظر إلى الأحداث كأنها موج يتدفع مداً وجراً ، يغرق فيها من يغرق ، وينجو من ينجو ، فإنه يحيا بفؤادٍ هواء ، تلعب به الأحداث والظنوں .

(١) يوسف : ٢١ .

إِنَّ الرُّكْنَ إِلَى الْقَدْرِ - وَهُوَ غَيْرُ الْقَوْلِ بِالْجَبْرِ - وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْطُّولِ يُورِثُ  
جَرَاءَةً عَلَى مُواجِهَةِ الْيَوْمِ وَالْغَدِ ، وَيُضَعِّفُ عَلَى الْحَوَادِثِ صِبَغَةَ تَحْبِبِ بِغَيْضِهَا ، وَتَجْعَلُ  
الْمَرْءَ يَقْبَلُ - وَهُوَ مُبْتَسِمٌ - خَسَارَةَ النَّفْسِ وَالْمَالِ .

وَذَكَرَ مَا عَنْتَهُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ : « قُلْ لَّمَّا يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مُؤْمِنًا وَعَلَى اللَّهِ  
فَلَيَسْتَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ لَهُ » قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَّينَ ﴿١﴾

يُعْنِونَ كَسْبَ الْمُرْكَبَةِ بِالنَّصْرِ ، أَوِ الْمَوْتُ فِيهَا دُونُ الظَّفَرِ بِهَا ، وَهُوَ حَسْنٌ كَذَلِكَ ، لَأَنَّ  
مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مُثُوبَةٍ مَحْفُوظٌ مَضْمُونٌ .

أَمَّا الَّذِينَ لَا دِينَ لَهُمْ فَهُمْ إِنْ انتَصَرُوا أَوْ انْهَزَمُوا بَيْنَ عَذَابَيْنِ : أَجْلٌ أَوْ عَاجِلٌ !!

« وَنَحْنُ نَرْبَصُ إِلَيْكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ عَنِدِهِ أَوْ يَأْيُدِينَا  
فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مَرْبِصُونَ ﴿٢﴾

هَذَا مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَقْدَارِ يَتَسَمُّ بِالْقُوَّةِ وَالتَّحْدِيِّ ، وَلَا شَائِبَةَ فِيهِ لِرِبَّةٍ أَوْ اسْتَخْذَاءٍ .  
غَيْرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَجْهَلُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَجْحَدُونَهَا ، وَيَبَاشِرُونَ أَعْمَالَهُمْ  
وَهُمْ يَحْمِلُونَ بَيْنَ جُوانِبِهِمْ هَمُومًا مَقِيمًا ، وَمَشَاعِرَ عَقِيمَةً .

وَهُمْ لَا يَجْرِعُونَ مِنْ أَحْزَانِ تَصْبِيَّهُمْ فَحَسْبٌ ، بَلْ يَجْرِعُونَ مِنْ أَحْزَانِ يَتَوَقَّعُونَهَا ،  
وَيَفْتَرِضُونَ أَنَّ الْمُسْتَقْبِلَ قَدْ يَرْمِيهِمْ بِهَا .

وَكُمْ يَجْمِعُ بَهُمُ الْخَيَالَ فِيمَا حَيَّاتِهِمْ بِأَشْبَاحِ الْمَوْتِ وَالدُّمَارِ ، وَيَوْهِمُهُمْ أَنَّهُمْ بَيْنَ  
الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ مَعْرَضُونَ لِهَجْوَمِ مِنْ هَنَا وَغَدَرِ مِنْ هَنَاكَ !!

قَالَ « دِيلْ كَارْنِيَّجِيْ » : (لَكُنْ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ النَّاضِجِينَ لَا تَقْلِيلُ مَخَاوِفِهِمْ  
سَخْفًا عَنْ مَخَاوِفِ الْأَطْفَالِ وَالصَّبِيَّانِ ، وَفِي اسْتِطَاعَتِنَا جَمِيعًا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ تِسْعَة  
أَعْشَارِ مَخَاوِفِنَا تَوَّلًا لَوْ أَنَّنَا كَفَفَنَا عَنْ اجْتِرَارِ خَوَاطِرِنَا ، وَاسْتَعَنَّا بِالْحَقَائِقِ الْمَدْعُومَةِ  
بِالْإِحْصَاءِ ، لَنْرِى إِنْ كَانَ هَنَاكَ حَقًّا مَا يَبْرُرُ تِلْكَ الْمَخَاوِفِ .

إِنْ شَرِكَةً « لَوِيدْ » بِلَندَنْ ، وَهِيَ أَشْهَرُ شَرِكَاتِ التَّأْمِينِ فِي الْعَالَمِ ، قَدْ رَبَحَتْ  
مَلَيِّنَاتِ الْجَنِيَّاتِ مِنْ اسْتِغْلَالِهَا مِيلَ الْإِنْسَانِ إِلَى التَّوْجِّسِ مِنْ أَبْعَدِ الْأَمْوَارِ احْتِمَالًا ..  
هَذِهِ الشَّرِكَةُ تَرَاهُنَ النَّاسَ عَلَى أَنَّ الْكَوَافِرَ الَّتِي يَخْشَوْنَ حَدُوثَهَا ، وَيَسَاوِرُهُمُ الْقَلْقُ مِنْ  
أَجْلِهَا ، لَنْ تَحْدُثْ أَبَدًا .

(١) التوبية ٥١ - ٥٢ .

(٢) التوبية ٥٢ : ٥٢ .

على أنها بدأهـ لا تسمـى هذا العمل مـراهـة ، بل تسمـيه « تـأمينـاً » ، وقد ظلـت هذه الشركة تواصلـ أعمالـها بنجـاحـ ماـئـةـ سـنةـ .

ومـاـ لمـ تـغـيـرـ طـبـاعـ النـاسـ فـسـتوـاـصـلـ هـذـهـ الشـرـكـةـ نـجـاحـهاـ خـمـسـيـنـ قـرـنـاـ أـخـرىـ ، وـسـتـظـلـ تـقـبـلـ تـأـمـينـ عـلـىـ الـأـحـذـيـةـ وـالـسـفـنـ ، وـغـيـرـ ذـلـكـ ، لـأـنـ الـكـوـارـثـ التـىـ يـتـوقـعـهاـ النـاسـ لـاـ تـقـعـ بـالـكـثـرـةـ التـىـ يـتـصـورـونـهاـ )ـ .

الفـزعـ منـ المـسـتـقـبـلـ المـجهـولـ ، وـتـوـقـعـ الـخـسـارـ الـفـادـحـ ، وـالـشـعـورـ بـالـلـوـهـنـ عنـ حـمـلـ هـذـهـ المـصـائـبـ المـتـوهـمـةـ هوـ سـرـ قـيـامـ شـرـكـاتـ التـأـمـينـ وـتـغـلـلـ فـروـعـهـاـ فـىـ أـرـجـاءـ الـحـيـاةـ الـعـامـةـ .

وـمـنـ هـذـاـ الفـرقـ فـىـ الـحـقـيقـةـ -ـ بـيـنـ مـاـ يـقـعـ فـعـلاـ ، وـمـاـ يـقـعـ وـهـمـاـ -ـ تـسـتـولـىـ هـذـهـ الشـرـكـاتـ عـلـىـ قـنـاطـيرـ مـقـنـطـرـةـ مـنـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ ، مـسـتـغـلـةـ خـشـيـةـ الـخـوـافـيـنـ عـلـىـ أـعـمـارـهـمـ حـيـنـاـ ، وـعـلـىـ أـمـوـالـهـمـ حـيـنـاـ آخـرـ !!ـ .

وـقـدـ حـاـوـلـ «ـ دـيـلـ كـارـنـيـجـىـ »ـ أـنـ يـشـفـىـ صـرـعـىـ الـأـوـهـامـ بـسـرـدـ إـحـصـاءـاتـ صـادـقـةـ عـنـ النـواـزلـ التـىـ تـقـعـ بـالـبـشـرـ فـىـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ .

وـهـوـ عـلـاجـ فـىـ نـظـرـنـاـ لـاـ يـحـسـمـ الـعـلـةـ التـىـ تـنـتـشـرـ حـتـمـاـ حـيـثـ تـفـرـغـ الـقـلـوبـ مـنـ الإـيمـانـ .

إـنـ الـخـضـارـةـ الـحـدـيـثـةـ سـيـئةـ الـعـلـمـ بـالـلـهـ ، وـهـىـ بـالـتـالـىـ مـزـعـزـعـةـ الـشـقـةـ فـيـهـ .  
ولـذـلـكـ تـعـالـجـ أـدـوـاءـهـ بـأـدـوـيـةـ رـدـيـئـةـ ، مـنـ مـرـاهـةـ تـسـمـىـ تـأـمـينـاـ ، وـمـنـ إـحـصـاءـاتـ تـبـيـنـ لـلـمـرـعـوبـيـنـ أـنـ نـسـبـةـ الـإـصـابـاتـ أـخـفـاـمـاـ يـتـصـورـونـ .

وـنـحـنـ نـنـادـيـ بـأـخـذـ الـحـيـطةـ لـلـمـسـتـقـبـلـ ، وـإـرـصادـ الـعـوـضـ لـكـلـ مـصـابـ ، وـلـكـنـاـ نـسـتـنـكـرـ الـمـتـاجـرـةـ بـالـذـعـرـ النـاشـئـ عـنـ خـوـرـ الـيـقـيـنـ كـمـاـ تـفـعـلـ شـرـكـاتـ التـأـمـينـ ، وـنـسـتـنـكـرـ الـفـرقـ الـذـىـ يـسـتـحـوذـ عـلـىـ الـجـبـنـاءـ عـنـدـمـاـ يـدـفـعـهـمـ الشـكـ إـلـىـ تـرـقـبـ الـمـوتـ كـامـنـاـ فـيـ كـلـ أـفـقـ ..!!ـ .

وـاسـمـعـ إـلـىـ قـصـةـ تـاجـرـ اـعـتـادـ أـنـ يـعـذـبـ نـفـسـهـ بـهـذـهـ الـأـفـكـارـ يـروـيـهـاـ «ـ كـارـنـيـجـىـ »ـ :  
(ـمـاـذـاـ لـوـ تـصـادـمـ الـقـطـارـ الـذـىـ يـنـقـلـ الـبـضـاعـةـ ؟ـ مـاـذـاـ لـوـ أـنـهـارـ جـسـرـ فـىـ الـلـحـظـةـ الـذـىـ يـمـرـ الـقـطـارـ فـيـهـ ؟ـ نـعـمـ إـنـ الـبـضـاعـةـ مـؤـمـنـ عـلـيـهـاـ ، وـلـكـنـهـ يـخـشـىـ إـنـ لـمـ تـصلـ الـفـاكـهـةـ فـيـ

الوقت المحدد أن يفقد عملاءه . ولقد أجهد نفسه من فرط القلق حتى خُيل إليه أنه أصيب بقرحة في المعدة ، فذهب إلى الطبيب . فأكد له الطبيب أنه سليم معافي إلا من توتر أعصابه . قال مстер « جرانت » : لقد أحسست عندما قال لي الطبيب هذا كأنما أخرجت من الظلمات إلى النور ، وأخذت أسائل نفسي : كم عربة من عربات البضاعة استخدمت في خلال العام المنصرم ؟ ، وكان الجواب : نحو خمسة وعشرين ألف عربة ، وعدت أسأل نفسي : كم من هذه العربات تحطم بسبب من الأسباب ؟ ، وكان الجواب : خمس عربات ... حينئذ قلت لنفسي : خمس عربات من خمسة وعشرين ألف عربة !! أتدرى ما معنى هذا ؟ .

معناه أن معدل نسبة الخسارة هو عَرَبَةً واحدةً من كل خمسة آلاف عربة « فَعَلَامَ القَلْقُ إِذْنُ ؟ ! ) .

أقول : وبث الطمأنينة في النفوس - بتبيان الحقائق على هذا النحو الخامس - شيء حسن .

ولكنه لا يحصن ذوي الأمزجة السود والهواجس الرجراحة .

إنَّ الشخص المتشائم ينكسُصُ أمام التخيلات التي تتعقد سحائبها من نفسه .

وما دام ضعف الإيمان يسيطر عليه فهو سيفترض النحس مقبلاً عليه مع أندر نسبة للشر يمكن أن تقع ، ولن تَقْرَنْ نفوس هؤلاء إلا إذا خالطها محضر الإيمان بالله والتسليم له ، والرضا بما يقدرُه .

وتقبلُ أسوأ الفروض على أنها قضاء الله الذي لا مفر منه .

وذاك ما يوصي به الإسلام . قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه »<sup>(١)</sup> .

ومثل هذا الشعور يريح من عناء كثير ، ويزيج هموماً ثقيلة ، ولذلك قال رسول الله : « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخاراة الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له »<sup>(٢)</sup> .

(١) الترمذى .

(٢) الترمذى .

ويجب أن تؤكّد مرة أخرى أن دائرة الاستكانة والتسليم تبدأ بما يغلب الإرادة  
المعتادة ، وبما يخرج عن نطاق الاختيار الحرّ .

فلا احتجاج بقدر ، ولا مكان للقول به حيث تستطيع أن تفعل وأن ترك .  
أما بعد أن تبلغ بإرادتك مداها فدع الأمور لمدبرها الأعلى ينتهي بها حيث يشاء  
دون نزق أو قلق .

والغريب أن بعض المؤمنين يستحمق ويلوذ بالسكون والتجرد ، أو بالقعود والتماوت  
باسم التعويم على الله ، وإسلام القياد له .  
وهذا جنون وكفران لا عقل وإيمان .

ويمثل هؤلاء قول الشاعر :  
**والسعى للرزق - والأرزاق قد قسمت - بُغْيَ أَلَا إِنَّ بَغْيَ الْمَرءِ يَصْرَعُه**  
هذا كلام فارغ !! .

وشأن الناس مع الله عجيب !! ذاك تاجر أمريكي يؤرقه السهود ، لأنّه من خوفه  
على رزقه يتوجّس أن ينهار جسر تحت بضاعته فلا تصل إلى عملائه ، وهذا شاعر  
عربي يريد أن يغطّ في نوم عميق ، وألا يتجمّش مؤنة سعي ، لأن الأرزاق مقسمة !! .  
والحقيقة في التوسط بين الطرفين المتنافرين ، فنؤدي العمل المطلوب ،  
وننفي الريب عن أفئدتنا بعد أن أدينا ما علينا مستريحين لما يصنع الله بنا ،  
وهو لن يصنع إلا الخير .

إنّ أحاديث القدر علاج للقلق والتشاؤم ، وليس ذريعة كسل أو خمول .

### ٣٣٣٣٣٣

ومراقبة الأقدار القاهرة - خارج نطاق إرادتنا الحرّة - وملاحظة صنْع الله فيما تفديه  
من حلو ومرّ وخير وشرّ ، يضبط العواطف ، ويجنبها الحدة والغلواه .  
ولذلك ترى أولى الألباب والتجارب معتدلين في فرحهم وحزنهم ،  
وسرورهم ونفورهم .

وقد يصل هذا الاعتدال إلى حدّ البرود ، وقلة الاكتئان ، و مقابلة المباحث  
والمصائب بشعور محайд ، وفي ذلك يقول أبو العلاء :

غَيْرُ مُجْدِدٍ فِي مَلْتَى واعتقادي      نَوْبَاكَ وَلَا تَرْثِمْ شَادِي  
وَشَبِيهُ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قَيسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ  
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَتْ عَلَى فَرْعَ غُصْنِهَا الْمَيَادِ  
وَيَقُولُ الْمُتَنبِيُّ :

أَلَا لَا أَرِي الأَقْدَارَ مَدْحَأً وَلَا ذَمَّاً      فَمَا بَطَشُهَا جَهَلًا وَلَا كَفُّهَا حَلْمًا  
وَالْهَدْفُ الَّذِي يَرِيدُ هُؤُلَاءِ الْوَصْوَلُ إِلَيْهِ وَإِنْ اخْتَلَفَ تَصْوِيرُهُمْ لَهُ ، أَوْ نَدَّتْ عَبَارَتُهُمْ  
عَنْهُ ، هُوَ الَّذِي عَنْتَهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ :

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيدَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى  
اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكِيلَانَا سُوَاعَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا فَرَحَ حُبَّاءَ أَنْتُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَلِفٍ خُورٍ ﴾١١﴾

وليس القصد مصادرة الطبع الإنساني في إحساسه بالألم والسرور .

وإنما القصد من الاستغراق المذهل ، فإنَّ للفرحة الطاغية نشوة تخرج عن الصواب ،  
وللحزن الجاثم وطأة تسحق الإرادة .

والمؤمن الذي يبصر عمل الله في كل ما يمسه لا يتخطى بين هذه الانفعالات ،  
فيرفعه هذا إلى القمة ، ويختصره ذلك إلى الحضيض .

إنه يلوذ بالاعتدال ، ويسيطر على أعصابه ، وتلك بعض ثمرات الإيمان بالقدر .

إنَّ الرَّجُلَ الْمُضِيِّفَ قَدْ يُفْزِعُهُ الْمَصَابُ وَيُشَتَّتُ أَفْكَارُهُ ، فَبَدْلًا مِنْ أَنْ يَخْتَصُرَ مَتَاعَبَهُ  
بِمُجَابَهَةِ الْوَاقِعِ وَالْمُسْتَعْدَادَ لِقَبُولِهِ ، يَسْتَرِسْلُ مَعَ الْأَحْزَانِ الَّتِي تَضَاعِفُ كَابَتْهُ وَلَا تَغْيِيرُ  
شَيْئًا ، وَانْظُرْ إِلَى ابْنِ الرُّومِيِّ لَمَّا فَقَدَ ابْنَهُ كَيْفَ يَقُولُ :

وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ الْجِنَاحِ أَيُّهَا      فَقَدْنَاهُ كَانَ الْفَاجِعَ الْبَيْنَ الْفَقْدِ !!  
هَلْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يُعْنِي مَكَانُهَا ؟      أَوْ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَهْدِي كَمَا يَهْدِي !!

ثُمَّ يَسْتَبِدُ الْجَزْعُ بِالرَّجُلِ الْمُكَلُومُ ، فَتَنْهَى أَعْصَابَهُ ، وَيُرْسَلُ هَذِهِ الْصَّرْخَةُ الْمُجَنَّوَةُ :

وَمَا سَرَّنِي إِنْ بَعْتُهُ بِشَوَابِهِ      وَلَوْأَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخَلْدِ !!

مَا قِيمَةُ هَذِهِ الْإِعْوَالِ وَالْتَّمَرُدِ ؟

وَمَا أَثْرُهُ فِي الْعَاجِلِ وَالْأَجْلِ ؟ لَا شَيْءَ إِلَّا الْحَسْرَةُ .

(١) الْحَدِيدُ آيَةُ ٢٣ ، ٢٤ .

أما موقف اليقين الناضج والتسليم الكريم ، فتراه مثلاً في سيرة يعقوب لما جاءه بنوه هم يتباكون على فقد يوسف الذي أكله الذئب - كما يخبرون - لقد قال الرجل الذي غاب عنه ابنه :

﴿فَصَبَرْ جَيْلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَنُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وانتظر الرجل أن يؤوب الغائب المتردد بين الموت والحياة ، وطال الانتظار دون جدوى .

ومررت السنون على الشيخ الآمل في الغيب ، وإذا هو بدل أن يعود ابنه المرتقب يفقد ابنه الآخر ، وينكأ الجرح القديم جرح جديد !! .

ماذا يصنع ؟ . أينفس عن جواه بالصراخ والجزع ؟ لا ، إنّه يقول مرة أخرى :

﴿فَصَبَرْ جَيْلٌ عَنِ اللَّهِ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>

إنَّ القنوط لم يصدمه فينشج بقول الشاعر :

**وَحُمِّلَتْ زَفَرَاتُ الضُّحَى فَأَطْفَتْهَا      وَمَا لَى بِزَفَرَاتِ الْعَشَىِ يَدَانِ**

كلا . لقد تحملَ المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التي تحملَ بها الأولى ، وظلَّ على تشبيهه برحمة الله ، يرمي الغد وفي فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الأحداث ، وقال لأبنائه :

﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ  
إِنَّهُ وَلَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا قَوْمٌ كَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

من هذا السلوك العالى نلتمس الأسوة الحسنة ، ونتعلم الثبات فى وجه العواصف القاسية .

وما عساك تفعل إذا أصابك ما تكره ؟ . إن كان تغيير الم Kroه فى مقدورك فالصبر عليه بلادة ، والرضا به حمق .

أما إذا كان ما عراك فوق ما تطيق ، فهل هناك حيلة أفضل من الاتزان ورباطة الجأش ؟ ! .

(١) يوسف آية : ١٨ .

(٢) يوسف آية : ١٢ .

(٣) يوسف آية : ٨٧ .

وهل هناك مسلك أرشد من الاعتراف بالواقع ، ونشدان تغييره من صاحب الإرادة العليا ، وواهب الخير الجزيل ؟ .

إنّ وحوذات الأحداث قد تكون إيقاظاً للإيمان الغافى ، ورجعة بالإنسان إلى الله .

وهذه النتيجة تحول الداء دواءً ، والمحنة منحة ، وتلك لا ريب أشهى ثمرات اليقين ، والرضا بما يصنعه رب العالمين .

وهي ثمرة أحلى مما يذكره « ديل كارنيجي » عوضاً عن الإيمان بالقضاء والقدر ، إن الرجل يطلب من المصاب أن يتبدل أمام الأنواء ، كما تتبدل قطعان الجاموس وجذوع الأشجار !! وهو معذور فيما يصف لأنّه لم يقع على الدواء الذي بين أيدينا ، ولنسمع له يقول : ( رفضت ذات مرّة أن أقبل أمراً مُحتملاً واجهني ، وكنتُ أحمق فاعتبرضت وثرت وغضبت وحوّلت لياليَّ إلى جحيم من الأرق ، وبعد عام من التعذيب النفسي امتنعت لهذا الأمر الحتم الذي كنتُ أعلم من البداية أنه لا سبييل إلى تغييره .

وما كان أخْلِقْنِي أن أردد مع الشاعر « والت هويتمن » قوله :

« ما أجمل أن أواجه الظلام والأنواء والجوع؟ » .

« والمصائب والأسى واللّوم والتقرير؟ » .

« كما يواجهها الحيوان ، وتواجهها من الأشجار الجذوع! » .

ولقد أمضيت اثنى عشر عاماً من حياتي مع الماشية ، فلم أر بقرة تبتئس لأن المرعى يحرق ، أو لأنّه جفَّ لقلة الأمطار ، أو لأن صديقها الثور راح يُغازل بقرة أخرى . إنّ الحيوان يواجه الظلام والعواصف والمجاعات هادئاً ساكناً ، وللهذا قلّ ما يصاب بانهيار عصبي أو قرحة في المعدة !! ) .

ذلك هو العلاج الحيواني الذي يقترحه لمكافحة الأزمات !! .

وتلك هي الآثار المادية التي ينتظرها من ورائه !! .

ونحن المسلمين لا نرى في هذا التبدل المطلوب مثلاً أعلى لشفاء الإنسان مما يصيبه من أحزان .

إن التسليم لله أفضل من هذا التبدل المنقطع .

وأين كلمات الشاعر « هوiteman » السابقة من قول الله عز وجل :

﴿ وَلَنَبْلُونَكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الظُّفُرِ  
وَالْجَمْعُ وَنَفَقَنِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرَ الصَّابِرِينَ ﴾٥٥  
الَّذِينَ إِذَا أَصَبْتُهُمْ مُّصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾٥٦  
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكُمُ الْمُهَتَّدُونَ ﴾٥٧﴾ .



والمرونة في مقابلة الشدائيد بعض آثار الإيمان والرشد .

وحرى بالرجل الذي يدع العاصفة تمر أن يحسن التغلب عليها بعد أن تكون حدتها قد انكسرت .

وهذه المرونة دلالة تأدب مع الله وسكتينة في ملاقة قدره .

ثم هي في معاملة الناس أنسج الوسائل لکبح جماحهم بل لامتلاك أنفسهم .

وفي الأثر : جربت اللّين والسيف ، فوجدت اللّين أقطع .

والمؤمن المرن يدور مع الأحداث لا دوران ضعف ونفاق ، ولكن كما يدور المصارع في الخلبة حتى لا يكشف مقاتله لخصم متربص .

وفي هذا يقول « ديل كارنيجي » كلاماً حسناً :

( إن أحداً منا لم يمنع القوة التي تجعله يقاوم ما ليس منه بدّ ، ثم يتبقى له بعد هذه المقاومة جهد يمكنه من خلق حياة حافلة سعيدة .

عليك أن تختار واحداً من شيئين : إما أن تتحنى حتى تمر العاصفة بسلام ، وإما أن تتصدّى لها متعرضاً بذلك للهلاك .

لقد شهدت تجربة من هذا النوع في مزرعتي ، إذ هبت ريح عاتية على المزرعة ، ولكن الأشجار لم تنحن لل العاصفة ، بل تصدّى لها مُنتصبة الأعواد ، فلم تلبث أن تكسرت وصارت حطاماً تذروه الرياح .

إن أشجارى ليست لها حكمة الأشجار النامية في مزارع كندا . لقد عهدها دائمة الخضرة ، تنجنى للعواصف ، فتمر في طريقها بسلام ) .

وهذا الكلام هو عندي أحسن تفسير لقول محمد رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء . ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد » . وفي رواية : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تُفيئُها الريح مرة وتَعْدُّ لها أخرى حتى تهيج - أى تقوى وتنضج - . ومثل الكافر كمثل الأرزة المجدبة على أصلها - لا تميل مع ريح لصلابتها - حتى يكون انجعافها مرّة واحدة»<sup>(١)</sup> - أى انكسارها .

### \* \* \* \* \*

وهذه المرونة فى ملاقة الواقع البغيض قد تكلفك الابتسام له ، وحمل النفس على حسن استقباله ، لا لأنك تود بقاءه ، بل تخفيفاً من شدة الضيق به ، على نحو ما قال الشاعر :

ولما رأيتُ الشيبَ لاح بعارضي  
ولو خفتُ أنني إن كففتْ تحبتي  
ولكن إذا ما حلَّ كُرْهَ فسامحت  
ومفرق رأسى قُلتُ للشيبِ مرحبا  
تنكبَ عنى ، رُمْتُ أن يتنكبَا  
به النفس يوماً كان للكره أذهبَا

وهذه النصيحة عينها هي التي يزجيها لنا « كارنيجي » بقوله : ( إن السرعة التى تتقبل بها الأمر الواقع - إذا لم يكن منه بد - مدحشة النتيجة ، فإننا لا نلبت حتى نوطد أنفسنا على الرضا بهذا الواقع ، ثم ننساه بعد كل النسيان . يقول « وليم جيمس » : كن مستعداً للتقبّل ما ليس منه بد ، فإن هذا التقبّل خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف الأمر من صعاب ) .

وهذا الرضا ضرب من التعزية الجميلة والمواساة الحسنة ، ولا يسوغ أن يفهم منه عاقل أن مكاره الحياة أهداف مستحبة نسعى إليها فى اشتياق ورغبة .

من الذي يحب العمى ؟ . إنّ الرسول الكريم كرهه لنفسه ، ودعا الله أن يتمتعه بحواسه كلّها ، وكل مؤمن بل كل إنسان يود أن يعيش إلى أن يوافيته أجله وهو سليم المشاعر .

لكن بعض الناس قد يبتلى بفقد عينيه ، فهل ندعه للألم يحرّ في نفسه حتى يذوب حسرة ؟ كلا .

(١) البخارى .

هنا يجئ قوله تعالى رواية عن ربِّه : «إذا سلبتُ من عبدِي كريمتِيه وهو بهما ضنين لم أرضَ له ثواباً دون الجنة ، إذا هو حمدني عليهما»<sup>(١)</sup> .

هذه تعزية كريمة ، وسلوى يجد المخزون في بشارتها ما يخفف جواه ويذهب بلواه ، فهل يفهم من هذا الكلام المبين أنَّ العمى غاية تطلب ؟ ، وأنَّ آلام الدنيا درجات رفيعة يتعرَّض لها طلاب الثواب وعشاق الجنة ؟ ! .

إنَّ تفكير المتصوفة سقط في هذه الهاوية ، وجرَّ معه عوام المسلمين ، فضلَّ في هذه الحياة مساعيهم ، وبدَّد قواهم ، وجعلَ مُثُلَّهم العليا تتختبط في آفاق داكنة من اليساء والضراء !! .

والسرُّ هو الخلط بين دائرتين متميزتين كلَّ التميُّز ، منفصلتين ألم الانفصال . دائرة «ما منه بدُّ» و «ما ليس منه بدُّ» .

ثم التسوية بين المسالك والمشاعر التي تحييش تلقاء كلَّ منهما . والحق أنَّ كلتا الدائرتين لها مجالها وإيحاوها .

فالرجل إذا وقعت به مظلمة يملك ردَّها ويؤتَى القدرة على كفَّها ، فإنَّ صبرَه عليها جريمة ، ورضاه بها معصية .

أما إذا حلَّت به مَظْلَمة يعجز عن دفعها ، أو نابته كارثة يعلم أن التخلُّص منها فوق قواه ، فيجب عليه أن يتحمل وأن يتصرَّ .

إنَّ «الرضا بالقسمة» أصبح سُبَّة في التفكير الإسلامي ، لأنَّ الذين تلقوا الأمر وضعوه في غير موضعه ، فسوَّغوا به الفقر والكسيل والخمول ، بدل أن يهونوا به كبوتات السعي الجاد ، وهزائم العاملين المرهقين ، ومتاعب المظلومين في وظائفهم ، وهم لا يستطيعون حيلة !! .

إنَّ قول رسول الله : «أتَقِ الْمَحْارِمْ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَارْضَ بِمَا قَسِمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنِيَ النَّاسِ» هو ما شرحه «ديل كارنيجي» في هذه الخلاصة : (لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب ، وكل مجلة ، وكل مقالة عالجت موضوع القلق ؛ فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة خرجتُ بها من قراءاتي الطويلة ؟ . ها هي ذى ،

(١) البخاري .

أنصحك أن تدوّنها في ورقة ، وتبثتها في صقال مراتك حتى تطالعها كل يوم ، وقد كتب هذه النصيحة ، بل هذا الدعاء ، دكتور « رينولد تايرر » الأستاذ بمعهد الاتحاد الديني بنويورك :

هَبْنِي اللَّهُمَّ الصَّبَرَ وَالْقُدْرَةَ  
لِأَرْضِي بِمَا لَيْسَ مِنْهُ بِدُّ  
وَهَبْنِي اللَّهُمَّ الشَّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ  
لِأَغْيَرِ مَا تَقْوِي عَلَى تَغْيِيرِهِ يَدُ  
وَهَبْنِي اللَّهُمَّ السَّدَادَ وَالْحُكْمَةَ  
لِأَمْيَزِ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ

ثم قال : وإنْ فلَكَى تَحْطَمْ عادة القلق قبل أن تَحْطِمَ أرضَ بما ليس منه بدُّ ) أو كما يقول محمد رسول الله ﷺ : « إِرْضِ بِمَا قَسْمُ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنِي النَّاسِ ».



ويعجبني أن يواجه الإنسان هذى الحياة وعلى شفتيه بسمة تترجم عن رحابة الصدر وسجاحة الخلق وسعة الاحتمال ، بسمة ترى في الله عوضاً عن كل فائت ، وفي لقاء المرتقب سلوىً عن كل مفقود . ولتنبئ هنا قصيدة الشاعر محمد مصطفى حمام ، فهي حافلة بهذه العاطفة السهلة الرقيقة ، عاطفة الرضاء والطمأنينة :

عَلِمْتُنِي الْحَيَاةُ أَنَّ أَتَلْقَى  
كُلَّ الْوَانِهَا رَضًا وَقَبُولاً  
وَرَأَيْتُ الرَّضَا يَخْفَفُ أَثْقَالًا  
لِي وَيُلْقِي عَلَى الْمَأْسِي سُدُولًا  
وَالذِّي أَلْهَمَ الرَّضَا لَا تَرَاهُ  
أَبْدَ الدَّهْرِ حَاسِدًا أَوْ عَذُولًا  
أَنَا راضٌ بِكُلِّ مَا كَتَبَ اللَّهُ  
وَمُرْجِ إِلَيْهِ حَمْدًا جَرِيزِلا  
أَنَا راضٌ بِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ  
سَلَيْمًا أَفْيَتُهُ أَوْ نَبِيًّا لَا  
لَسْتُ أَخْشَى مِنَ الْلَّئِيمِ أَذَاهُ  
مُرْضِيًّا مِنَ الْحُبِّ وَالْوَدَادِ بَدِيلًا  
فَسَحَ اللَّهُ فِي فَوَادِي فَلَا أَرَى  
فَكُنْ الضَّيْفَ مَؤْنَسًا أَوْ ثَقِيلًا



أو يراه على النفاق دليلا  
عد بها في العباد إلا القليل  
ـ مـان بالله ناصراً ووكيلا  
ـ مـين ، مـرـا ، وسائـغا معـسـولا  
ـ وأـلـفـ التـغـيـرـ والتـبـدـيلا  
ـ سـيـنـ إـنـ عـلـقـمـاـ وـإـنـ سـلـسـيلاـ  
ـ نـحـنـ كـالـنـجـمـ مـطـلـعاـ وـأـفـولاـ  
ـ نـحـنـ كـالـمـزـنـ مـمـسـكاـ وـهـطـولاـ  
ـ نـحـنـ كـالـخـظـ منـصـفاـ وـخـذـولاـ

صلـ منـ يـحـسـبـ الرـضـاـ عنـ هـوـانـ  
ـ فـالـرـضـاـ نـعـمـةـ منـ اللهـ لـمـ يـسـ  
ـ وـالـرـضـاـ آـيـةـ الـبـرـاءـةـ وـالـإـيـ  
ـ عـلـمـتـنـىـ الـحـيـاـةـ أـنـ لـهـ طـعـ  
ـ فـتـعـوـدـ حـالـتـيـهاـ قـرـيرـاـ  
ـ أـيـهـاـ النـاسـ كـلـنـاـ شـارـبـ الـكـأـ  
ـ نـحـنـ كـالـرـوـضـ نـضـرـةـ وـذـبـولاـ  
ـ نـحـنـ كـالـرـيـحـ شـوـرـةـ وـسـكـونـاـ  
ـ نـحـنـ كـالـظـنـ صـادـقاـ وـكـذـوباـ

❀❀❀❀❀

سـخـرـيـاتـ الـورـىـ قـبـيلاـ قـبـيلاـ  
ـ وـيـرـاهـاـ سـوـاـيـ خـطـبـاـ جـلـيلاـ  
ـ سـ وـضـلـواـ بـصـائـرـاـ عـقـولـاـ  
ـ مـنـ عـيـونـ الـمـهـاـ وـخـدـاـ أـسـيـلاـ  
ـ لـيـسـ إـلـاـ مـشـرـثـاـ مـخـبـولاـ  
ـ هـوـ أـهـدـىـ هـدـىـ وـأـقـومـ قـيـلاـ  
ـ خـشـعـواـ أـوـ تـبـتـلـواـ تـبـتـيـلاـ  
ـ هـاـ وـعـافـواـ الـقـرـآنـ وـالـإـنـجـيـلاـ  
ـ إـنـ إـلـاـ إـنـسـانـ كـانـ عـجـولاـ  
ـ يـةـ لـمـ تـعـفـ فـتـيـةـ أـوـ كـهـوـلاـ  
ـ لـسـتـ رـيـاـ وـلـاـ بـعـثـتـ رـسـوـلاـ  
ـ يـنـ وـلـاـ يـرـهـبـ الـحـسـابـ الشـقـيلاـ

قد تـسـرـيـ الـحـيـاـةـ عـنـيـ فـتـبـدـىـ  
ـ فـأـرـاهـاـ مـوـاعـظـاـ وـدـرـوـسـاـ  
ـ أـمـعـنـ النـاسـ فـيـ مـخـادـعـةـ الـنـفـ  
ـ عـبـدـواـ الـجـاهـ وـالـنـضـارـ وـعـيـنـاـ  
ـ الـأـدـيـبـ الـضـعـيفـ جـاهـاـ وـمـالـاـ  
ـ وـالـعـتـلـ الـقـوـيـ جـاهـاـ وـمـالـاـ  
ـ إـذـاـ غـادـةـ تـجـلـتـ عـلـيـهـمـ  
ـ وـتـلـواـ سـوـرـةـ الـهـيـامـ وـغـنـوـ  
ـ لـاـ يـرـيدـونـ أـجـلـاـ مـنـ ثـوـابـ اللهـ  
ـ فـتـنـةـ عـمـتـ الـمـدـيـنـةـ وـالـقـرـ  
ـ إـذـاـ مـاـ اـنـبـرـيـتـ لـلـوـعـظـ قـالـواـ  
ـ أـرـأـيـتـ الـذـىـ يـكـذـبـ بـالـدـ

❀❀❀❀❀

سـ وـهـيـهـاتـ أـنـ يـكـونـواـ عـدـوـلاـ  
ـ وـلـكـمـ لـقـبـواـ الـكـرـيمـ بـخـيـلاـ  
ـ وـلـكـمـ أـهـمـلـواـ الـعـفـيفـ الـخـجـولاـ  
ـ وـبـغـىـ قـدـ صـوـرـوـهاـ بـتـوـلاـ  
ـ أـشـبـعـ النـاسـ كـفـهـ تـقـبـيلاـ  
ـ وـسـجـينـ مـدـلـلـ تـدـلـيلاـ  
ـ قـدـ أـسـاءـ الـتـقـلـيدـ وـالـتـمـثـيلاـ

أـكـثـرـ النـاسـ يـحـكـمـونـ عـلـىـ النـاـ  
ـ فـلـكـمـ لـقـبـواـ الـبـخـيلـ كـرـيـماـ  
ـ وـلـكـمـ أـعـطـوـاـ الـلـحـ فـأـغـنـواـ  
ـ رـبـ عـذـراءـ حـرـةـ وـصـمـوـهـاـ  
ـ وـقـطـيـعـ الـيـدـيـنـ ظـلـمـاـ وـلـصـ  
ـ وـسـجـينـ صـبـوـاـ عـلـيـهـ نـكـالـاـ  
ـ جـلـ منـ قـلـدـ الـفـرـنجـةـ مـنـاـ

فأخذنا الخبر منهم ولم نـ  
ـ يوم سنـ الفرج كذبة إـبرـيـ  
ـ نـشرـوا الرـجـسـ مـجمـلاـ فـنـشـرـنا

፩፭፻፭፭

لُّ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْدُ السَّيُولًا  
بَلْ أَرَى الْخَيْرَ فِيهِ أَصْلًاً أَصْبِلًاً  
لَا يَحْبُّ اللَّهَ الْيَئُوسُ الْمُلُوْلًا  
نَ وَيَطْوِي الرَّزْمَانُ جِيلًاً فَجِيلًاً  
هَا عَلَى النَّاسِ بُكْرَةً وَأَصْبِلًاً  
وَعَزِيزٌ بِالْأَمْسِ صَارَ ذَلِيلًا  
وَلَقَدْ يَسْقُطُ السَّلِيمُ عَلِيًّا  
رَ وَشَبَعَانَ يَسْتَحْثُ الرَّحِيلًا  
لَا فَيْرَدِي بَبَغْيِه هَابِيلًا  
حُونَ سَنُوا الْخَرَابُ وَالتَّقْتِيلًا  
مَ أَجَادَ التَّزْوِيرُ وَالتَّضْلِيلًا  
وَبِفَكْرِي إِلَّا خَشِيتُ الْذَّهَوْلًا

علمتنى الحياة أنَّ الھوى سينـ  
ثم قالت : والخير في الكون باقٌ  
إنْ ترَ الشرّ مستفيضاً فھوَنـ  
ويطول الصراع بين النقيضـ  
وتظلُّ الأيام تعرض لونـ  
فذليلُ بالأمس صار عزيزاً  
ولقد ينهض العليلُ سليماً  
ربَّ جَوْعَانَ يشتهر فسحة العمـ  
وتظلُّ الأرحامُ تدفع قابـ  
ونشيد السلام يتلوه سفـ  
وحقوق الإنسان لوحـة رساـ  
صورـ ما سرحتُ بالعين فيها

三三三三

قال صحبي : نراك تشکو جروحًا  
قلت أما جروح نفسى فقد عوَّ  
غير أنَّ السكوتَ عن جرح قومى  
لستُ أرضى لأمة أنبتتني  
لستُ أرضى تحاسداً أو شقاقةً  
أنا أبغى لها الكرامة والجزء  
علمتنى الحياة أنَّى إنْ عشتَ  
علمتنى الحياة أنَّى مهما

A decorative horizontal floral ornament consisting of four stylized, symmetrical flower-like shapes arranged in a row.

(١) أليقت في المركز العام للشبان المسلمين ، وفرغ الشاعر من إنشادها ، ثم أجهش بالبكاء !!

## بِالْحَقِّ أُنْزَلَنَا وَبِالْحَقِّ نُزَلٌ

الإسلام أداة لتنظيم الأفكار على نحو معين ، كما تتنظم المقدمات لتنتتج الصواب وتقرر الحق .

ذلك في المجال العقلى ، أما في المجال النفسي والاجتماعي فهو أداة لتنظيم المشاعر والعواطف على نحو ينشئ الفضيلة ، ويدعم الأخوة ، أو على نحو ينفي الرذيلة ، ويتحقق الأثرة .

فالإسلام - بما حوى من تعاليم - إنما يمهد للناس طريق الهدایة التي تأخذ بنواصيهم وأفئدتهم إلى الحقيقة والكمال .

لهذا نزل الوحي ، وتتابعت نذرها وبشائره :

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنَّ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَيْمَانَهُ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وهذه الهدایة في مجالات النظر والتفكير ، وفي مجالات الأدب والمعاملة هي النتيجة المنشودة من وراء العبادات المقررة .

فليست الغاية من الطاعات مباشرة رسومها الظاهرة ، واعتياض أشكالها ، وتقعص صورها . كلا ، بل الغاية منها أن تزيد حدة العقل في إدراك الحق ، وارتياض أقرب الطرق إليه ، وإن تمكן الإنسان من ضبط أهوائه ، وإحسان السير في الحياة بعيداً عن الدنيا والمظالم .

وتأمل قول الله عز وجل :

﴿إِنَّمَا يَعْمَلُ مَسِيحَهُ  
الَّذِي مَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَنْخِشْ  
إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَنَّدِينَ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) النساء : ١٧٦ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) التوبه : ١٨ .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفرض الصلاة والزكاة أشعة تجتمع في حياة الإنسان لتسدّد خطوه وتلهمه رُشدَه ، وتجعله في الوجود موصولاً بالحق لا يتنكر له ، ولا يزيغ عنه .

والذين لا يستفيدون من صلتهم بالله هذا الضياء الكاشف ، وهذه الهدية الكريمة فلا خير في عبادتهم ، ولا أثر لصلاتهم وزكاتهم .

وهذا سر التعبير الذي ختمت الآية به : ﴿ ... عسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

كأن فعل هذه الصالحات لا يكفي ويشفى إلا بشرائط تتطلب الكثير من اليقظة والجهد .

والرذائل التي نهى الله عنها إنما كرهها عباده لأنها تكشف عقولهم ، وتسقط ضمائرهم ، وتشيع المظالم بينهم ، وتحوّل في أفكارهم ومشاعرهم إلى عطل وظلمة أو إلى فوضى وحيرة .

﴿ فَإِنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنِيًّا ﴾<sup>(١)</sup>

فإنما الإنسان الذي يؤثر طريق الرياء على طريق الإخلاص يلقى من العنت ما يلقاه رجل يدور حول نفسه ليصل من القاهرة إلى الإسكندرية .

سيظل يتحرك في موضعه حتى ينقطع إعياء دون أن يبلغ هدفه .

والإنسان الذي يؤثر الزنا على الإحسان يدركه من الشقاء ما يدرك الكلب الضال حين يتسّع لاختطاف طعامه ، فيقع على جسمه من الضربات أكثر مما يدخل فمه من المضغ المنهوبة .

وليس هذه المعااصي شؤماً على أصحابها فقط ، بل هي رجم عملاً جنبات المجتمع بالأسى والمخازى .

وانتشار الجرائم له من تدمير معنويات الأمم ما لا تشار الأوبئة الخبيثة في كيانها .

(١) طه ١٢٣ - ١٢٤ .

مقتضى الإيمان أن يعرف المرء لنفسه حدوداً يقف عندها ، ومعالم ينتهي إليها .  
أما العيش من غير ضوابط ، والتمشى وراء النزوات المهاجنة دون تحفظ ولا تصوُّن ،  
فليس ذلك سلوك المسلم ، ولا ما يُرتفب منه .

إنَّ الإيمان يُعطي أحکاماً صائبة ، وتقديرات جيِّدة لكل ما يختلف علينا في الحياة  
من خسارة وربح ، وهزيمة ونصر ، ونجاح وفشل ، وصداقة وخصومة ..  
وهو يهدى المؤمن إلى ما ينبغي فعله في هذه النواحي جميعاً .

ومع أنَّ تلك طبيعة الإيمان فإنَّ الله عزَّ وجلَّ نصب للناس علامات أخرى يهتدون  
بها بين الحين والحين ، حتى لا يشروا عن الصراط المستقيم .

وتلك هي جُلَّ الأوامر والنواهى والوصايا التي حفل بها كتابه ، وعلَّمنا إياها رسوله .  
إنها تعاليم تدفع بالسلوك في مجرىٍ معين .

وتنبع أن يسيغ هنا وهناك ، كما تمنع الشيطان القائمة لجمع الماء أن تسيل كيف تشاء ..  
ولطبيعة الإنسان نزوات تطفو بها أحياناً وتتطيش .

. والمخوف في هذه النزعات أن يسترسل المرء معها ، فإنَّ هذا الاسترسال يرمي به في  
مطارح لا يعود منها سالماً ، ولذلك قال « ابن المفع » : ( المؤمن بخير ما لم يعثر ،  
إذا عثر لعَّ به العثار ) .

هذه اللجاجة خَور في الإرادة يُسْرِّ الانهيار ، ويمنع التماسك ، ويجعل الرجل من  
القلق ريشة في مهب الرياح ..

ويبرى « دليل كارنيجي » وجوب وضع حد أقصى للاضطراب الذي يعتري المرء  
عقب هذه العثرات المقلقة .

إنَّ الإنسان يخطيء حتماً ، فليست العصمة أملأَ له ، ولا طبعاً فيه .  
وهو يعاني نتيجة ما يتورَّط فيه من أخطاء انفعالات مضطربة حمقاء .  
وأفضل ما يصنع أن ينفض يديه كلتيهما مما حدث ، وألا يدع اللجاجة تنتقل به  
من سوء إلى أسوأ ، ومن ظلال داكنة إلى ظلمات بعضها فوق بعض .  
اجتهد ألا تسلك طريق ضلاله ، فإذا سلكته - تحت أي ضغط أو إغراء - فاجتهد  
ألا تُوغَل فيه .

وعُدْ من حيث جئت في أقرب فرصة ، وفي أسرع وقت ..

وقد تصاب بقارعة - كما تخيل - أو في نفس الأمر - فتهتز لوقعها ..  
ليَكُنْ ... بيَدَّ أنَّ من الرشد استعادة الثبات والهدوء ، واختصار المتابع التي  
تنشأ حتماً من الإصرار على الضيق والسطح .

إنَّ بعض الناس قد يصاب بشلل في مُخِّه إثر خسارة تصيبه ، أو غيظ يستفرِّه ،  
فهل ذلك دلالة إيمان أو شارة إحسان ؟ . كلا ، ولا هو آية رجولة كبيرة ..

قال « ديل كارنيجي » ( حدث في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية عندما كان  
أصدقاء « لنكولن » يحملون حملات شعواء على أعدائهم أن قال « لنكولن »  
- مُهَدِّئاً - أتباعه : إن لديكم إحساساً بالغضب والثورة أكثر مما لدى ، وقد أكون خلقتُ  
هكذا ، ولكنني لا أرى الغضب يجدي .

إنَّ المرء لا ينبغي أن يضيَّع نصف حياته في المشاحنات ، ولو أنَّ أحداً من أعدائه  
انقطع عن مهاجمتي ما فكرت لحظة واحدة في عدائِه القديم لي ) .

وال المجال يضيق هنا عن سرد النصوص الناهية عن الشحناء والغضب والأمرة  
بالسماحة والصفح ، ابتعاد مثوبة الله ، واحتفاظاً بصفاء الحياة .

ماذا يُجدى التمشي مع مشاعر الغيظ والتشفُّى ؟ إنَّ خسائرنا أضعاف أرباحنا من  
هذه الاحتياجات الطائشة .

ولو استجبنا لهَدِي الإيمان لوفَّ علينا متابع جمَّة نستريح من عبئها يقيناً يوم  
نستهدف مرضاعة الله وإنفاذ وصاياه .

ولا بأس أن نذكر هنا قصة « تولstoi » الفيلسوف الروسي الكبير وخصامه مع زوجته .  
تقول دائرة المعارف البريطانية عن هذا الأديب الكبير : ( إنه في خلال العشرين سنة  
الأخيرة من حياته كان أخلقَ رجال العالم بالتقدير والاحترام ، كان المعجبون به يحجُّون  
إلى بيته في سيل لا ينتهي ليتعلموا بطبعته ، ويشنفوا آذانهم بصوته ، بل ليتمتعوا  
أصابعهم بملمس مُسَوِّحه . كانت كل كلمة تخرج من فمه تُدوَّن في الصحائف ، كما لو  
كانت نبوءة رسول . هكذا كانت حياته العامة . أمّا حياته الخاصة فإنَّ تصرفاته وهو  
شيخ في السبعين كانت أشدَّ حمَّةً من تصرفات صبي في السابعة !! .

تزوج « تولstoi » من فتاة أحبها . وسعد الزوجان في بداية أمرهما ، إلا أنَّ  
الزوجة كانت غيوراً بطبعها ، حتى إنها اعتادت التخفُّى في زي الفلاحات والتجسس  
على زوجها . وتفاقمت على مرِّ الأيام غَيْرُتها ، فإذا هي تغار على زوجها من بناتها !! ،  
وأنسكت مرَّةً بندقية وأحدثت بها ثقباً في صورة ابنتها بداعِ الغَيْر !! .

فما الذى فعله رجلها ردًا على هذا ؟ أنشأ يكتب مذكرات يلوم فيها زوجته ويحملها تبعة الشقاق الذى يغمر بيته .

إنه أراد أن تنصفه الأجيال القادمة وتصب اللوم كله على زوجته ، ولذلك عَكَفَ على الكتابة ضدها .

فماذا تُرى فعلت زوجته ردًا على ذلك ؟ مزقت جانباً كبيراً من هذه المذكرات وأحرقتها ، ثم أخذت تكتب مذكرات أخرى تردد على زوجها ، وتکيل له الصاع صاعين ، بل إنها كتبت في ذلك قصة بعنوان : « غلطة منْ !؟ » .

قال « ديل كارنيجي » : ( ما دوافع هذا كله ؟ ولماذا أحال هذان الزوجان منزلهما إلى ما يشبه مستشفى المجانين ؟ إنَّ هناك سبباً أصيلاً لهذا البلاء ؛ هو رغبة الزوجين كلِّيَّهما في التأثير علينا نحن الأجيال التالية .

لقد أراد كل منهما أن نصفه ، وأن نسخط على صاحبه فهل تظن أحدًا منا يهتم : أيهما كان المصيب ، وأيهما كان الخطيء ؟ كلا ، فأنا وأنت مشغولان بشئوننا الخاصة ، ولسنا غلوك أن نضيئ دقة واحدة في آل « تولستوي » الكرام .



فيما له من ثمن فادح دفعه هذان الزوجان . لقد قضيا خمسين عاماً في جحيم مقيم ، دون أن يُلهم أحدهما قوله « كفى » ، ودون أن يفطن أحدهما إلى وجوب تقدير الأشياء بقيمتها الحقيقية فيقول لشريكه : دعنا نضع حدًا لهذه الحال في التوّ واللحظة ، أننا نُسمم حياتنا من أجل توافقه لا قيمة لها ) .

إنَّ أولى هدايا الرياء إلى ذويه أنهم يُسلبون نعمة القرار ، وراحة البال !! وأنهم يُضيئون مصالحهم الخاصة ، وحاجاتهم الماسة في سبيل استرضاء المترفِّجين عليهم ، والناظرين إليهم .

وربما أخذ مثلو المسارح أجوراً كبيرة على الأدوار التي يقومون بها ، والروايات الضاحكة أو الباكية التي يخرجونها !! .

أما أولئك المراءون - وهم ممثلون في غير مسرح - فإنَّهم يدفعون من أموالهم وسعادتهم ما يظنونه ثمناً لاسترضاء الناس ونيل إعجابهم .

والناس قد يرمون هذه الأعمال ، وقد يعلقون عليها بكلمات من أطراف شفافهم ، ولكنهم في صميم أنفسهم مشغولون بطالبيهم وما ربيهم .

وهي مطالب ومسارب تستغرق انتباهم ، ولا تترك بقية يفرح بها أولئك  
المراءون المستغفلون .

ولو أقبل المرء على ربه يستلهمه ويستعينه وحده لوفقه إلى ما يريح أعصابه ويزيح آلامه .  
وما يضره حداً أقصى لكدر الإنسان أن يقارن بين ما لديه من خير ، وما يحسه  
الألف من حرمان ، ولن تعدم - إذا فتحت عينيك بدقة - من تمتاز عليهم في نفسك  
ومالك ، ومن يرزحون تحت ضوابط هى أثقل مما ابتنيت به .

وفي هذا يقول رسول الله : «انظروا إلى من أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو  
فوقكم ، فهو أجد رألا تزدروا نعمة الله عليكم» .



ولا بد من لفت الأنظار إلى شيء . هو أن الإنسان قلما يذكر نهاية حياته ، فهو إن  
سرّ أو حزن يبالغ في استصحاب هذه المشاعر وتوسيع نطاقها ، غير مفكر البتة في أنه  
سيفارقها يوماً إن لم تفارقه !! .

وقد كنتُ أميل إلى اعتبار الموت باطلًا لا يُكرر به .

وأميل إلى التعلق بحياة لا يخترمها فناء .

ولكن ما الحيلة إذا كان الموت حقاً ، وإذا كان وقوعه الصارخ يفضي المجامع ويفرق  
الشمل وإن كرها ..

الآن ينبغي ذكر هذه الحقيقة ؟ إن ذكرها يضع حدوداً حاسمة لشتي أحوال الحمق  
والغرور والاستطالة التي تُطيش بالألباب .

سئل رسول الله ﷺ : أي المؤمنين أكياس ؟ قال : «أكثراهم للموت ذكرًا ،  
وأحسنهم لما بعده استعداداً»<sup>(١)</sup> . وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله مرح مجلسه وهم  
يضحكون فقال : «أكثروا من ذكر هادم - قاطع - اللذات ، أحسبه قال - : فإنه ما  
ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعة .. ولا في سعة إلا ضيقها عليه»<sup>(٢)</sup> .

فليس ذكر الموت لإفساد الحياة إساءة العمل فيها ، بل للتخفيف من غلوتها  
وكففة الاغترار بها .

إذا اعتدل التفكير فلن تتحول السعة إلى فوضى ، ولن يتحول الضيق إلى سجن .



(٢) البزار .

(١) الطبراني .

## لا تبك على فائت

يقولون : « لا جديد تحت الشمس » ، وهذه الكلمة تصدق على سير الحياة الإنسانية في تاريخها الطويل ، من ناحية الطبع والرغبات ، والاختلاط والمنازعات ، والجحود والعدل ، والسلام والحرب ، وقيام الأم وانهيارها ، وازدهار الحضارات وانقراضها .

ولهذا الشبه الدائم في مواكب العمران المتواصل على ظهر الأرض ، والخصائص المتراثة بين الأخلاف والأسلاف أمر الله عباده أن يستعرضوا أحداث الماضي لينتفعوا بما فيها .

فإن ما يعني الأوّلين يعني الآخرين ، وما نواجهه - دهشين لجذّته - قد سبق به عهد ، وصدرت فيه أحكام .

وخير لنا أن نستصحب ما كان ، ونحن نعالج ما يكون . والله عزّ وجل يقول :

﴿فَاعْتِدُوا يَا أُولَئِكُمُ الْأَبْصَرُ﴾<sup>(١)</sup>

والبصر الذي ينفذ في أعماق الماضي يستقرئ أنباءه ، ويتعرف موعظه ، ويترزوّد من تجارب السابقين بذُخر يجنيبه الزلل ، هو البصر المؤمن الحصيف .

وفي هذا يقول الحق جل اسمه : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ إِذَا نُسْمِعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ أَلَيْهِ فِي الصُّدُورِ »<sup>(٢)</sup>

وفي القرآن الكريم قصص كثيرة خلّد الله فيه أحوال القرون الغابرة ، ومصائر الأتقياء والفحار ، وصراع الخير والشرّ ، ووضع ذلك كله بين أيدينا لنتوسم ونتدبر :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْضِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »<sup>(٣)</sup>

(١) الحشر : ٢ . (٢) الحج : ٤٦ . (٣) يوسف : ١١١ .

في هذه الحدود المبينة يجب أن ندرس الماضي .

وابتغاء العضة المجردة وحدها يصح أن نلتفت إلى الوراء .

أما العودة إلى الأمس القريب أو البعيد لنجد حزنًا ، أو ننكمأ جرحًا ، أو ندور حول مأساة حزنت في نفوسنا لقوله : « ليت ، ولو » فإن هذا ما يكرهه الإسلام وينفر من التردد فيه ، بل إن هذا كان ديدن الحيارى والمرتدين من المنافقين ومرضى القلوب :

﴿ يُخْفَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكُمْ يَقُولُونَ  
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قِيلَ لَهُمْ فَلَوْ كُنْتُمْ فِي بِيوْتِكُمْ لَبَرَزَ  
الَّذِينَ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ أَقْتُلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ الَّذِينَ قَاتَلُوا إِخْرَاجَهُمْ وَقَعَدُوا  
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرُءُوهُمْ وَاعْنُ أَنفُسِكُمْ وَالْمُوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>

وهذه التأوهات المنكسرة ، والتحسّرات المفجوعة سيطرت على ضعفاء الإيمان بعد غزوة (أحد) ، فإن الخسائر التي أصابت أهل المدينة بعد هجوم المشركين عليها خلّفت آثارًا غائرة ، وفتحت أمام الحاقدين على الإسلام ثغرات للتشفي واللهم .

لكن الله عزّ وجلّ أنزل آيات مفصلة في مداواة هذه الجراح ولم شمل المسلمين عقب النكبة التي أصابتهم ، فكان من تأديبه لهم أن علق عيونهم بالمستقبل ، وصرف أذهانهم عن الماضي ، وذكرهم عن الوقوف بأطلال الأمس ي يكون ويولون .

لا ، ليست هذه شيمة الرجلة ، ولا منطق الإيمان ، يجب أن نتعرّف سرّ الخطأ لنتقيه في المستقبل ، ولن ننظر فيما وقع إلا بقدار ما نستخلص العبرة منه ، وذاك ما تكفل به القرآن الكريم ، فقد أشار إلى علة الهزيمة في إيجاز :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنْزَعُتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَكُمْ مَا تَحْبَبُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا أَسْتَرْهُمُ الْشَّيْطَانُ إِنْ يَعْبُدُ  
مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٦٨ .

(٣) آل عمران : ١٥٢ .

(٤) آل عمران : ١٥٥ .

ثم واساهم بما يهون وقع الألم عليهم ، فإنّ الألم إذا قيّد النفوس بسلسلة الغلاظ  
ربطها في زمنٍ يتحرّك ، فلم تحسن شيئاً ، ولم تكسب خيراً .

ما قيمة لطمُ الخدود ، وشقُ الجيوب على حظٍ فات أو غُرم نابَ ؟ .

ما قيمة أن ينجدب المرء بأفكاره ومشاعره إلى حدثٍ طواه الزمن ليزيد الله حرقة  
وقلبه لذعاً !؟ .

لو أنَّ أيدينا يمكنها أن تتدَّى إلى الماضي لتمسّك حوادثه المُذبْرَة ، فتغيّر منها ما  
تكره ، وتحوّرها على ما تحب ؛ وكانت العودة إلى الماضي واجبة ، ولو هرعنا جمِيعاً إليه ،  
نحو ما ندمنا على فعله ، ونضاعف ما قلَّتْ أنصبَتنا منه .

أما وذلك مستحيل فخيرٌ لنا أن نكرّس الجهود لما نستأنف من أيام ولِيالٍ ، ففيها  
وحدها العِوض .

إنَّ المرء ليس متَّهماً في حرصه على مصلحته ، فإذا ضاعت هذه المصلحة لسبب  
ما ، خصوصاً تلك التي تتصل بالأجال والأرزاق ، فلنجعل من إيماننا بالله وقدره ما  
يُحجزنا عن التعلق بالأوهام والحماقات .

وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم بعد (أحد) ؛ قال للباكيين على القتلى ، النادمين  
على الخروج للميدان : لو بقيتم في بيوتكم ما طالت لكم حياة ولا امتدَّ أجل :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرَ شَيْءٌ مَا قَاتَلَنَا هَذَا قَلْ لَوْ كَنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ  
الَّذِينَ كَيْبَ عَلَيْهِمُ الْفَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١)

فعلم هذا النعيب المسحوق ؟! إن الطائرة تسقط من الجوّ بما فيها ومنْ فيها ، فإذا  
القدر الرائع يتكشف عن جثث محترقة ، وعنأطفال ورجال لم يمسّهم سوء !!  
فلماذا لا نعرف بالقدر الأعلى فيما يقع ؟ . ونرد عليه ما يغلبنا على أمرنا ليكون من  
ذلك سلوى ورضاً ! .

إن « دليل كارنيجي » يلْجأ إلى العقل ليصل بنا إلى هذه الغاية فيقول :

( من الممكن أن تحاول تعديل النتائج التي ترتبت على أمر حدث منذ ١٨٠ ثانية ،  
أمّا أن تحاول تغيير الزمن فهذا هو الذي لا يعقل . وليس ثمة إلّا طريقة واحدة يمكن

(1) آل عمران : ١٥٤ .

بوساطتها أن تصبح الأحداث الماضية إنسانية مُجدية . تلك هي تحليل الأخطاء التي وقعت في الماضي والاستفادة منها ثم نسيانها نسياناً تاماً .

أنا أؤمن بهذا ، ولكن هل تُراني أملك الشجاعة دائمًا لأفعل ما أؤمن به؟! ثم قال : حدثني « سوندرز » أن مستر « براندوين » مدرس الصحة بكلية « جورج واشنجتون » علمه درساً لن ينساه أبداً ، ثم قصّ على قصة هذا الدرس فقال : لم أكن بعد قد بلغت العشرين من عمري ، ولكنني كنت شديد القلق حتى في تلك الفترة المبكرة من حياتي ، فقد اعتدت أن أجترّ أخطائي ، وأهتم لها همّاً بالغاً . وكنت إذا فرغت من أداء امتحان وقدّمت أوراق الإجابة ، أعود إلى فراشي فأستلقى عليه ، وأذهب أفرض أظافري وأنا في أشد حالات القلق خشية الرسوب ، لقد كنت أعيش في الماضي وفيما صنعته فيه ، وأود لو أنني صنعت غير ما صنعت ، وأفكر فيما قلته من زمن مضى ، وأود لو أنني قلت غير ما قلت .

ثم إنني في ذات صباح ضمّنى الفصل وزملائي الطلبة ، وبعد قليل دلف المدرس (مستر براندوين) ومعه زجاجة مملوقة باللبن وضعها أمامه على المكتب . وتعلقت أبصارنا بهذه الزجاجة ، وانطلقت خواطernا تتساءل : ما صلة اللبن بدورس الصحة؟ وفجأة نهض المدرس ضارباً زجاجة اللبن بظهر يده فإذا هي تقع على الأرض ويراق ما فيها ، وهنا صاح مستر (براندوين) : لا يبكي أحدكم على اللبن المراق . ثم نادانا الأستاذ واحداً واحداً لنتأمل الحطام المتاثر والسائل المسكوب على الأرض ، ثم جعل يقول لكلّ منا : انظر جيداً إنني أريد أن تذكر هذا الدرس مدى حياتك ، لقد ذهب اللبن واستوعبته البالوعة ، فمهما تشدّ شعرك ، وتسمح لهم والنّكد أن يمسكا بخناقك فلن تستعيد منه قطرة واحدة . لقد كان يمكن بشيء من الحيلة والخذر أن نتلافى هذه الخسارة . ولكن فات الوقت ، وكل ما نستطيعه أن نحو أثرها ونساها ثم نعود إلى العمل بهمة ونشاط ) .



ذلك حق ، وإليه يشير الحديث الشريف : « استعن بالله . ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا . ولكن قلْ : قدّر الله وماشاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان ». وبهذا نعَفَ على الماضي ، ونستأنف المسير في نشاط ورجاء .

## حياتك من صنع أفكارك

سعادة الإنسان أو شقاوته أو قلقه أو سكينته تتبع من نفسه وحدها .

إِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُعْطِي الْحَيَاةَ لِوَنْهَا الْبَهِيجُ ، أَوِ الْمَقْبَضُ ، كَمَا يَتَلَوَّنُ السَّائِلُ بِلَوْنِ الْإِنَاءِ  
الَّذِي يَحْتَوِيهِ : « فَمَنْ رَضِيَ فِلَهُ الرَّضَا ، وَمَنْ سُخْطَ فِلَهُ السُّخْطُ » (١) .

عاد النبي ﷺ أعرابياً مريضاً يتلوّى من شدة الحمى ، فقال له مواسياً ومشجعاً : «ظهور» ، فقال الأعرابيُّ : بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير ، لتورده القبور . قال : «فهي إذن »<sup>(٢)</sup> .

يعنى أن الأمر يخضع للاعتبار الشخصى ، فإن شئت جعلتها تطهيرًا ورضيت ، وإن شئت جعلتها هلاكًا وسخطت .

إنَّ العملُ الْوَاحِدُ بِمَا يَصْاحِبُه مِنْ حَالٍ نَفْسِيٍّ يَتَغَيَّرُ تَقْدِيرُهُ تَغْيِيرًا كَبِيرًا .

وانظر إلى هاتين الآيتين وما تبرزانه من صفات الناس :

«وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنِيقُ مَغْرِبًا وَيَرْبَصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ  
عَلَيْهِمْ دَأْبٌ إِذَا سَوَءَ فَلَلَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ»

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَيَتَحَدَّدُ مَا يُنْفِقُ قِرْبَاتٍ  
عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتٍ لِرَسُولِهِ لَا إِنْ شَاءَ فَرَبَّهُ هُوَ وَهُوَ (٢)

هؤلاء وأولئك يدفعون المال المطلوب .

هؤلاء يتّخذونه غرامة مؤذية مكرورة ، ويتمنّون العنت لقابضيه .

وأولئك يَتَّخِذُونَه زَكَاةً مَحْبُوبَةً تُطْيِبُ النَّفْسَ بِأَدَائِهَا ، وَتُطْلُبُ الدُّعَاءَ الصالحة بعد إيتائها .

وشتون الحياة كلها لا تعدو هذا النطاق .

التوبه : ٩٨ - ٩٩ .

(٢) البخاري .

(١) الترمذى .

قيمة العمل ، بل قيمة صاحب العمل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة الأفكار التي تدور في الذهن ، والمشاعر التي تعتمل في النفس ، قال « ديل كارنيجي » : ( إنَّ أفكارنا هي التي تصنعنا ، واتجاهنا الذهني هو العامل الأول في تقرير مصائرنا ، ولذلك يتساءل « إيمeson » : نبئنى ما يدور في ذهن الرجل أنتِك أيَّ رجل هو . نعم ، فكيف يكون الرجل شيئاً آخر غير ما يدل عليه تفكيره ؟ واعتقادى الجازم أنَّ المشكلة التي تواجهنا هي : كيف نختار الأفكار الصائبة السديدة ؟ فإذا انحلَّت هذه المشكلة انحلَّت بعدها سائر مشكلاتنا واحدة إثر أخرى . قال الإمبراطور الرومانى « ماركوس أورليوس » : إن حياتنا من صنع أفكارنا .

فإذا نحن ساورتنا أفكار سعيدة كنا سعداء ، وإذا تملكتنا أفكار شقية غدرونا أشقياء ، وإذا خامرتنا أفكار مزعجة تحولنا خائفين جبناء ، وإذا تغلبتْ علينا هوا جس السقم والمرض فالأخلُقُ الأغلبُ أن نبيت مرضي سقاماء ، وهكذا ) .

### ٣٣٣٣٣

إن أحداً لا يستطيع إنكار ما للروح المعنوي من أثر باهر لدى الأفراد والجماعات .

فالجيوش التي يحسُّن بلاؤها وتعظم بسالتها إنما تستمد طول مقاومتها من رسوخ العقيدة وقوة الصبر ، أكثر مما تستمد من وفرة السلاح والعتاد .

فذخيرة الْحُلُقُ المتين والمسلك العالى أجدى على أصحابها وأكسب للنصر من أى شيء آخر .

والرجل الذى تربو ثقته بنفسه لا يشنِّل إقدامه على الحياة نقصٌ فى بدنـه ، أو عَنَتْ فى ظروفـه ، بل قد يكون ذلك مثار نشاطـه ، وشدة شـكيمـته ، كما قال الشاعـر :

إن لا يكن عظمى طويلاً فإإنى  
إذا كنت في القوم الطـوال علوتهم  
له بالخصال الصالـحـات وصـوـل  
بـعـارـفـةـ حتى يـقالـ : طـوـيلـ

والحقُّ أنَّ مركَبَ النقص قد يكون خيراً وبركة إذا حفز إلى التكملَةِ وَحدَّا إلى الجد .  
وهم إنما يُذمُّ ويُستكره إذا التوى بالإنسان وجعله يجنح إلى الرياء والتظاهر الكاذب ،  
ومواراة عيوبه بالادعاء والخداع .

إنَّ الأحوال النفسية الحية تجعل القليل كثيراً ، والواحد أمة .  
وإلى هذه الأحوال - كماً وكيفاً - يرتدُّ مستقبل الإنسان ، وتأخذ حياته مجريها .  
والنفس وحدها هي مصدر السلوك والتوجيه حسب ما يغمرها من أفكار ،  
ويصبغها من عواطف .

إنَّ الإنسان عندما يرتفع عن سطح الأرض تتغير الأشكال والأحجام في عينه ،  
وتكون نظرته إلى ما دونه أوسع مدى وأرحب أفقاً .  
وهو هولم يتغير .

كذلك ارتفاع الإنسان في مدارج الارتقاء الثقافي والكمال الخلقي .  
إنه يغيّر كثيراً من أفكاره وأحساسه .  
ويبدل أحکامه على كثير من الأشخاص والأشياء .

والمرء في طور الصبا غيره في طور الرجولة ، وهو في طور الشباب غيره في  
طور الكهولة .

ونحن نستطيع أن نصنع من أنفسنا مثلاً رائعة إذا أردنا .  
وسبيلنا إلى ذلك تجديد أفكارنا ومشاعرنا ، كما تتجدد الرقعة من الصحراء إذا  
انضاف إليها مقدار ضخم من المخلفات والمياه .

إننا نتحول أشخاصاً آخرين كما تتحول هذه الصحراء القاحلة روضة غناء .

### ❀❀❀❀❀

وقد حكى لنا « ديل كارنيجي » قصة شاب نهكته العلة ، فرحل عن وطنه يطلب  
الصحة في السياحة وارتياح الأقطار البعيدة ، وكان أبوه يعلم طبيعة مرضه ، وأن  
سقامه جاء من توعلك مزاجه وغلبة أوهامه ، فكتب إليه في غربته هذه الرسالة :  
« ولدى ، إنك الآن على بعد ألف وخمسمائة ميل من بيتك ، ومع ذلك لستَ تحس  
فارقًا بين الحالين هنا وهناك ، أليس كذلك ؟ بلـ ، لأنك أخذت عبر هذه المسافة  
الشاسعة الشيء الوحيد الذي هو مصدر كل ما تعانيه ، ذلك هو نفسك . لا أفة البتة  
بجسمك أو عقلك ، ولا شيء من التجارب التي واجهتها قد تُردي بك إلى هذه  
الهاوية السحيقة من الشقاء ، وإنما الذي تردى بك هو العوج الذهني الذي واجهت به

تجاربك ، وكما يفكر المرء يكون ، فمتى أدركتَ ذلك يا بنى ، فعد إلى بيتكَ وأهلكَ ، لأنكَ يومئذ تكون قد شفيت !! ) .

قال الشاب : ( هاجنـى هذا الخطاب ، وبلغـى الغضـب حـدـاً قرـرتُ معـه لاـً أعودـ إلى بـيـتـى وأـهـلـى ، قال : وفـى تـلـكـ اللـيـلـةـ وـبـيـنـماـ كـنـتـ أـذـرـعـ إـحـدىـ الشـوـارـعـ ، وـجـدـتـ كـنـيـسـةـ فـى طـرـيقـ تـقـامـ فـيـهاـ الصـلـاـةـ ، وـلـمـ تـكـنـ لـىـ وـجـهـةـ مـعـيـنـةـ ، فـقـدـ دـلـفـتـ إـلـيـهـ لـأـسـتـمـعـ إـلـىـ الـمـوعـظـةـ الـدـينـيـةـ التـىـ تـلـقـىـ ، كـانـ عـنـوانـ الـعـظـةـ : «ـ هـذـاـ الـذـىـ يـقـهـرـ نـفـسـهـ ، أـعـظـمـ مـنـ ذـاكـ الـذـىـ يـفـتحـ مـدـيـنـةـ »ـ .

وكأنما كان جلوسى فى معبد من معابد الله ، وإنصاتى إلى الأفكار التى تضمنها خطاب أبي تقال بصيغة أخرى محاًةً مسحت الاضطراب الذى يطغى على عقلى ، ووسعنى فى تلك اللحظة أن أفكر تفكيرًا متزناً فى حياتى ، وهالنى إذ ذاك أن أرى نفسي على حقيقتها ، نعم ؟ لقد رأيتني أريد أن أغير الدنيا وما عليه ، فى حين أن الشئ الواحد الذى كان فى أشد الحاجة إلى التغيير هو تفكيرى واتجاهى ذهنى . هو نفسي ) .

፩፭፻፭

وما كتبه «كارنيجي» كتبنا مثله في مؤلفنا «خلق المسلم» ونوهنا فيه بهذه الحقيقة ، قلنا : (الإسلام - كسائر رسالات السماء - يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء ، فهو يصرف جهوداً ضخمة للتغلغل في أعماقها ، وغرس تعاليمه في جوهرها حتى يستحيل جزءاً منها .

وما خُلِّدَت رسالات النبِيِّينَ وَكَوَّنَتْ حَوْلَهَا جَمَاهِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِأَنَّ «النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ» كَانَتْ مَوْضِعَ عَمَلِهَا ، وَمَحْورَ نِشَاطِهَا ، فَلَمْ تَكُنْ تَعَالِيمُهُمْ قَشْوَرًا مَلْصَقَةً فَتَسَقَطُ فِي مَضْطَرِبِ الْحَيَاةِ الْمُتَحْرِكَةِ ، وَلَا أَلْوَانًا مُفْتَعِلَةً تَبْهَثُ عَلَى مَرَّ الْأَيَّامِ . لَا .. لَقَدْ خَلَطُوا مِبَادِئِهِمْ بِطَوَايَا النَّفْسِ ، فَأَصَبَّهُتْ هَذِهِ الْمِبَادِئُ قُوَّةً تَهِيمَنْ عَلَى وَسَاوسِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَحْكُّمَ فِي اِتِّجَاهَاتِهَا .

وربما تحدثت رسالات السماء عن المجتمع وأوضاعه ، والحكم وأنواعه ، وقدّمت أدوية لما يعرو هذه النواحي من علل .

ومع ذلك فالآديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المفصل لكل إصلاح ، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة . وليس في هذا تهويٌ ولا غصٌ من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة .

بل هو تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء .

فالنفس المختلة تشير الفوضى في أحكم النظم ، و تستطيع التنفيذ منه إلى أغراضها الدنيئة . والنفس الكريمة ترقع الفتوّق في الأحوال المختلة ، و يُشرق نُبلها من داخلها ، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير .

إن القاضي النزيه يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به ، أما القاضي الجائر فهو يستطع الميل بالنصوص المستقيمة . وكذلك نفس الإنسان حين تواجه ما في الدنيا من تيارات وأفكار ، ورغبات ومصالح .

ومن هنا كان الإصلاح النفسي الداعمة الأولى لتغلب الخير في هذه الحياة . فإذا لم تصلح النفس أظلمت الآفاق ، وسادت الفتنة حاضر الناس ومستقبلهم ، ولذلك يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَلَذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَامَهُ اللَّهُ وَمَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٰ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول معللاً هلاك الأمم الفاسدة . «كَذَّابِيَ الْفَرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِيَوْمِ اللَّهِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَعْمَلُهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ»<sup>(٢)</sup>



ويريد الله عز وجل أن يبيّن لنا الصلة الوثيقة بين صفاء النفس وصفاء العيش وبين جمال الخلق وجمال الحياة ، فأكّد لنا أن بركته الشاملة تتنزّل أماناً على المؤمنين ، وبراً وفضلاً على الأتقياء والمحسنين ، فقال :

(٢) الأنفال : ٥٢ - ٥٣ .

(١) الرعد : ١١ .

﴿وَلَوْاَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَىَّ امْنَوْا وَاتَّقُوا الْفَتْحَ نَعَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>

وذكر أنه أنزل الهزيمة والخزي بقوم من الغزاة :

﴿خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ بَطَرًا وَرِئَةَ الْتَّاسِ وَيَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>

ثم بعد أن وقع عليهم العقاب فتح لهم منافذ الرجاء إلى مستقبل أكرم ، ولكن كرامته رهن بتغيير قلوبهم ، وانتقالها عن خلال البطر والاستعلاء إلى خلال التواضع والمراحمة والعدالة ، فقال :

﴿إِنَّمَا الَّذِي قُلْتُ لَنِّي فِي أَيْدِيهِمْ مِّنَ الْأَسْرَىِ إِنَّمَا اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرٌ إِنَّمَا هُنَّ كُفَّارٌ مَا أَخْذَ مِنْكُمْ وَإِنْفَرَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>

والتربيـة الإسلامية الأولى أوغلـت إلى حد هائل في دراسة النفـوس وأحوالـها ، والقلـوب وأطـوارـها ، مستهدـفة في هذه الـدراسة جـعل السـعادة العـظمـى تـبعـ من دـاخـل الإـنسـان لاـ من خـارـجه ، ومـغـرـية المـرـء أـن يـرـتـقـبـ في آـفـاقـ نـفـسـهـ وـحـدـهاـ كـواـكـبـ الـيـمـنـ وـالـإـقبـالـ وـالـرـضـوانـ .

فـإـذـا طـلـعـتـ - بـعـد طـولـ الـرـياـضـةـ وـالـتـجـرـدـ وـصـدـقـ الـيـمـنـ وـالـإـخـلاـصـ - فـهـيـهـاتـ أـنـ يـدـرـكـ شـعـاعـهاـ أـفـوـلـ .

وعـنـدـما يـصـلـ السـالـكـونـ إـلـىـ هـذـاـ الشـأـوـ ، يـقـولـونـ : نـحـنـ فـىـ لـذـةـ لـوـ عـرـفـهـاـ الـلـوـكـ لـقـاتـلـونـاـ عـلـيـهـاـ بـالـسـيـوـفـ !! .

بـيـدـ أـنـ هـذـهـ الـرـياـضـاتـ النـفـسـيـةـ ، وـمـاـ يـنـشـدـ مـنـهـاـ ، أـصـابـهـاـ مـنـ التـطـرـفـ وـالـفـوـضـيـ ماـ أـزـرـىـ بـنـتـائـجـهـاـ .

إـذـ أـنـ مـتـصـوـفـةـ الـسـلـمـينـ الـأـوـلـ انـحـصـرـوـاـ فـيـ نـطـاقـ تـصـوـرـاتـهـمـ ، وـغـالـلـواـ بـالـنـتـائـجـ الـشـخـصـيـةـ الـتـىـ أـحـرـزـوـهـاـ ، وـحاـولـواـ أـنـ يـنـظـرـوـاـ مـنـ خـالـلـهـاـ إـلـىـ حـقـائـقـ الـكـوـنـ وـالـحـيـاـةـ الـطـبـيـعـيـةـ فـضـلـوـاـ وـأـضـلـوـاـ ..

وـالـفـرـقـ بـيـنـ التـصـوـفـ الـإـسـلـامـيـ وـالـتصـوـفـ الـأـمـرـيـكـيـ يـظـهـرـ مـنـ ذـكـرـ هـذـهـ الـحـكـاـيـةـ الـتـىـ أـثـبـتـهـاـ «ـدـيـلـ كـارـنـيـجـىـ»ـ لـلـسـيـدـةـ «ـمـارـىـ بـيـكـرـ إـيدـىـ»ـ مـؤـسـسـةـ مـاـ سـمـاهـ «ـالـعـلـمـ الـمـسـيـحـىـ»ـ .

(٢) الأنفال : ٤٧ .

(١) الأعراف : ٩٦

(٣) الأنفال : ٧٠ .

هذه السيدة لم تكن تعلم من شئون الحياة إلا الفقر والجوع والمرض ، فقد مات زوجها بعد وقت قصير من قرانهما ، وهجرها زوجها الثاني هارباً مع امرأة أخرى ، ثم وجد بعدها ميتاً في منزل حقير .

وكان لها ولد واحد .. لكنها ألغت نفسها مدفوعة بالفاقة والمرض إلى التخلّي عنه حين بلغ الرابعة من عمره .

ثم فقدت كل أثر له بعد ذلك ، فلم تره مدة واحد وثلاثين عاماً .  
ولما كانت السيدة « إيدى » عليلة على الدوام فقد انساقت إلى الاهتمام بفكرة « العلاج بقوة العقل » .

وقد وقعت نقطة التحول في حياتها وهي ببلدة « لين » ، فبينما كانت تحبوب طرقات البلدة ذات يوم إذ زلت قدمها فسقطت على الإفريز المكسو بالجليد ، ثم ذهبت في إغماء طويل ، وأصيبت من جراء سقوطها هذه إصابة بالغة في عمودها الفقري ، وتوقع لها الأطباء إما الموت العاجل ، وإما الشلل التام طول حياتها ..

وبينما المرأة راقدة في فراش المرض فتحت الكتاب المقدس ، وألهمتها العناية الإلهية - كما عبرت هي - أن تقرأ هذه الكلمات من إنجيل متى : ( وإذا مفلوج يقدمونه إليه - تعنى عيسى عليه السلام - مطروحاً على فراش ، حينئذ قال للمفلوج : قم احمل فراشك وادهب إلى بيتك ، فنهض وغادر المكان ) .

قالت « ماري بيكر » : إن هذه الكلمات أمدتها بقوة وإيمان وفورة داخلية ، حتى أنها نهضت من الفراش وتعشت في الغرفة !! ومهدت هذه التجربة الطريق للسيدة المشلولة كى تشفى نفسها وتسوق العافية لآخرين .

قال « ديل كارنيجي » ( تلك هي التجربة التي مكنت « ماري بيكر إيدى » من أن تصبح مبشرة بدين جديد ، لعل الدين الوحيد الذي بشّرت به امرأة !! ) .

ونحن نميل إلى تصديق هذه الأقصوصة الطريفة ، بل نميل إلى تصديق الخوارق التي تحكيها الصحف عن فقراء الهند ، فإن القوى النفسية الطامحة تصنع العجائب . ولمن شاء أن يهتزّ كتفيه استخفافاً ، فليس يتعلق بتصديق هذه الروايات إيمان ولا كفران .

غاية ما نلفت النظر إليه أن هذه الحوادث يجب أن تُحصر في النطاق الفردي المحس ، فلا يحاول أحد أن يجعل منها قانوناً مادياً عاماً .

والأمريكان الذين وقعت بينهم تلك القصة لم يتجاوزوا تلك الحدود ، ولم يحاولوا نقلها إلى معامل الذرة أو ساحات المصنع وميادين الإنتاج .

أما الذى حدث فى بلادنا منذ قرون فعلى العكس من ذلك تماماً .

إذ تحولت هذه الخوارق النفسية إلى وباء اجتاح القرى والمدن .

فما يكاد يمر يوم حتى تضيف « الروايات » خارقاً لرجل ماجن أو ماجد ، وكرامة لولى صالح أو داهية خبيث .

واتسعت دائرة الأساطير ، فإذا هى تنتقل إلى ميادين التجارة والصناعة والعلم والبحث .

بل لقد انتقلت إلى ميادين الحرب والسياسة ، فعندما حارب الخديوى إسماعيل الحبشة وأحسَّ ملاقته حملاته هناك من خيبة ، أمر علماء الأزهر أن يجتمعوا فى صحفه ليقرأوا : « صحيح البخارى » !! .

كأن تلاوة السنة كلُّها أو القرآن كلُّه تردُّ الهزائم عن الفرق المدببة لسوء خطتها أو ضعف عدُّتها !! .

إن امرأة تتلو سطوراً من إنجليل « متى » فتشفى - كما يحكى الأمريكان - لا يجوز أن يتحول أمرها إلى لغط حول سنن الله فى كونه ، كما حدث لأمثالها فى بلادنا ، إذ تحولت هذه الخوارق النفسية الخاصة إلى هجوم شامل على حقائق الكون والحياة !! . ذلك أن الأنظار والأحكام يمكن أن تتفاوت تفاوتاً واسعاً في المجالات الاعتبارية البحتة ، ويمكن أن تزيد قواك أو تنقص بعما في نفسك من همة ونشاط وإقبال . أما قوانين المادة العتيدة فهي لا تمانع وفق الأهواء والميول .

وفي هذه الحدود نفهم قول « جمس آلن » .

( دُعْ إنساناً يغير اتجاه أفكاره ، وسوف تتملكه الدهشة لسرعة التحول الذي يحدثه هذا التغيير في جوانب حياته المتعددة . إنَّ القدرة الإلهية التي تكييف مصائرنا ، مودعة في أنفسنا ، بل هي أنفسنا ذاتها !! .

وكل ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور في فكره ، فكما أن المرء ينهض على قدميه وينشط وينتتج بدافع من أفكاره ، كذلك يمرض ويشفى بدافع من أفكاره أيضاً ) .

من أمد بعيد وأنا أكتب للإسلام وأخطب وأجوب  
أرجاء الدنيا ، والجماعة التي عشتُ فيها حقبة من الدهر  
تعلم ذلك عنى . ولم تكن خطابتى بـ سـنـة لـسان يـهـدر  
بالقول ، ولم تكن كـتابـتـي سـطـوة قـلم يـصـوـل وـيـجـول ،  
بل كـانـ ذـلـك كـلـه ذـوـبـ عـاطـفـة تـضـطـرـمـ بالـاخـلاـصـ ،  
وـفـكـرـ يـسـتـكـشـفـ صـمـيمـ الحـقـ وـيـبـادـرـ إـلـىـ إـعـلـانـهـ .

محمد الغزالى

## الثمن الباهظ للقصاص

إحساس المرء بعظمة نفسه ، ورسوخ قدمه ، وحصانة عرضه ضد المفتريات وإحساسه بتفاهمه خصومه أو عجزهم عن النيل منه ، أو قدرته على البطش بهم ، كل ذلك يجعله بارد الأعصاب إذا أهين ، بطئ الغضب إذا أسى إليه .

والغالب أن الإنسان يتغير ، ثم يغتاظ ، ثم تنفجر ثورته إذا اقتحمت نفسه ، كما يقتحم العدو بلداً سقط في قبضته وأعلن الاستسلام .

أما إذا أيقن أن عدوه يحاول المستحيل باستفزازه ، وأنه مهما بذل فلن يجرحه ، فإن هذه الطمأنينة تجعله يتلقى الضربات بهدوء ، أو بابتسام ، أو بسخرية .

ودعماً لهذه الحقيقة نسوق شاهدين : أحدهما ذكره « ديل كارنيجي » ، والآخر ذكرته في كتابي « خلق المسلم » وكلا الشاهدين يصدق الآخر ويزكيه . قال « ديل كارنيجي » : ( نصبنا مخيماً ذات ليلة تجاه حرش متكافف الأشجار ، وفجأة بрез لنا وحش الغاب الخيف : الدب الأسود . وتسلل الدب إلى ظلال الضوء المنبعث من معسكرنا ، وراح يلتهم بقايا طعام يبدو أنّ خدم أحد الفنادق المقامة في أطراف الغابة ألقاها هناك ... وفي ذلك الوقت كان « الماجور مانتريل » - أحد رواد الغابات المغامرين - يمتنى صهوة جواده ، ويقصّ علينا أعجب القصص عن الدببة ، فكان ما قاله : إنَّ الدب الأسود يسعه أن يقهر أي حيوان آخر يعيش في العالم الغربي باشتثناء الثور على وجه الاحتمال .

غير أنّي لاحظتُ في تلك الليلة أن حيواناً ضئيلاً ضعيفاً استطاع أن يخرج من مكمنه في الغابة وأن يواجه الدبَّ غير هياب . ولا وجِل .

بل أن يشاركه الطعام أيضاً ، ذلك هو « النمس » .

ولا ريب أنَّ الدبَّ يعلم أن ضربة واحدة من مخلبه القوى تمحو « النمس » من الوجود ، فلماذا لم يفعل هذا . لأنَّه تعلم بالتجربة أنَّ مغاضبة مثل هذا

الحيوان الضئيل عداوة لن تعود بالضرر إلّا عليه هو ، فأكرمُ له وأليق بكبريائه أن يغضُّ الطرف عنه .

ولقد تعلمتُ هذا أنا أيضًا ، فطالما ضيقَت الخناق على أدميين من طراز هذا «النمس» ، فعلمتنى التجربة المرة أن اجتلاف عداوة هؤلاء لا تجدى فتيلاً ) .

ذاك ما كتبه « ديل كارنيجي » فى كتابه : « دع القلق ». وقد وافقته فى هذا التفكير فيما كتبته - قبلاً - بخلق المسلم قلت :

( ومع أنَّ للطبع الأصلية فى النفس دخلاً كبيراً فى أنسبة الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ؛ إلَّا أنَّ هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أنااته مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم .

فالرجل العظيم حقاً كلما حلَّ فى آفاق الكمال اتسع صدره ، أو امتد حلمه ، وعذَّرَ الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلالاتهم . فإذا عدَا عليه غُرُّ يريد تحريره ، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون فى الطريق وقد يرمونه بالأحجار .

وقد رأينا الغضب يشتط ب أصحابه إلى حد الجنون عندما تُفتح عليهم نفوسهم . ويررون أنَّهم حُقِّروا تخييراً لا يعالجه إلا سفك الدم .

أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحسُّ بوخذ الألم على هذا النحو الشديد؟ كلا . إن الإهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرماها بعيد .

وهذا المعنى يفسّر لنا حلم « هود » وهو يستمع إلى إجابة قومه بعد ما دعاهم إلى توحيد الله قالوا : « إِنَّا لَنَرَكُ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا نَظُنُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَقُولُ يَسِّرْ  
سَفَاهَةٌ وَلَا كَيْنَى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَبْلِغُكُمْ رِسْلَتِ رَبِّي  
وَإِنَّ الْكُوَافِرَ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ (١)

إن شتايم هؤلاء الجهال لم يطش لها حُلم « هود » لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله رسولًا ، فهو في الذُّؤابة من الخير والبر ، وبين قوم سفهوا أنفسهم ،

(١) الأعراف : ٦٦ - ٦٨ .



وتهاواً على عبادة الأحجار يحسبونها - لغبائهم - تضرُّ وتنفع !! كيف يضيق المعلم الكبير بهَرَف هذه القطعان ؟ ! ) .

### ٣٤٣٤٣٤٣٤

إليك ناذج من الرجولات التي لا تهزمها إساءة ، ولا تستفزها جهالة ، لأن لغو السفهاء يتلاشى في رحابتها كما تتلاشى الأحجار في أغوار البحر المحيط .

ما يضير البحر أمسى زاخراً      إن رمَى فيه غلامٌ بحجر؟!

يُروى أنَّ رجلاً سبَّ الأحنف بن قيس - وهو يماشيه في الطريق - فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا ، إنَّ كَانَ بقى معك شَيْءٌ فقله هنا ، فإِنِّي أخاف إن سمعك فتیانَ الْحَىِّ أَنْ يُؤذُوك .

وقال رجل لأبى ذر : أنت الذى نفاك معاوية من الشام ؟ . لو كان فيك خير ما نفاك !! فقال : يا ابن أخي ، إنَّ ورائى عقبة كَوْدَداً ، إنَّ نجوتُ منها لم يضرُّنى ما قلت ، وإنَّ لِمَ أَنْجَعْ منها فَأَنَا شَرُّ ما قلت !! .

وقال رجل لأبى بكر : والله لا سبَّتْك سبًا يدخل القبر معك !! قال : معك يدخل لا معى !! .

وقال رجل لعمرو بن العاص : والله لا تفرَّغَنَّ لك . قال : هناك وقعت في الشغل !! قال : كأنَّك تهددى ؟ والله لئن قلت لي كلمة لا قولَنَ لك عشرًا !! قال عمرو : وأنت والله لئن قلت لي عشرًا لم أقل لك واحدة .

وشتم رجلُ الشعْبِيَّ فقال له : إنَّ كَنْتَ صادقًا فغفرَ اللهُ لِي ، وإنْ كَنْتَ كاذبًا فغفرَ اللهُ لَكَ .

وشتم رجل أبا ذر الغفارى فقال له أبو ذر : يا هذا لا تغرق في شتمنا ، ودع للصلح موضعًا ، فإننا لا نكافئ من عصى الله علينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

ومرَّ المسيح بقوم من اليهود فقالوا له شرًا . فقال لهم خيراً ، فقيل له : إنهم يقولون شرًا وتقول لهم خيراً ؟ ! فقال : كل واحد يُنفق ما عنده .

وقيل لقيس بن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصلَّ من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عن ظلمك ..

وقالوا : ما قُرِنَ شَيْءٌ أَرَى مِنْ حَلْمٍ إِلَى عِلْمٍ ، وَمِنْ عَفْوٍ إِلَى قَدْرَةٍ !! .  
وقال الحسن : المؤمن حليم لا يجهل وان جُهْلٌ عَلَيْهِ . وتلا قوله تعالى :  
﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمْ أَجْهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾<sup>(١)</sup>

وقال يزيد بن حبيب : إنما كان غضبي في نعلي ... فإذا سمعت ما أكره  
أخذتها ومضيت .

وقال عليٌّ : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحِلْمك على السفيه يُكثِر  
أنصارك عليه .

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك ، إنما أردتَ  
أن يستفزني الشيطان بعزةَ السلطان ، فأنا منك اليوم ما تناله مني غداً ،  
انصرف إذا شئت !! .

### ❖❖❖❖❖

إنَّ الغضب مُسٌّ ، يسرى في النفس كما تسرى الكهرباء في البدن .  
قد يُنشيءُ رُعْدَةً شاملةً واضطراًباً مذهلاً ، وقد يشتد التيار فيصعق صاحبه  
ويقضى عليه .

ولذلك يرى « ديل كارنيجي » أنَّ التحلُّم مع الأعداء رحمة تلحق بالنفس قبل أن  
ينال الغيرَ خيراًها ويدركه بَرْدُها وبرُّها ..

وهو ينقل لنا فقرة من منشور وزعته إدارة الشرطة بإحدى مدن أمريكا ، وهي فقرة  
تستحق التنوية : ( إذا سُوِّلتْ لقوم أنفسهم أن يسيئوا إليك ، فامحُ من نفسك  
ذكريهم ، ولا تحاول الاقتصاص منهم ، إنك إذ تبييت نية الانتقام تؤذى نفسك  
أكثر مما تؤذيه !! ) .

ثم يتساءل : ( كيف تؤذيك محاولة القصاص ؟ . إنها قد تُودي بصحتك ، كما  
ذكرت مجلة « لايف » : أنَّ أبرز ما يميز الذين يُعانون ضغط الدم هو سرعة انفعالهم ،  
واستجابتهم لدواعي الغيظ والحدق ) .

قال : ( وأصيَّتْ إحدى معارفِي بداء القلب ، فكان كل ما نصحها به الأطباء ألاً  
تدع للغضب سبيلاً إليها مهما بلغ الخطُّ ، فإنَّ المريض بقلبه قد تكفى لحرق قبره  
غضبة واحدة !! ) .

(١) الفرقان آية ٦٣

ومحافظة على الإنسان من ثورات الغضب ، ومن آثاره البدنية والنفسية ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه أواه الله في كنفه ، وستر عليه برحمته ، وأدخله في محبته : من إذا أعطى شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر »<sup>(١)</sup> . وروى أنه قال : « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ، ومن حفظ لسانه ستر الله عليه عورته »<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغا وجه الله »<sup>(٣)</sup> .

وظاهر أن الماء مع تفاقم الغضب يغيب عنه وعيه ويتسليم الشيطان زمامه ، وكما تعصف الأضطرابات بمشاعره تُطِيشُ لُبُّه ، فلا يعى ما يوجه إليه من نصْحٍ ولو كان من كلام الله وحكمه الرسول .

فقد جاء في الصحيح : استَبَ رجلان عند النبي ﷺ ، فجعل أحدهما يغضب ويحرّ وجهه وتنتفخ أوداجه ، فنظر إليه النبي ﷺ فقال : « إنِّي لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه هذا ... أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، فقام إلى الرجل أحد مَنْ سمع النبي ﷺ وقال له : هل تدري ما قال رسول الله آنفًا؟ قال : لا ، قال : « إنِّي لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه هذا ... أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فقال له الرجل : (أَمْجَنْوَنًا تراني؟ ...) <sup>(٤)</sup> .

وهكذا بلغ الغضب بالرجل يُمهّد النفس لقبول شتى الوساوس و يجعلها بحالة تستسهل فيها أشد الجرائم ، حتى إذا صحا الغضوب من نَزُوْتِه راح يندم على ما فرط منه ، ولات ساعة مندّم .



يقول « ديل كارنيجي » : ( فأنت ترى المسيح عليه السلام حين قال : « أحبوا أعداءكم » لم يكن يعني تقويم الأخلاق فحسب ، وإنما كان يعني تقويم الأبدان أيضاً وفقاً لمبادئ الـ طب الحديث .

(١) الحاكم .

(٢) الطبراني .

(٣) البخاري .

(٤) ابن ماجه .

وحيث نصح بأن يعفو المرء إلى سبعين مرة سبع مرات ، فإنما كان يعلمـنا كيف  
تتفادـى لـغط القلب وقرحة المعدة وغيرهما من الأدواء) .

وقصة العفو عن الـهـفـوات أكثر من سبعـين مـرـة روـيـت فـى إـنجـيل «مـتـى» . وروـيـت  
كـذـلـك فـى سـنـنـ النـبـى ﷺ ، فـعـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ عـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ : جاءـ رـجـلـ إـلـىـ النـبـىـ  
ﷺ فـقـالـ : يـاـ رـسـولـ اللـهـ ، كـمـ أـعـفـوـ عـنـ الـخـادـمـ ؟ قـالـ «كـلـ يـوـمـ سـبـعـينـ مـرـةـ» (١) وـفـىـ  
رـوـاـيـةـ أـنـ رـجـلـاـ أـتـىـ رـسـولـ اللـهـ فـقـالـ لـهـ : إـنـ خـادـمـ يـسـىـءـ وـيـظـلـمـ ، أـفـأـضـرـيـهـ ؟  
قـالـ : «تـعـفـوـ عـنـهـ كـلـ يـوـمـ وـلـيـلـةـ سـبـعـينـ مـرـةـ» (٢) .

أـمـاـ مـحـبـةـ الـأـعـدـاءـ فـلـعـلـهـ تـعـنىـ إـيـشـارـةـ الـعـفـوـ عـنـهـمـ ، وـتـنـقـيـةـ الـقـلـبـ مـنـ الضـغـائـنـ  
عـلـيـهـمـ ، وـتـرـكـ الـانـشـغالـ بـاـسـلـفـواـ مـنـ سـيـئـاتـ ، ذـلـكـ إـلـىـشـغالـ الـذـىـ لـاـ ثـمـرـةـ لـهـ إـلـاـ  
تـوـاصـلـ الـأـحـزـانـ وـطـوـلـ الشـكـاـيـاتـ ، وـنـدـبـ مـاـ تـوـرـطـ فـيـهـ الطـبـاعـ الغـلـيـظـةـ مـنـ مـظـالـمـ .

أـمـاـ أـنـ تـكـوـنـ عـوـاطـفـ الـإـنـسـانـ سـوـاءـ تـجـاهـ مـنـ يـحـسـنـ إـلـيـهـ وـمـنـ يـجـورـ عـلـيـهـ  
فـذـاكـ مـسـتـحـيلـ .

إـنـ الـمـرـءـ يـشـكـرـ نـعـمـىـ الـمـحـسـنـينـ ، وـيـحـمـدـ عـرـاقـةـ الـأـمـجـادـ وـيـوـدـ عـشـرـتـهـمـ .  
وـإـنـ لـيـفـرـ مـنـ دـنـاءـ الـأـدـنـيـاءـ ، وـيـعـافـ الـقـرـبـ مـنـ نـفـوسـهـمـ وـالـتـعـرـضـ لـمـساـوـيـهـمـ ؛  
فـكـيـفـ يـحـبـهـمـ ؟ ! .

إـنـ اـبـنـ آـدـمـ الـصـالـحـ كـانـ طـبـيعـيـاـ فـىـ مـشـاعـرـهـ ، وـمـنـطـقـيـاـ مـعـ نـفـسـهـ وـمـعـ الـعـدـلـ عـنـدـمـاـ  
كـرـهـ أـخـاهـ الـقـاتـلـ ، وـتـرـبـصـ بـهـ الـقـصـاصـ الـوـاجـبـ ، وـقـالـ :

﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ يُبَوَّأَ إِلَيْشِئِي وَإِنِّي لَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ بَرَأْتُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)

عـلـىـ أـنـ الـمـؤـمـنـ مـعـ ذـلـكـ كـبـيرـ الـقـلـبـ ، وـالـقـلـبـ الـكـبـيرـ لـيـسـ تـرـبةـ لـجـذـورـ الـغـلـلـ تـتـشـبـثـ  
فـيـهـ وـتـمـتـدـ ، كـلاـ . إـنـ الـحـقـدـ عـنـصـرـ غـرـبـ عـلـيـهـ ، وـلـذـلـكـ مـاـ إـنـ يـمـرـ بـهـ طـيـفـهـ حـتـىـ  
يـتـقـلـصـ وـيـزـوـلـ .

ثـمـ إـنـ لـلـمـؤـمـنـ شـغـلـ بـمـسـتـقـلـهـ فـىـ الـأـخـرـىـ وـالـعـدـادـ لـهـ فـىـ هـذـهـ الـدـنـيـاـ .  
وـالـتـفـرـغـ لـلـخـصـومـاتـ دـيـدـنـ مـنـ لـاـ عـمـلـ لـهـمـ إـلـاـ الـلـجـاجـةـ وـإـيـشـارـ الـنـزـاعـ .

كـذـلـكـ كـانـ الـعـربـ فـىـ جـاهـلـيـتـهـمـ حـتـىـ نـزـلـ الـقـرـآنـ يـنـادـيـهـمـ :

(٣) المائدة آية ٢٩ .

(١) الترمذى .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوهُ فِي  
 الْسِّلْمَ كَافَّةً وَلَا تُنْهِيُّهُمْ وَأُخْطُوْتُ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾<sup>(١)</sup>

فجمعهم على الحق وشغلهم به بدل أن يشغله بعضهم بالبعض الآخر .

وقد عادت هذه الجاهلية إلى الجماهير الفارغة من أمتنا ، فهم بين مُقاتلات وثارات لا تنتهي ، لأنهم ليسوا أصحاب رسالة يحيون لها وينشغلون بحقوقها !! .

إن الشبه قائم بين طباع العظماء وإن اختلفت أسلتهم وألوانهم ، ذلك لأن بذور السُّمُّ تنشأ بين شمائهم وهمأطفال ، ثم تقوى مع اشتداد أعوادهم ، فهى خصائص يزُود الله من يشاء من خلقه ليقوم في الحياة بعمل كبير أو يؤدي رسالة رائعة .

وأولو المawahب النُّفُسية والعقلية الفارغة سِناد رَكِين للألم التي يقودونها ، والأعباء التي يحملونها .

ولذلك دعا رسول الله - في إبان غُربة الإسلام وقتلته - أن يعزه بأحد العُمرَين : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام ..

فكان الأول أسعد الرجلين وأحظاهما عند الله .

وعندما وفدت قبيلة عبد القَيس إلى المدينة ، قال النبي ﷺ للأشج - رئيسها - : «إِنَّ فِيكُ خَصْلَتَيْنِ يَحْبَهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحَلْمُ وَالْأَنَّةُ»<sup>(٢)</sup> .

وروى أنَّ الرجل قال للنبي : خصلتان جبلى الله عليهما ، أم جدتا في؟ فقال له «بل جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا» فسر الرجل على هذا العطاء الجزل .

لقد كانت نفسه - في ظلمات الجاهلية - تتألق بخلال يحبها الله جل شأنه .

ولقد طالعت النُّبُذ اليسيرة التي نقلها «دييل كارنيجي» عن حياة «إبراهام لنكولن» الزعيم الأمريكي الكبير ، فتبينت في تصاعيفها هذا السُّمُّ الذي يبرا الله عليه بعض النفوس ، لتكون في بيئتها نوراً يومض بالنُّبل والفضل ، ومع ذلك فإنَّ هذا الرجل لم ينجُ من تأثير الصغار عليه ، بل إنَّ «كارنيجي» يقول : (لعل أحداً من أحببهم أمريكا في تاريخها كلَّه ، لم يلق من الإيذاء والمؤْتَمَّة والخديعة ما لقيه «لنكولن») .

(١) البقرة : ٢٠٨ . (٢) البخاري .

وبرغم ذلك فإنه كما يقول - مؤلف سيرته - (لم يزن الناس قطُّ بميزان حبه أو كراهيته لهم .

فإذا أساء رجل إلى شخصه - وكان هذا الرجل أصلاح الرجال لتقلد منصب من المناصب - أسرع «النوكولن» يقلده إيهما كما لو كان يقلده صديقاً له .

ولا إخاله عزل رجلاً عن عمله لأنَّه كان خصماً له ، أو لأنَّه كان يكرهه .

بل الواقع أنَّ «النوكولن» أوذى وأسى إليه من رجال قلدهم فيما بعد مناصب ذات وجاهة وسطوة ، لأنَّه يرى - كما يقول كاتب سيرته «هندرون» - أنه لا ينبغي لرجل أنْ يُمدح أو يُذمَّ على عمل يؤديه ، لأنَّنا جميعاً مسخرون في أيدي الظروف والأقدار والبيئة والتعليم ، والعادات المكتسبة ، والوراثات التي تطبع الناس بطابع لا ينفك عنهم أبداً .

ويحتمل أن يكون «النوكولن» مصيباً ، فلو أننا ورثنا الخصائص الجثمانية والذهنية والعاطفية التي ورثها أعداؤنا لكننا على الأرجح قد أصبحنا على غرارهم ، وما اختلفنا عنهم .

وقد اعتاد «كلارنس وارد» أن يقول : بدلاً من أن نهُنّ أعداءنا ينبغي أن نشفق عليهم ، وأنَّ نحمد الله عزَّ وجلَّ على أنه لم يخلقنا مثلهم .

وبدلاً من أن نصب الاتهامات وألوان النعمة على رؤوس أعدائنا يحسن أن نلتمس لهم الرحمة والمعونة والعفو ) .



هذه الكلمات التي نضجت بها قلوب كبيرة تذكرنا بوقف رجل من أئمة الفقه الإسلامي ، حاولت الحكومة في عهده أن تتحمله على اعتناق رأي ديني لها فأبى الرجل أن يعتنق هذا الخطأ ، ورأى الحكومة أن تستعين على إقناعه بالجلد والتنكيل والسجن الطويل ، ومع ذلك فقد صبر الرجل على بلائه ورفض أن يبيع عقيدته في أهواء المبدعين ، ورغبات الجبارين .

فلما يئسوا منه وظنوا أنَّ أجله قد اقترب لهول ما نزل به رُدُوه إلى بيته .

قال ابن كثير : وجاء الأطباء إلى الإمام المعذب ، فقطعوا لحمًا ميتاً من جسده وجعلوا يداوونه حتى عاد إليه روحه الذي كاد يزهق ، فلما شفاه الله بقى مدة وإبهامه يؤذيهما البرد .

أتدرى ما كان موقفه بعد ؟ .

جعل كلَّ من آذاه في حلٍّ إلا أهل البدع ، وكان يتلو قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَيَعْقُفُوا وَلَيُصْنِفُوا أَلَا تَجْنُونَ أَنْ يَغْرِيَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾<sup>(١)</sup>

يقول : ماذا ينفعك أنْ يُعذَّبَ أخوك المسلم بسببك ، وقد قال الله :

﴿ فَمَنْ عَفَّا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾<sup>(٢)</sup>

وينادي المنادى يوم القيمة «ليقُمْ منْ أَجْرِهِ عَلَى اللَّهِ ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مِنْ عَفَافِهِ» .

وروى عن رسول الله ﷺ : «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ نَادَى مَنَادٍ : أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ قَالَ فِي قَوْمٍ نَاسٌ - وَهُمْ يَسِيرُ - فَيَنْتَلِقُونَ سَرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ .

فَتَتَلَاقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا فَضْلُكُمْ؟ ، فَيَقُولُونَ : كَنَا إِذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا ، وَإِذَا أُسْيَءَ إِلَيْنَا حَمَلْنَا . فَيَقُولُ لَهُمْ أَدْخُلُوهُمُ الْجَنَّةَ فَنِعْمٌ أَجْرُ الْعَالَمِينَ» .

تلك خلال السماحة والتجاوز كما يثبتتها التاريخ لإله الأكرمين في المشارق والمغارب .

وما أقلَّهُمْ عَلَى كثرةِ النَّاسِ .



(١) النور : ٤٠ (٢) الشورى : ٢٢

## لا تنتظِر الشُّكْرَ من أحدٍ

مع أنَّ نعمَ الله تلاحقنا في كلَّ نفسٍ يملأ الصدر بالهواء ، وكلَّ خفقة تدفع الدماء في العروق ؛ فنحن قلماً نحسُّ ذلك الفضل الغامر ، أو نقدِّر صاحبه ذا الجلال والإكرام !! .  
إننا نخال كلَّ شيء مهيئاً من تلقاء نفسه لخدمتنا وأنَّ على عناصر الوجود تلبية إشارتنا وإجابة رغبتنا لا لعنة واضحة سوى أننا نريد ، وعلى الكون كله التنفيذ !! .  
بالضبط كما يعيش الأطفال المدلّلون !! .

وقد نشعر ببعض الجميل لظروف مواتية ، أو ببعض الجمال في بيئة مريحة ممتعة ، وعلى ما في هذا الشعور من نقص - لانقطاعه عن الله وسوء إدراكنا لنعماه - فكم تظن من الناس يملكون هذا الشعور ؟ قلة لا تذكر !! .

أما جمهور البشر فذاهل عمماً يكتنفه من آلاء وإنَّه يتقلب في خيرات الله غير واعٍ لكثرتها ، ولا شاكِرٌ لمرسلها .

وقد أراد الله عزَّ وجلَّ أن ينبه الناس إلى ما خولهم من برّه ، وإلى ما يحيط بهم من آثار قدرته ورحمته فقال - كأنه يعرِّف نفسه خلقه - :

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَى لِتَسْكُنُوا  
فِيهِ وَالنَّهَا مُبِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّاهُو فَإِنَّ  
تُوْفِكُونَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَبِّيَتِ اللَّهُ يَعْلَمُ دُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالْأَسْمَاءَ بِنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَسْبِّحُوا لِلَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾﴾ (١)

(١) غافر : ٦١ - ٦٤ .

فهل بعد هذا البيان والتنبيه أدينا حق الله؟! .

يظهر أن شكر المنعم واجب ثقيل ، وأننا على قدر ما نحتاج ونأخذ ، على قدر ما نستخف ونسى .

بل إن كثيراً من الناس يتناول أنعم الله وكأنه يسترد حقاً مسلوباً منه ، أو ملكاً خاصاً به ، ومن ثم فهو لا يرى لأحد فضلاً عليه .

وبهذا التفكير الكنود لا يشعر صنيع ولا يجيء شكر .

وتلك هي العلة في أنك قد تسلف أيادي بيضاء لبعض الناس وتبذل جهداً محموداً في سوقها ، حتى إذا استقررت في أيديهم نظروا إليك جامدين ، أو ودعوك بكلمات باردة ، ثم ولوا عنك مدبرين !! .

هل يغضبك هذا المسلك؟ . هكذا صنعوا قبلًا مع ربكم وربهم فقال :

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي أَشْكُورُ﴾<sup>(١)</sup>

ويضرب لنا «ديل كارنيجي» عدة أمثلة لشيوع الجحود بين الناس فيقول : (لو أنك أنقذت حياة رجل أتراك تنتظر منه الشكر؟ . قد تفعل . بيده أن «صمويل لايبيتز» - الذي اشتغل محاميًّا ثم قاضياً - أنقذ ثمانية وسبعين رجلاً من الإعدام بالكرسي الكهربائي ، فكم من هؤلاء تقدم له بالشكر؟ . لا أحد !!) .

ولقد شفى المسيح عليه السلام عشرة من المفلوجين في يوم واحد ، فكم من أولئك المعافين سعى إلى رسول الله ليشكروه؟ . واحد فقط !! .

أما الآخرون فقد انصرفوا دون أن ينبسو بكلمة .

ويستطرد «كارنيجي» قائلاً : (وحده ثالثي «تشارلس شواب» أنه أنقذ مرة صرافاً خسر في مضاربات «البورصة» أموالاً تخص «البنك» ، فدفع له المال المفقود كلها ، وبذلك نجاه من السجن ، ومن فقد شرفه وعمله ، فهل شكره الصراف؟ . نعم شكره يومئذ بكلمة ، ثم ما لبث أن راح يحمل عليه ويكييل له السباب ألواناً !!) .

ثم يقول «كارنيجي» وكأنه يشرح قول الله سبحانه :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) العادات : ٦ .

(٢) سأ : ١٣ .

(إنَّ الْجَحْودَ فِطْرَةً ، إِنَّهُ يَنْبَتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَالْأَعْشَابِ الْفَطْرِيَّةِ - التَّيْ تَخْرُجُ دُونَ أَنْ يَزْرَعَهَا أَحَدٌ - أَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ كَالْزَهْرَةِ التَّيْ لَا يُنْبَتُهَا إِلَّا الرَّىُّ وَحْسَنُ التَّعْهِيدُ . . .) .

ويقول : (إنَّ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ مَا بَرَحَتْ هِيَ الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْأَرْجُحُ أَنَّهَا لَنْ تَغْيِيرَ أَبْدَ الْأَبْدِينِ !!) .

وإِذْنَ فَلَنْقِبْلَهَا عَلَى عِلَّاتِهَا .

لَمَّا نَتَحْسَرُ عَلَى ضَيْعَ الْمَنْ وَتَفَشَّى الْجَحْودُ؟ إِنَّهُ لِأَمْرِ طَبِيعِي أَنْ يَنْسَى النَّاسُ وَاجْبُ الشُّكْرُ ، فَإِذَا نَحْنُ انتَظَرْنَا مِنْهُمْ أَدَاءَ هَذَا الْوَاجِبِ فَنَحْنُ خُلُقَاءُ بِأَنْ نَجْرُّ عَلَى أَنْفُسِنَا مَتَاعِبَ هِيَ فِي غِنَىٰ عَنْهَا .

وَهَذَا كَلَامٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَعْقِيبٍ وَإِيْضَاحٍ ، فَإِنَّ إِقْفَارَ النُّفُوسِ مِنْ نَصْرَاتِ الشُّكْرِ ، وَانْتَشَارَ الْجَفَافِ أَوِ الْأَشْوَاكِ بِهَا فَحُسْبَ منْكَرِ قَبِيحٍ ، وَيَنْبَغِي أَنْ تَنَزَّعَ النَّاسُ عَنْهُ ، وَأَنْ نَعْلَمُهُمْ الْحَفَاوَةَ بِمَا يُسْدِدُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَتَقْدِيرُ مَا فِيهِ مِنْ بُرُّ وَمَرْحَمَةٍ وَإِحْسَانٍ .

وَالْإِسْلَامُ يَوجَّهُ الْمُعْطَى إِلَى ذَكْرِ النِّعْمَةِ التَّيْ سَيَقْتَلُ لَهُ ، وَإِلَى الشَّنَاءِ عَلَى مُرْسَلِهَا وَإِلَى مَكَافَأَتِهِ عَلَيْهَا بِأَيَّةٍ وَسِيلَةٍ . إِنَّ لَمْ يَجِدْ الْجَزَاءَ الْمَادِيَّ الْمَعَادِلَ لِمَا نَالَ فَلِيُشَكِّرْ بِلْسَانَ الْحَالِ وَالْمَقَالِ ، وَلِيَدْعُ اللَّهَ أَنْ يُثِيبَ مِنْ عَنْدِهِ الْثَوَابَ الَّذِي يُشَبِّعُ عَوَاطِفَ الشُّكْرِ فِي أَفْئِدَتِنَا ، وَيَحْقِقَ مَا قَصَرَّتْ عَنْهُ أَيْدِينَا .

قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ أَصْطَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَجَازَوْهُ ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ مَجَازَاتِهِ فَادْعُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ شَكَرْتُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ يُحِبُّ الشَاكِرِينَ» (١) .

وقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ أَعْطَى عَطَاءً فَوُجِدَ فَلِيَجْزِيَ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلِيُشْنِ .

فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ» (٢) .

وقالَ : «إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسَ لِلَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى ، أَشْكَرَهُمْ لِلنَّاسِ» . وَفِي رَوَايَةَ :

«لَا يُشَكِّرُ اللَّهُ مَنْ لَمْ يُشَكِّرْ النَّاسَ» (٣) .

وقالَ : «مَنْ لَمْ يُشَكِّرْ الْقَلِيلَ لَمْ يُشَكِّرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يُشَكِّرْ النَّاسَ لَمْ يُشَكِّرْ اللَّهَ ، وَالْتَّحْدِثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شَكَرَ ، وَتَرَكَهَا كَفَرَ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ . وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ» (٤) .

(٢) التَّرْمِذِيُّ .

(١) الطَّبَرَانِيُّ .

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ .

(٣) أَحْمَدٌ .

وذكر ما في الجماعة من رحمة موصول بما قبله ، فإن التقاطع يرجع غالباً إلى كنود النعم وجحد الإحسان ، ولا يشُدُّ أواصر الجماعات لحفظ المعروف وإكرام أهله ، ولا يفصِّم عرَى الائتلاف ويعرِّض لعذاب الفرقَة إلا غمط الحقوق وإهمال ذويها والتنكر لما أسلَّوه من جميل .

إلا أن الإسلام مع توكيده لواجب الشكر وتحقيقه لشأن الجاحدين يطلب من أولئك الخير أن يجعلوا عملهم خالصاً لوجه الله وأن يبعدوا عن مقاصدهم كل دخل ، فإن غشَّ النية يفسد العمل ويحيط الأجر ، والمعروف الذي يُقبل ويُحترم هو الذي يبذل صاحبه بداعف الخير الحض لا يطلب عليه ثناءً بشر ولا شكره ، إنما يطيع به أمر الله ويطلب رضوانه ومغفرته .

والإسلام بما يفرضه على العمل من إخلاص يريد أن يحرر القلوب من قيود الأغراض وأن يعلقها بالكمال المطلق ، فهني تفعل الخير عن بواعث نقية ، أى عن حبٍ مكين له ورغبة قوية في تحقيقه دون نظر إلى مدايا الناس أو تطلع إلى منزلة ما بينهم .

وهذا السموُّ المنزه هو دعامة الإحسان الحق ، وهو المثل الأعلى لكل خلق كريم ، رُوى أن رجلاً تطاول على عبد الله بن عباس ، فقال له : «أتشتمنى وفيَّ ثلاَث : إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحجه ولعلَّى لا أقضى إليه أبداً !! . وأسمع بالغيث يصيب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به وليس لى به سائبة ولا راعية !! .

وأتى على الآية من كتاب الله فأؤدُّ لو أنَّ المسلمين كلَّهم يعلمون منها مثل ما أعلم» .

ما هذا ؟ .. هذا رجل يحب شيوخ الحق والخير والعلم ، ويفرح من أعماق قلبه لو استمتع الناس بما فيها من بركات ، ولو لم يمسه من ذلك حظ كبير أو صغير .

إن هذا التعلق بالكمال المطلق والإحسان المبرأ أهم ما يطلبه الإسلام منك ، حين تُسدى إلى أحدٍ معروفاً قدْم جميلك عشقاً لصنائع المعروف وابتغاء ما لدى الله من مشوبة .

ولا تعوّل على حمْد أحد أو تقديره ، كُنْ كما وصف الله الأبرار من عباده :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حِبَّةٍ مُّسْكِيَّنَا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾  
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (١) ﴿

وليس المقصود أنَّهم يقولون ذلك بألسنتهم ، فذاك مستبعد لأنَّه قد يُؤذى أصحاب الحاجات ، وإنما ذلك ترجمة لما في قلوبهم من نيات صافية ، ومشاعر نظيفة .  
هل ابتغاء وجه الله عسير على الناس ؟ .

المؤسف أنَّ أغلب البشر تهيجهم للعمل بواعث مشوبة ، ويطلبون به غaiيات شتى ، وقليل جدًا أولئك الذين يتحرّكون بدافع نقى ، ويرتفعون بمقاصدهم عن مأرب هذه الأرض انظر إلى قول الشاعر :

لَمَّا رأيْتُ نِسَاءَنَا  
يَفْحَصْنَ بِالْمَعَزَاءِ شَدَّاً  
وَبَدَّتْ «لَمِيسُ» كَأَنَّهَا  
بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى  
وَبَدَّتْ مَحَاسِنُهَا التَّى  
تُخْفِى وَكَانَ الْأَمْرُ جِدَّاً  
نَازَلتُ كَبِشَهُمْ وَلَمْ  
لِمَنْ هَذَا الإِقْدَامُ؟ لِوَجْهِ «لَمِيسُ» الْحَسَنَاءِ !! .  
وَمَا سُرُّ هَذِهِ الشَّجَاعَةِ؟ نَيْلُ إعْجَابِهَا ، وَطَلَبُ الْمَنْزَلَةِ عَنْهَا وَعِنْدَ مَثِيلَاتِهَا ..  
وَهَذِهِ طَبِيعَةُ الْأَلْفِ مِنَ النَّاسِ !! .

ويذكر شاعر آخر أنه صنع معروفاً أنقذ به من الهلاك أحد الرجال الذين لا يحبُّهم ، وأنَّه كان يستطيع تركه وحده ليلقى حتفه ، لو لا أنه خشي أحاديث الناس عنه في مجالسهم .

ذَكَرْتُ تَعْلَةَ الْفَتِيَانِ يَوْمًا  
وَإِسْنَادَ الْمَلَامَةَ لِلْمُلَمِّمِ  
وَالْبَعْدُ عَنِ الدَّنِيَّةِ اتقاءً ذَمَّ النَّاسِ لَيْسَ خَيْرًا مَحْضًا ، وَتَكَشَّفُ حَقْيَقَةُ هَذَا الْخَيْرِ  
الْمَغْشُوشُ عِنْدَ أَمْنِ النَّاسِ ، مَاذَا يَصْنَعُ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَخْلُو بِنَفْسِهِ ، وَيَوْقَنُ أَنَّ  
النَّاسَ لَنْ يَطْلُعُوا عَلَى مَا يَفْعَلُ أَوْ يَتَرَكُ؟ .

(١) الإنسان : ٩ - ٨ .

إِنَّ عُشَاقَ الشَّنَاءِ وَطَلَابَ الظُّهُورِ لَا يَبَالُونَ عِنْدَئِذٍ أَنْ يَرْتَكِبُوا العَظَائِمِ ..

فلا جَرَمَ أَنْ يَشْتَدَّ الإِسْلَامُ فِي تَحْيِصِ الْقُلُوبِ ، وَإِخْلَاصِ السَّرَّائِرِ ، وَاشْتِرَاطِ وِجْهِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ يَقُومُ النَّاسُ بِهِ ، وَتَجْرِيدِ الْأَعْمَالِ مِنْ كُلِّ مَلَبْسَةٍ تَخْدُشُ النِّيَّةَ ، وَفِي الْحَدِيثِ «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : (أَنَا خَيْرٌ شَرِيكٌ) ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا فَهُوَ لشَرِيكِي) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبِلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ .

وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِلرَّحْمَنِ ، فَإِنَّهَا لِلرَّحْمَنِ وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ .

وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ لِلَّهِ وَلِوْجُوهِكُمْ ، فَإِنَّهَا لِوْجُوهِكُمْ ، وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ»<sup>(١)</sup> .

وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ فَأَنْتَ إِذَا قُلْتَ : (أَفْعَلَ هَذَا اللَّهُ وَمَنْ أَجْلَ خَاطِرَ فَلَانَ) ، فَالْأَغْلَبُ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْخَاطِرِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ جَوَارٌ هَذَا الْخَاطِرُ نَصِيبٌ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مَا فَإِنَّهُ يَرْدِهُ لَأَنَّهُ جَلَ شَأْنَهُ لَا يَقْبِلُ الْعَمَلَ إِلَّا خَالِصًا لَهُ وَحْدَهُ .

وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَوَجَّهَ بِحُرْكَاتِ قُلُوبِنَا وَأَيْدِينَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا نَنْتَظِرُ شَنَاءً وَلَا إِعْجَابًا ، وَلَا بُرُوزًا وَلَا ظُهُورًا وَلَا شُكُورًا ..

### ٣٢٣٣٣٣٣٣

وَإِنَّنِي بَعْدَ مَا بَلَوْتُ النَّاسَ أَجَدَنِي مُضطَرًّا لِأَنْ أَقُولُ : مَحْضٌ عَمَلُكَ لِلَّهِ وَأَنْشُدُ ثَوَابَهُ وَحْدَهُ ، وَلَا تَنْتَظِرُ أَنْ يَشْكُرَكَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ تَوَقَّعُ أَنْ يَضِيقَ النَّاسُ بِكَ !! وَأَنْ يَحْقِدُوكَ عَلَيْكَ !! وَأَنْ يَبْتَغُوكَ الْرِّبِّيْبَةَ وَيَنْسُوكَ الْفَضْلَ !! وَأَنْ يَكُونُوكَ ، كَمَا قَالَ الشاعر :

إِنْ يَسْمَعُوا رِبِّيَّ طَارُوا بِهَا فَرَحًا  
عَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دُفِنُوا  
جَهَلًا عَلَيْنَا ، وَجَبَنًا عَنْ عَدُوْهُمْ لَبَثَتِ الْخَلْتَانَ : الْجَهَلُ ، وَالْجَبَنُ

وَإِنَّهُ لِيَخْيِلُ إِلَيَّ أَنَّ الْعِدَاوَةَ أَزْلِيَّةٌ بَيْنَ الْأَمْجَادِ وَالْأَوْغَادِ .  
بَيْنَ أَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ وَالْمَحْرُومِينَ مِنْهَا .  
بَيْنَ فَاعِلِيِّ الْخَيْرِ وَالْعَاطِلِينَ عَنْهُ .

(١) البهقى .

وأخيراً بين من نحسن إليهم ، وبين من يستكثرون علينا أن نكون في مكانٍ  
يجيئهم منه إحساناً ، ويدرُّ عليهم خيراً ..

والجريمة التي ارتكبناها والتي جعلت قلوب هؤلاء تنحرف عنَّا لأننا أسفناهم يوم  
احتاجوا ، وأننا لماً قدمنا على ذلك لم ندخل به .

وكما كانت جريمة ابن آدم الصالح أن الله قبل عمله ولم يقبل عمل أخيه ،  
فذلك كانت جريمة أبي بكر أنه أنفق على قريبه «مسطح» فكان جزاؤه أنَّ «مسطحاً»  
ما إن سمع الإشاعات الكاذبة تدور حول «عائشة» حتى أسرع يعين على ولِّي نعمته  
ويروج مع الأفakin قاله السوء ، بدل أن يرد جميل قريبه بالدفاع عن عرضه !! .

### ﴿ۚۚۚۚۚ﴾

إنَّ في طباع نفر من الناس كُنوداً يعزُّ على الدواء ، ولستُ أدرى أكثرُ  
الناس معلولون بهذا الداء ، أم تلك قلة عكَّرت صفو الحياة ، كما يعكر عنوبة الماء  
القليلُ من الملح .

أيَّاً ما كان الأمر فإنَّ الشكَاة من هذا البلاء قديمة جديدة .

كان مالك بن أنس يشكو على عهده قلة الإنفاق ، وهو عهد التابعين .

وفي هذا الطُّغْرائِي بعد مئات السنين يقول :

غاض الوفاء ، وفاض الغدر ، واتسعت مسافة الخُلُف بين القول والعمل  
وإنَّى لأتلفت يمنةً ويسرةً وأتفرس في الجزء الذي لقيته من الناس ، فأحسُّ غصَّةً .  
وأريد في إيجاز أن أكشف بعض الجوانب التي يجب إعلانها فيما أصدرُ للناس من  
كتب ، حتى يبدو أمرى على حقيقته .

من ثماني عشرة سنة وأنا أكتب للإسلام وأخطب ، والجماعة التي عشتُ فيها  
حقبة من الدهر تعلم ذلك عنى . ولم تكن خطابتي بسطة لسان يهدر بالقول ، ولم  
تكن كتاباتي سطوة قلم يصلو ويحول ، بل كان ذلك كله ذُوبَ عاطفة تضطرم  
بالإخلاص ، وفكري يستكشف صميم الحق ويبارد إلى إعلانه .

وقد انفردت بأسلوب في شرح تعاليم الإسلام ، ومهاجمة الفساد الاقتصادي  
والاجتماعي السياسي - باسمه - لم يشركني فيه أحدٌ أبداً طويلاً .

ثم نثبت فتن عمياه انتهت بفصلى من الجماعة ، وهو فصل أراه أنا نتيجة ضغائن شخصية ، ويراه غيرى تصرفاً منطقياً لا شئ فيه ، ليكن ، إنَّ المرء قد ينذر عن الصواب فى تصوُّره لشئونه الخاصة من يدرى ؟ . ربما كان خصوصى معدورين فى الإساءة إلىَّ ، أعنى فى التخلص منِّي ؛ فلأرضَ بهذا الذى حدث ، ولأغمضِ الطُّرف عما أتوهَّمه فيه من غدر وجُرْ .

يَبْدَأْ هناك محاولة للنَّيل منِّي ، بل للقضاء علىَّ يجب أنْ أرُدَّها بقوَّة ، وأنْ أفضح ما يكتنفها من دناءة . وهى محاولة الإغارة علىَّ تراثى الأدبى ، ووضع اليد الظالمة عليه فى صفقة لا أعرف لها مثيلاً فى تاريخ الأداب والدعوات .

ليَكُرْهنى من شاء . أمَّا أنْ تُختطف كتاباتى ويوضع عليها اسمُ غير اسمى ، ثم يتواصَى الحاقدون بالإرجاف علىَّ وإظهارى للملأ كأنى أنا الناقل عن غيرى ؛ فهذه هى الجريمة التى تُطلق عَقِيرتى بالصياح ، ولا أقبل فيها هدنة !! .

عجباً لا ينتهى من عجب وفتوناً ليس يلى من فنون !!



لكن لماذا مضت بي سورة الغضب على هذا النحو ؟ إنَّ هذا الموضوع ينبغى أن يُطوى وأن يُنسى .

وقلت لنفسى : ألا تتعلَّمين الإخلاص لله من مسلك الإمام الشافعى الذى ملأ طباق الأرض علمًا ثم قال : وددتُ لو نُشر هذا العلم دون أنْ يُعرف صاحبه ؟ .

فلافترضْ أنَّ سحب النسيان غطت علىَّ فلم يُعرف أحد من الخلق أنى سبقت إلىَّ كذا ، أو بَرَزْتُ فى كذا ، إنَّ ذلك لا يضرِّ أمراً يقصد وجه الله فيما يكتب ، بل ربما كان ذلك أعونَ على تصحيح نيته وتنقية وجهته .

وقالت لي نفسى : لكنَّ هؤلاء بعد أن تعاونوا على طردك من مكانك ، وأرادوا إظهارك فى ثوب الساطى علىَّ غيرك ، فكيف يسمعون خطبك ويقرأون كتبك ثم ينتحلونها لأنفسهم ، و يجعلونك فى أعين الناس الناقل المقلد ؟ ! .

وقلت لنفسى : ما تزالين تتعلَّقين بالخلق ، وتذهلين عن الخالق .

وأخيراً .. قرَرْتُ أنْ أطوى هذه الصفحة ، سائلاً ربِّي أنْ يغفر لى ، ولمْ جار علىَّ ، أو استهان بي .



# هل تستبدل مليون جنيه بما تملك؟

ما أكثر النعم التي بين أيدينا وإن غفلنا عنها !! .

أقليل أن يخرج الإنسان من بيته وهو يهتز يديه كلتיהם ، ويمشي على الأرض بخطوات ثابتة ، ويملا صدره بالهواء في أنفاس رتيبة عميقه ، ويمد بصره إلى آفاق الكون ، فتنفتح عيناه على الأشعة المناسبة ، وتلتقط أذناه ما يموج به العالم من حراك الحياة والأحياء ? .

إن هذه العافية التي تمر في سمعتها وتستمتع بحريتها ليست شيئاً قليلاً .

وإذا كنت في ذهول عمماً أوتيت من صحة في بدنك ، وسلامة في أعضائك ، واكتمال في حواسك ، فاصبح على عجل .. وذق طعم الحياة الموفورة التي أتيحت لك ، وأحمد الله - ولـى أمرك ولـى نعمتك - على هذا الخير الكبير الذي حبـاك إياه ..

ألا تعلم أن هناك خلقاً ابتلوا بفقد هذه النعم ، وليس يعلم إلا الله مدى ما يحسونه من ألم ؟ ..

منهم من حبس في جلده ، مما يستطع حرکة بعد أن قيده المرض ومنهم من يستجدى الهواء الواسع نفسها يحيى به صدره العليل ، مما يعطيه الهواء إلا زفرا وتخرج شاحبة بالدم !! .

ومنهم من عاش منقوص الأطراف أو المشاعر !! .

ومنهم من يتلوي من أكل لقمة لأن أجهزته الهاضمة معطوبة . ومنهم ، ومنهم ..

إذا كنت معاـفـى من هذه الأسقام كلـها فهل تظن القدر زـوـدـك بشـروـة تـافـهـةـ؟

أو منحك ما لا تحاسب عليه ؟ كلا ، كلا .

إن الله يكلفك بقدر ما يعطيك .

ومن الخطأ أن تحسب رأس مالك هو ما اجتمع لديك من ذهب وفضة !! . إن رأس مالك الأصيل جملة الموهـبـ التي سـلـحـكـ الـقـدـرـ بها ، من ذكاء ، وقدرة ، وحرية ، وفي طليعة الموهـبـ التي تـخـصـىـ عليكـ وـتـعـتـبـرـ منـ العـنـاـصـرـ الأـصـيـلـةـ فيـ ثـرـوـتـكـ ماـ أـنـعـمـ

الله به عليك من صحة سابعة ، وعافية تتألق بين رأسك وقدمك ، وتتألق بها في  
الحياة كيف تشاء .

والغريب أنَّ أكثر الناس يزدرون هذه الثروة التي يمتلكونها ، لا يشركهم أحد فيها ،  
أو يزاحمهم عليها !! .

وهذا الا زدراء جُحود يستحق التنديد والمؤاخذة ، قال «دييل كارنيجي» : (أتراكَ  
تبِيعُ عينيك في مقابل مليون دولار ؟ . كم من الشمن تظنه يكفيك في مقابل ساقيك  
أو سمعك ، أو أولادك ؟ أو أسرتك ؟ .

احسب ثروتك من هذه الموهب الغالية ، ثم اجمع أجزاءها وسوف ترى أنها تقدر  
بالذهب الذي جمعه آل «روكفلر» وأل «فورد» بيد أن البشر لا يقدرون هذا كله ! إننا  
كما قال فيما «شوبنهاور» : ما أقلَّ تفكيرنا فيما لدينا وما أكثر تفكيرنا فيما ينقصنا) .

ويُروى أنَّ «الرشيد» قال لابن السمَّاك : عظْنِي - وقد أتَى بماء ليشربه - فقال :  
«يا أمير المؤمنين ، لو حُبست عنك هذه الشَّرْبة أكنت تفديها بملكك؟

قال : نعم ؟ قال : فلو حبس عنك خروجُها . أكنت تفديها بملكك؟ . قال : نعم .

قال : فما خَيْرٌ فِي مُلْكٍ لَا يساوى شربة ولا بَوْلة؟! .

وإذا كان هذا الواقع يريده أن يهُون ملك الخليفة فيجسمَ أمام عينيه نعمة مبذولة ،  
ويريه أنها أرجح مما يعتز به من دُولَة وصَوْلة ، فنحن ننظر إلى هذه العظة من وجهها  
الآخر ، لنرى جميعاً أنا وأنت أنَّ ما يفتديه الملوك بتبيغانهم نحصل عليه دون انتباه ،  
ونناله من غير جهد !! .

فهل ذكر هذا الفضل ؟ وهل نقدر هذه النعمة ؟ وهل نشكر عليها ؟ .

أغلبنا يألف ما يجده من صحة ، فلا يعرف روعته وجلاله إلا إذا تعكر عليه  
أو فقده .. وطول الإلَف قد يتأنَّى بنا إلى الاستهانة ، لكن الله لا يُلغى حقيقة ما  
لأن عباده يغضُّون منها ، إنَّه يحاسبهم بها على مقدارها كله .

قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ، إنَّ الرجل ليجُىء يوم القيمة  
بعمل صالح لو وضع على جبل لأنقله ، فتقوم النعمة من نعم الله ، فتکاد تستنفذ  
ذلك كله ، لَوْلا مَا يتفضل الله من رحمته» (١) .

(١) المنذرى .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّعْمٍ مُطَالِبُونَ بِمُزِيدٍ مِنَ الْجَهَدِ وَالنِّشَاطِ كَفَاءَةً مَا أُوتُوا مِنْ خَيْرٍ ، وَمُنْحُوا مِنْ بَرٍ .

۳۳۳۳

والإسلام يرى الحياة نعمة ، ويطلب إلينا أن نشكر الله على ما وهبنا من روح وأحساس ، وسخر لنا من ليل ونهار ، ومكّن لنا بين الأرض والسماء . إنَّ هذه الحياة الممتازة الراقية تكرييم خاص ينبغي أن نتعتزَّ به وأن ننصر حق الله فيه :

كَيْفَ نَكُفِّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَنَاكُمْ  
ثُمَّ إِذَا مُتُمْ يُحْيِي كُوْثَمَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

والله قد منحنا الحواسَ المعروفة لنجاوب مع الوجود ، ونتعرف ما فيه ، ونتذوق  
بكلاتنا الماديَّة والأدبيَّة جماله وقواه ، حتى إذا غمرنا هذا البهاء المفاض من كل ناحية  
اهتزَّ مشاعرنا شكرًا للذى أحياناً وكرمنا :

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّتِهِنَّمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئَدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشَكَّرُونَ ﴿٢﴾

إنَّ المرء قد يغفل عن النطاق الواسع الذي يجتني منه ما بين يديه من خيرات ، ولو دقق النظر لرأى المائدة التي أمامه تحفل بألوان شتى من أقطار العالم ، ربما كان يأكل قمحاً من روسيا ، ولحماً من إفريقيا ، وفاكهه من أوروبا ، ويشرب شاياً من آسيا ، ويتناول بعض المواد الأخرى من أمريكا .

ولو رجع مرة أخرى لرأى الأرض والسماء كلتيهما قد اجتمعتا على خدمته ،  
وتيسير حياته ، فيفهم قول الله عزّ وجلّ :

يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَارْبَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ لَمْ يَعْلَمُوكُمْ وَتَسْتَقُونَ لِهِمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشَّاكَا  
وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَمَّا شِئَ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْثَّمَرَاتِ  
رِزْقًا لَّكُمْ ﴿٢﴾

(١) البقرة : ٢٨ . (٢) النحل : ٧٨ . (٣) البقرة : ٢١ - ٢٢ .

والحق أنَّ مافي الحياة من منغصات ومتاعب يجيء من فوضى الناس وتزقُّ غرائزهم  
وطيش مسالكهم أكثر مما يجيء من طبيعة الحياة نفسها !! .

هُبْ رجلاً ترك لأولاده الثلاثة داراً تسع ثلاثة لوفرة مرافقتها ورحابة بآياتها ،  
فاختصم الأولاد في هذه الدار ، وطرد بعضهم بعضاً ، أو سجن بعضهم بعضاً ، هل  
يكون ذلك عيباً في الدار ، أو تقصيراً من ربِّهما ؟ .

أم هو عيب الإخوة المشاركين والشركاء المظالمين ؟ .

كذلك الحياة الدنيا ، والله ما أفسدها ، وكشف ضياءها ، وشاب نعماها ، إلا ركض  
البشر في جوانبها ركضاً مجنوناً ، لا يخضع لشرع الله ، ولا يستقيم مع نصحه ونهاه .

لعمُرُك ما ضاقت بلادُ أهْلِها      ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيق

ولو استرشدنا بمنارات الله التي أنزل علينا ، وأدركنا الخير الواسع الذي أتاح لنا :  
لكان لنا وللحياة شأن آخر .

غير أنَّ أكثرنا يحتقر ثروة الحياة والعافية التي يملكها ، ويعجز تبعاً لذلك عن  
الانتفاع بها ، ثم يبكي أمانىٰ هينة لم يحصل عليها ، ولو حصل عليها ل كانت بعض  
الواقع الثمين الذي يقدّره حق قدره !! .

حکى «ديل كارنيجي» قصة رجل أرهقه الكدح الفاشل ، واضطربت نفسه تحت  
وطأة الأزمات التي عانها ؛ إلا أنه وعى من صور الحياة درساً أخذ بيده إلى النهاية  
المشرقة ، ولنسمع إليه يقول : ( ... كنت خلال العامين السابقين لهذا الحادث أديرُ  
محلَّ للبقالة في مدينة «وب» ، وقد باعت تجارتى بالكساد ، وفقدت فيها كل ما  
ادخرته من مال ، بل عمدت فوق ذلك إلى الاستدانة ، حتى لقد استغرق سداد  
ديوني سبع سنين ، وكانت أغلقت محل البقالة قبل ذلك الحادث بأسبوع ، وفي يوم  
الحادث اتجهت إلى أحد المصارف لأفترض شيئاً من المال يعيننى على الذهاب إلى  
مدينة «كانساس» للبحث عن عمل فيها .

وبينما أنا أسير في الطريق ذاهلاً شارد اللب ، قد خامرني اليأس وأوشك الإيمان  
يفارقني ، إذ رأيت رجلاً مبتور الساقين يريد أن يعبر الطريق .. كان يجلس على  
عارضه خشبية مزودة بعجلات صغيرة ، ويستعين على تسيير هذه العارضة بيديه  
اللتين أمسك بكلتيهما قطعتين من الخشب يستند بهما إلى أرض الشارع «ليدفع

عربته» هذه إلى الأمام .. وقد التقى به بعد أن عبر الشارع ثم بعد أن أخذ يحاول رفع خشنته التي يجلس عليها ليعلق «الطوار» فلما أصبح فوقه أدار «عربته» الصغيرة ليمضى في سبيله ، فاللتقت عيناه بعينى وابتسم ابتسامة عريضة مشرقة . ثم قال : سعدت صباحاً يا سيدي ، إنه يوم جميل ، أليس كذلك ؟ .

ووقفتُ مكانى أتعلّم إلى هذا الرجل ، وأدركتُ كم أنا واسع الغنى .  
إنَّ لِى ساقين ، وأستطيع أنْ أمشي !! .

وخرجتُ ما كنتُ أستشعره من الرثاء لنفسى ، وقلتُ : إذا كان هذا الرجل يستطيع أن يكون سعيداً مرحًا مع فقد ساقيه ، فأولى بي أنْ تستجمع هذه الصفات ولدى ساقان ، وكنتُ قد عوّلت على أنْ أفترض من المصرف مائة دولار ، ولكنني إذ ذاك واتتني الشجاعة فطلبتُ مائتين ، وكانت قد عوّلت على أنْ أقول للمصرف : إنني ذاهب إلى «كانساس» لأحاول الحصول على عمل ، لكنني بعد هذا قلت للمصرف : إنني ذاهب للحصول على عمل ، ولقد حصلت على القرض وحصلتُ على العمل ) .



ما أغلٰى العافية التي تسرى في أوصالنا .  
وما أثمن القوى التي زوَّدنا اللهُ بها .

وما أشهى الثمار التي نقطُها لو أحسنا استغلالها ولم نهدر قيمتها .

إنَّ الإسلام يريد أن يلقي أنظارنا بقوة إلى نفاسة النعم التي تكتنفنا ، وإلى ضرورة الإفادة منها . وإليك هذه القصة التي أراد بها النبي ﷺ تبيّنها إلى جلال النعم التي يستمتع أغلبنا بها ولا يلتفت إليها :

عن جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : «خرج من عندي خليلي جبريل آنفاً فقال : يا محمد .. والذى بعثك بالحق إنَّ لله عبداً من عباده ، عَبَدَ اللَّهَ خَمْسَمَائَةَ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ ، عَرَضَهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذَرَاعاً

فِي ثَلَاثَيْنِ ذِرَاعًا ، وَالبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ أَلْافَ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ . وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنَاً عَذْبَةً بِعِرْضِ الْإِصْبَعِ تَفِيضُ بِمَاءِ عَذْبٍ ، فَيَسْتَنْقُعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ ، وَشَجَرَةٌ رُّمَانٌ تَخْرُجُ لَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رَمَانَةً .. يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ وَأَخْذَ تِلْكَ الرَّمَانَةَ فَأَكَلَهَا ، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ .. فَسَأَلَ رَبِّهِ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجْلِ أَنْ يُقْبِضَهُ سَاجِدًا ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ - مِنَ الْهَوَامِ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ وَهُوَ سَاجِدٌ .. قَالَ فَفَعَلَ . فَنَحَنْ غَرَّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا ، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَوْقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ : أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، فَيَقُولُ : رَبٌّ بِلَّ بِعَمْلِي ، فَيَقُولُ : أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي : فَيَقُولُ : رَبٌّ بِلَّ بِعَمْلِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ : قَاتَسُوا عَبْدِي بِنَعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمْلِهِ ، فَتَوَجَّدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحْاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَبَقِيتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ ، فَضْلًا عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارًا !! فَيَجْرِي إِلَى النَّارِ .. فَيَنَادِي : رَبٌّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : رُدُّوهُ ، فَيَوْقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ : يَا عَبْدِي مِنْ خَلْقِكَ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا فَيَقُولُ : أَنْتَ يَا رَبِّي ، فَيَقُولُ : مِنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ : أَنْتَ يَا رَبِّي ، فَيَقُولُ مِنْ أَنْزَلْكَ فِي جَبَلٍ وَسْطَ الْأَرْضِ ، وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رَمَانَةً ، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَةً فِي السَّنَةِ ، وَمِنْ سَأْلَتْهُ أَنْ يَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلَ؟ فَيَقُولُ : أَنْتَ يَا رَبِّي . قَالَ فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي ، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي ، فَأَدْخِلْهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، قَالَ جَبَرِيلُ : إِنَّمَا الْأَشْيَاءَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَامَحْمَدٌ<sup>(١)</sup> .

۳۴۳۴۳۴۳۴

فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَنْوِيهٌ بِقِيمَةِ النِّعَمِ الَّتِي يَحْظَى أَغْلَبُ النَّاسِ بِهَا ، وَلَيْسَ فِيهَا أَى انتِقَاصٌ لِعَنْصُرِ الْعَدْلَةِ ، أَوْ خَدْشٌ لِمَوَازِينِ الْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَبَعْضُ الْحَمْقَى يَمْطُونُ كَلْمَةً : «إِنَّمَا الْأَشْيَاءَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ» لِيَجْعَلُوا الْحَسَابَ فَوْضَى ، وَلِيَوْهُمُوا أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَرْشُحُ لِجَنَّةَ أَوْ نَارَ .

(١) المتنري .

إِنَّمَا هِيَ الرَّحْمَةُ الْعُلِيَا يَظْفَرُ بِهِ فَرِيقٌ - وَلَوْ كَانَ عَاصِيًّا - فَيُدْخَلُ الْجَنَّةَ وَيُحْرَمُ مِنْهَا  
آخَرٌ - وَلَوْ كَانَ مطِيعًا - فَيُدْخَلُ النَّارَ .

وقد شاعت هذه السخافات بين الأجيال المتأخرة من المسلمين ، فضللت فكرهم ،  
وأوهنت سعيهم ، ولم تزدهم عن الله إلا بعدها وبدينه إلا جهلا .

كيف يدخل الجنة من لم يرشحه لها جهده ، والله يقول :

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ إِذْ رَبِّهِمْ وَهُوَ لِهِمْ بَارِكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول :

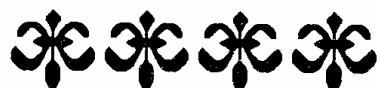
﴿نِلَكُ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادَنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>

ويقول :

﴿وَنِلَكُ الْجَنَّةُ الَّتِي أُرْشَمُوكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

إنَّ مُعْصيَةَ الله لا تُنْيِلُ رحْمَتَه ورَضْيَاه ، والعمل الصالح هو الذي يقرِّبُ من عطفه  
ومغفرته .

وفي مقدمة الصالحات أن تدرك ضخامة النعم التي أُسْبِغَتْ عليك ، وأن تُغالى  
بحقيقتها وحقها ، فإنَّ الله لو ناقشك الحساب عليها وتقاضاك الوفاء بشمنها لعجزتَ .



(٣) الزخرف : ٧٢ .

(١) مرِيم : ٦٣ . (٢) الأنعام : ١٢٧ .

## أنت نسيج وحدك

كنت مُعجبًا به ، تسحرني كلماته ، وتزدهيني توجيهاته .  
وكان يسرّني أن أنجح مثله في حسن البيان ، وقوّة التأثير .  
ولكنّي لم أحارّ التشبّه به أو متابعته على طريقته ، وأحسّبني لو حاولت  
لفشل ، لأن طبيعتي تغلبني .

إنني أسيّرُ وفق خصائصي النفسيّة كما يسير القطار على قضايائه ، عندما أخرج  
عنها أتوقف لفوري .

وقد عرفت جمّا من أصحابي يقلدون الرجل فيما دقّ أو جلّ من شأنه كله ،  
ويحبون في التقرب إليه أن يكونوا صوراً متشابهة من أعماله وأحواله .

ولما كان أستاذنا قد اشتغل قرابة عشرين سنة مدرّساً في المرحلة الأولى من  
التعليم ، فقد جرت على لسانه كلمة «صح» التي طالما قالها للامذته في فصول  
المدرسة ، كذلك شاع في تصرفه الرّبّت على الكتفين ، مظهر العطف والحنّة اللذين  
يبيدهما نحو أطفال المرحلة الأولى ، والغريب أن مقلديه من طلاب الزعامة تابعواه في  
هذه الكلمات والحركات ، كما تابعواه في حفظ خطبه ومقالاته .

وقد تشاءمت من هذا الذّوابان السّمّيج وتوّقعتُ السوء منه على الرجل وعلى مقلديه  
جميعاً ، لأن الصدق والإخلاص والإنتاج والمناصحة والحقيقة نفسها تتضيّع في هذا  
الجو المفتعل من التمثيل الرديء أو المتقن .

لماذا لا ينمو الرجال على فطرتهم التي خلقهم الله بها كما تنمو أنواع النباتات في  
غارسها ، لا النخيل تتحول أعناباً ، ولا الشمار تحاكي غيرها في طعم أو لون .

إنّ أيسر شيء على الشخص المقلد أن يلغى شخصيته أمام من يُفتن فيهم .

فإذا أبدوا رأياً أيّده ، وإذا طلبوا مشورة تحرّي الإدلة بأقرب الأمور إلى هواهم .. !!

وقد قلت يوماً لبعض هؤلاء المقلدين : ما هكذا كان يعامل أصحاب محمدٍ مهداً  
وهو المثل الأعلى للخلية !! .

فعندما استشار أصحابه في أسرى «بدر» انطلق كلّ على سجيته يبدى ما عنده ،  
كما يعتقد .

«فَأَبُو بَكْرٍ» الْحَلِيمُ يُؤثِّرُ الصَّفْحَ ، وَ «عُمَرٌ» الصَّارِمُ يُرِيُ العَقْوَةَ .  
وَقَدْ عَقَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَشْوَرَةِ صَاحِبِيهِ بِأَنْ شَبَّهَ هَذَا «بِإِبْرَاهِيمَ» الَّذِي قَالَ لِقَوْمِهِ :

﴿فَمَنْ تَبَعَّنِي فَإِنَّهُ مُنْتَهٍ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ <sup>(١)</sup>

وَشَبَّهَ ذَاكَ «بِنُوحَ» الَّذِي قَالَ :

﴿رَبِّ لَا نَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَفَرِينَ دَيَّارًا لَّهُ إِنَّكَ  
إِنَّكَ لَذَرْهُمْ يُضْلُّوْا عَبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ <sup>(٢)</sup>

وَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّا الصَّاحِبِينَ تَحْرِيُ الْحَقَّ كَمَا يَهْدِيهِ إِلَيْهِ تَفْكِيرُهُ الْمُسْتَقْلُ ، وَمَزاجُهُ  
الخَاصُّ فِي عَلاجِ الْأَمْوَارِ .

وَهُذَا الْمُسْلِكُ الْحَرُّ الْمُنْزَهُ عَنِ الْمَلْقَ وَالْمِيَوَعَةِ هُوَ الْإِسْلَامُ : «فَطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ  
النَّاسَ عَلَيْهَا» .

وَبِهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الشَّمَائِلِ النَّظِيفَةِ وَالسُّجَابِيَا الأَبِيَّةِ النَّقِيَّةِ التَّفَّ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ  
أَنَّاسٌ لَا يَرَى أَحَدُهُمْ مَانِعًا لِبَيْتِهِ مِنْ أَنْ يَطْلُبَ إِلَيْهِ تَغْيِيرَ مَنْزِلِهِ فِي مَيْدَانِ الْقَتَالِ لِأَنَّ  
الْأَفْضَلُ كَذَا ، وَيَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّوَابَ فِي مَشْوَرَةِ صَاحِبِهِ فَيَأْخُذُ بِهَا .  
أَلَا لَيْتَ الرُّزُومَاءِ وَالرُّؤْسَاءِ عِنْدَنَا يَعْرُفُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ .

إِنَّهُمْ يُؤثِّرُونَ مِنْ يَذِيبُ نَفْسَهُ فِيهِمْ - عَلَى ضَعْفِ الْكَفَايَةِ أَوْ اِنْعَدَامِهَا - وَيُؤَخْرُونَ  
أَصْحَابَ الطَّبَائِعِ الْحَرَّةَ ، وَإِنْ وَثَبَتَ بِهِمُ الرِّسَالَاتُ وَالْأَعْمَالُ إِلَى الْأَمَامِ .

وَهَذِهِ هِيَ الطَّامَّةُ !! وَبِلْغَنِي أَنَّ الزَّعِيمَ الْرُّوسِيَّ «سَتَالِينُ» <sup>(٣)</sup> فَصَلَّى أَحَدُ كُبارِ  
الْمُوْظَفِينَ مِنْ مَنْصَبِهِ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ «سَتَالِينُ» مَا اسْتَشَارَ هَذَا الْمُوْظَفَ فِي أَمْرٍ إِلَّا أَشَارَ  
عَلَيْهِ بِمَا يَظْنُهُ أَقْرَبَ إِلَى مَرْضَاتِهِ .

وَمُثِلُّ هَذَا الْمُوْظَفِ لَا يُرجِي مِنْهُ نَفْعًا ، وَلَا يُؤْمِنُ عَلَى مَصْلَحةِ .

وَقَدْ تَخَلَّصَ مِنْهُ الزَّعِيمُ الْرُّوسِيُّ ، وَلَوْ كَانَ فِي رِبْعِ الْشَّرْقِ لَبَقِيَ مَوْضِعُ الرِّعَايَا  
إِلَى الْمَمَاتِ .

(١) إِبْرَاهِيمٌ : ٣٦ .

(٢) نُوحٌ : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) لَا نَدْرِي بُعْدَ الَّذِي كَتَبَ فِي الرَّجُلِ ، أَهَذِهِ الْقَصْةُ وَقَعَتْ ، أَمْ افْتَعَلَتْ لَهُ .

والمحاكاة ، وذوبان الشخصية ، وتمثيل الأكابر ، علَّ لا تُنْدِمُ فِي مَجَالٍ قَدْرَ مَا تَنْدِمُ فِي الْمَجَالِ الديني ، حيث لا يبلغ أحد درجة التقوى إِلَّا إذا استقامت خلائقه وطابت سجاياه .

وكل تظاهر - مع فقدان هذا الأساس - لا يزيد المرء إِلَّا مَسْخًا .

من بضع سنين سمعت غلاماً في كلية الحقوق - اشتغل بعده في الصحافة - يخطب جمعاً كبيراً من الناس ، ويتناول موضوعاً أشبه بوحدة الوجود ، أو الفناء في الله ، أو لا أدري بالضبط ، من هذه الموضوعات التي تكلم فيها الصوفية بعد دراسات ومجاهدات مُرّة ، ولم ينتهوا فيها إلى حدود يقرّها الإسلام الحق .

وسمعت الغلام الخطيب يتمثل بقول الشاعر الصوفي في مناجاة الله :

ولو خَطَرَتْ لِي فِي سُوَاقِ إِرَادَةٍ عَلَى خَاطِرِي يَوْمًا حَكَمْتُ بِرَدَّتِي !!

وهذا حكم باطل . وقد نسمعه من أساتذته الكبار في ميدان الدعوة والتعبد والمجاهدة المضنية ، فلا نُسِيغُه منهم إِلَّا عَلَى تَحْوِزٍ وَإِغْمَاضٍ .

فكيف نقبله من غلام بينه وبين هذه المجاهدات أَمْد بَعِيدٌ؟ ! .

وعادت بي الذاكرة إلى فصول المدرسة الأولى يوم كنا نحفظ قطعاً من رواية الشعر والنشر ، ونُكَلِّفُ بإلقائها . لقد حفظ زميل لي يجيد فن الإلقاء خطبة «طارق بن زياد» وهو يحرّض رجاله على مهاجمة القوط .

لقد تخيلنا أنَّ السفن المحترقة وراءنا ، وأن جيوش الإسبان تجاهنا ، وأن ميدان المعركة قد انتقل إلى رَحْبَة المدرسة !! .

ماذا لو زعم التلميذ الماهر أنه «طارق بن زياد» نفسه؟ ! .

إنَّ المهزلة التي يضحكك افتراضها هي التي وقعت في مجال التدين نفسه ، فقد رأيتُ الغلمان الذي يحتاجون إلى مراحل هائلة من التهذيب والتنقية يقفزون إلى المرتبة الخرافية لبيت «ابن الفارض» :

ولو خَطَرَتْ لِي فِي سُوَاقِ إِرَادَةٍ عَلَى خَاطِرِي يَوْمًا حَكَمْتُ بِرَدَّتِي  
وَمَنْ ثُمَّ تَحَوَّلَ تَمْثِيلَهُمْ لِبَعْضِ الْكَبَارِ .. إِلَى كَبَارٍ فِي نَظَرِ أَنفُسِهِمْ وَنَظَرِ الْجَاهِلِينَ !! .



إن خروج الإنسان على سجاياه ، وانفصاله عن طباعه العقلية والنفسية التي لا عوج فيها أمر يفسد على الإنسان حياته ويثير الاضطراب في سلوكه .

وقد علمتَ قصة الغراب الذي راقه المشي على الأرض ، فلا هو استطاع الخطوه كما يبغى ، ولا هو استطاع الطيران كما خلق .

إنه عسير جدًا على الإنسان مهما حاول أن يكون غيره .

قال «دييل كارنيجي» : (سألت مدير المستخدمين في شركة «سوكوني فاكوم» عن الغلطة الكبرى التي يرتكبها طلاب العمل في شركتهم فأجاب : إنَّ أكبر غلطة يرتكبها طلاب الأعمال هي أنهم لا ينطلقون على سجاياهم ، فبدلاً من أن يصارحوك بحقيقة أفكارهم وأرائهم يحاولون أن يجيبوا على أسئلتك بما يظنونه الجواب الذي تريده أنت ، ولكن هذه الحيلة قلماً تُفلح ، فالناس يعرفون الشخص الذي يدعى ما ليس فيه ، كما يعرفون العملة الزائفة .

وقال العالم النفسي «وليم جيمس» : لو قسمنا أنفسنا بما يجب أن تكون عليه لاتَّضح لنا أننا أنصاف أحياء ، ذلك لأننا لا نستخدم إلاً جانبياً يسيراً من مواردنا الجسمانية والذهنية ، أو يعني آخر أن الواحد منا يعيش في حدود ضيقَة يصنعها داخل حدوده الحقيقية ، فإنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة ، ولكنه لا يفطن إليها عادة ، أو يتحقق في استغلالها كلها) .

قال «كارنيجي» : (إنك شيء فريد في هذا العالم . إنك نسيج وحدك ، فلا الأرض منذ خلقت رأت شخصاً يشبهك تمام الشبه ، ولا هي في العصور المقبلة سوف ترى شخصاً يشبهك تمام الشبه .

ويتبئك علم الوراثة بأنك تخلَّقت جنيناً نتيجة للتلاقي أربعة وعشرين زوجاً من «الكريموزومات» أسهمن فيها بالنصف كلٌّ من والديك ؛ وقد تضافرت هذه الأزواج الأربع والعشرون على توريثك الصفات التي تتميز بها .

ويقول «امران شاينفلد» في كتابه «أنت والوراثة» : إنَّ كل «كريموزوم» يحمل جينات تعداد بالمئات ، وأنَّ واحداً فحسب من هذه الجينات يستطيع في بعض الأحيان أن يغيِّر حياة المرء تغييرًا شاملًا .

نعم فالحق أننا مخلوقون بدقة تثير الرهبة وتستدعي الإعجاب ، وحتى بعد التقاء أبيك أحدهما بالأخر وتزواجهما فإن احتمال خروجك أنت بالذات إلى حيز الوجود كنسبة واحد إلى ٣٠٠،٠٠٠ بليون ، أو بمعنى آخر لو أن لك ٣٠٠،٠٠٠ بليون أخي وأخت لكانوا جميعاً مختلفين عنك منافقين لك .

ثم يقول : أنت نسيج وحدتك في هذه الدنيا . فاغبط نفسك على هذا ، واعمل على الاستزادة مما ركبته فيك الطبيعة من مواهب وصفات .

قال : «إيمرسون» : سوف ينتهي كل امرئ إلى وقت يدرك فيه أنَّ الحسد جهل ، وأنَّ التشبعُ بالتحار ، وأنه ينبغي للمرء أن يأخذ نفسه على علاتها ، ويرضى بها كما قسمها الله له .. ويعلم أنَّ الأرض على امتنانها بالخيرات لن تبهه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد في تعهد تلك الأرض التي تنبت له الشعير ، كذلك القوة التي أودعها الله فيه إنها فريدة في نوعها ، فلا أحد غيره يعلم كنهها ، ولا هو نفسه يحيط بعدها ما لم يضعها موضع التجربة ) .



على هذه الأسس العلمية التي نقلناها وشرحناها فسررت مجلة «منبر الإسلام» قوله عز وجل :

**﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوْلِيهَا فَاسْتَقِوْا مُخْيَرَاتٍ  
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ بِجِمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَقِيدَرٌ﴾ (١)**

ولا بأس أن ننقل هنا هذا التفسير للأية ، إذ هو تلخيص حسن لكلام «ديل كارنيجي» واهتداء بالشواهد التي ساقها ، ثم إنه لا تكلف فيه ولا جُور .

قال المحرر :

وردت هذه الآية الكريمة في سياق النَّظُم الذي تضمن حديث القِبْلَة وتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة المكرمة .. ومن ثم كان لا بد للمفسرين أن يلحظوا الرابطة التي بينها وبين موضوع القِبْلَة ، وأن يبينوا حظها الذي تؤديه من معانٍ لهذا الحديث ، فقالوا :

١ - الوجهة هي القِبْلَة ، ومن معنى الآية على هذا : إن لـكُلِّ أهل دين وملة قِبْلَة يتوجهون إليها ، مشركين كانوا أم كتابيين .

(١) البقرة : ١٤٨ .

٢ - إنها خاصة بأهل الكتب السماوية وحدهم ، وهم : اليهود ، والنصارى ،  
وال المسلمين ، فلكلّ منهم قبلة خاصة به .

٣ - إنها خاصة بال المسلمين وحدهم ، والمراد أن لكل قوم من المسلمين جهة من  
الكعبة يصلون إليها ، جنوبية ، أو شمالية ، أو شرقية ، أو غربية .

### اختلاف خصائص النفوس

على أن الآية الكريمة تتسع لمعنى آخر ، إذ تنص على أن لكل إنسان مذهبًا  
في الحياة ، أو اتجاهًا خاصًاً يتوجه إليه ، بحسب ما يجد في نفسه من ميل طبيعي ،  
أو ملاعة لخصائص ذاته .

ولسنا نقص المذهب هنا على أن يكون للإنسان في الحياة مبدأ واضح متميز في  
السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفلسفة ، أو نحوها ، بل نريد الدائرة الواسعة التي تشمل  
البشر جميعا أصحاب المذاهب المتميزة وغير المتميزة .

فإن الناس ليسوا نسخة واحدة مكررةً متماثلةً في ملامح النفس و مشابه البدن ..  
فهم من حيث القالب الحسي مختلفون طولاً و قصراً ، ونحافة و غلظاً ، وقوّة وضعفاً ،  
وصحة و مرضًا .. وفي صفة الأنف والعين والفم والجبهة وسائر ملامح الوجه .. أي  
أن أبدانهم ووجوههم ليست مصبوبة في قوالب متماثلة ، ولا مطبوعة على مثال  
واحد .. بل إن الاختلاف ليذهب في تلك الناحية الحسيّة حتى يشمل الأمور الدقيقة  
التي لا يكاد يلتفت إليها ، كتغيرات البناء في البصمات المختلفة لمليين البشر .

هذا الاختلاف المعجز العجيب الذي يدل على قدرة الخالق سبحانه يقابله اختلاف  
آخر في ملامح النفس ، وتسوية الطبع ، وتقدير الغرائز ، وخصائص الفكر  
والعاطفة .. فكما يختلف الناس في التقسيم الحسيّة الظاهرة يختلفون في الملامح  
النفسية الباطنة .

فلكل إنسان قالبه البدني الذي لا يماثله فيه أحد ، وكيانه المعنوي الباطن الذي  
يتميز به عمن سواه .

## اختلاف وجهات القلوب :

ومعروف أنَّ القالب الحسِّيَّ إنَّ هو إِلا وعاء أو ظرف لخصائص الكيان المعنوي ، وأنَّ العوامل الباطنة المختلفة هي التي تتحكم في توجيهه البدن إلى الوجهة التي تشاء ، وتفرض عليه من ألوان التصرفات ما تريد ، فللطبع أحکامه ، وللغرائز مطالبه ، وللعاطفة أشواقها وميولها ، وللفكر منطقه ونقده ، وتمييزه . وكل ذلك لا يستطيع أن يتخذ سبيله إلى ظاهر الحياة إِلاً عن طريق البدن . أى لا يستطيع أن يعبر عن نفسه ، ويكشف حقيقة مستوره إِلاً بوساطة الأجهزة المختلفة والجوارح المتباعدة التي يتآلف منها البدن ، فالماء حين يتكلم ، أو يكتب ، أو يشير بيده ، أو يمشي برجله ، أو يبيع ، أو يشتري ، أو يتصل بالناس ، أو يتقلب في أنواع التصرف ؛ إنما ينبئ بذاته بواعث كامنة ، وإملاء عوامل باطنة ، وما حركات البدن إِلاً التعبير الطبيعي عن مقاصد تلك البواعث والعوامل .

فحقيقة الإنسان - إِذَا - ليس هي بدنه الذي يؤمر فيأتمر ، ويُساق فيتحرَّك ، ويُسخر فيلزم ما يلى عليه أو يُرسم له ، بل هي المزاج المعنوي الذي يجمع اتجاهات الطبع والغرائز والعاطفة والفكر في نسق واحد ، أو كيان نفسي يطبع سلوك صاحبه بطابعه الخاص ، ويرسم له في أذهان الناس شخصية متميزة عما سواها .

هذا المزاج المعنوي ، أو هذا الكيان النفسي هو حقيقة الماء التي تهب له وجوده المستقل ، وتمييزه بخصائصها الذاتية فلا يماثله فيها أحد .

وبما أنَّ سلوك الماء إنَّ هو إِلاً الخط الذي ترسمه له طباعه ، وميوله وغرازه وذهنه ، فلا جَرَمَ أن يكون لكل امرئ خطه الذي لا يشاركه فيه أحد ووجهته التي يتميَّز بها دون الناس .

وهذا كله هو من معانى قوله سبحانه : «ولكلٍّ وجهةٌ هُوَ مُؤْلِيَها» ، أى لكل من الناس قبلة ، أى وجهة ، على ما ذكره الإمام القرطبي في تفسيره<sup>(١)</sup> .

## احترام الوجود الذاتي للإنسان

والحق سبحانه لا يريد بهذا القول الكريم مجرد التقرير والخبر وإفاده المعنى ، بل يريد النصَّ على سُنَّة باقية ، وقانون أصيل من قوانين صلاح الفرد والمجتمع .

(١) الجامع لأحكام القرآن .

١ - ي يريد النص على أنَّ لكل إنسان شخصيته المستقلة ، فإذا هو حافظ على هذا الاستقلال ، ودعم أصوله ، وزكي فروعه ، وعاش في نطاق ذاتيه الخاصة ، فقد مضى على سُنَّة اللَّهِ إِذ أراده أَمَّةً وحده ، ودولة قائمة بذاتها .. وإذا هو لم يعرف لنفسه حقَّها ، فنافق الرؤساء ومن إليهم ، أو مضى يقلُّد بعض ذوى الشهرة في حركاتهم وأصواتهم ومظاهرهم وطريقة أدائهم للأعمال ، أو راح على غير سجيته يتتكلَّف الأمور ويرأى الناس في تصرفاته ، فقد جانب سُنَّة اللَّهِ ، وأهدى شخصيته ، وغير خلق اللَّه الذي آثره به وسوَّاه عليه ، وتغيير خلق اللَّه ما فتَّع دِيَّنَ الشيطان منذ أقسام بين يدي رب العزة جل شأنه : ﴿ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلَيُغَيِّرُونَ خَلْقَ اللَّهِ ﴾<sup>(١)</sup>

٢ - ويريد سبحانه أن يقرَّ لكل إنسان حقَّه في اختيار الوجهة التي يريدها لخدمة نفسه وقومه ، أي حقَّه في أن يعيش حرًّا في نطاق المجتمع الصالح المتكافل ، إذ يجب أن يكون هذا الاتجاه من نبع فؤاده ووحي ضميره ووجوده ، والله سبحانه يقول : ﴿ هُوَ مُولِّيهَا ﴾ ، أي لكل إنسان وجهة هو الذي يتولَّ نفسه التوجُّه إليها ، أو هو الذي يولِّ وجهه نفسه نحوها . فإذا حملناه على غير طبيعته ، فقد حملناه على الرَّهق ، وأدخلنا التشويش على عوامله النفسية المؤلفة ، وذلك أيضاً من تغيير خلق اللَّه .

ويريد الله سبحانه أن يقرر حرية الرأي لكل إنسان . فلكل إنسان وجهة ينظر إلى الحياة من زاويتها ، ولا يدرى أحد في أي زاوية يكون الحقُّ والخير . ورب حكمة ينشدها كبار الناس في آفاقهم العقلية من زواياهم الخاصة فلا يجدون لها أثراً ، لأنها مختبئه عنهم في زاوية رجل مغمور ، إذا نظر إليها بينها في بساطة ووضوح ..

فالنظر إلى الحياة من زواياها المختلفة يكفل لنا الإحاطة بأوفر حظ من الصواب والخير ، أو هو نوع من التعاون الذهني على استشارة ما في هذا الكون من منافع حسية ومعنوية لمصلحة الفرد والمجتمع . ولذلك خلقنا الله سبحانه متفاوتين في طبيعة التفكير ، وجعل لكلَّ منا زاويته الخاصة التي ينظر إلى الحياة من عندها ..

وليس معنى حرية التفكير أنَّ الإنسان حرًّا في تنشيط مواهبه العقلية وعدم تنشيطها ، فإن شاء فكرَ وشحد ذهنه ، وإن شاء تجاهل كل ما حوله ، وترك ذهنه

(١) النساء : ١١٩ .

كاسداً معطلاً .. لا .. فإنَّ لكلَّ موهبة وهبها لنا سبحانه حَقّاً علينا ، هو تنشيطها ، واستعمالها فيما خلقت له ، وذلك من صميم شكر الله .. أما تعطيلها وإهمالها فهو ضربٌ من الكنود والجحود لنعمته سبحانه .

فوق أنه ضرب من الحرمان والشقاوة ..

وما قيمة المرء إذا عاش بذهن كاسد معطل؟!

وما قيمة الأمة إذا عاش ملائينها الكثيفة في معزل عن تحصص الأمور وإدراك وجوه الحق فيها؟! .

إنَّ لك أن تتصورَ مبلغ ما يفوتها من المنافع وينالها من الشلل والتأخر إذا كانت زوايا البحث عن الحق ومنابع الخير فيها معطلة ، أو مُهدرة على هذا النحو الأثيم .

والقول الفصل في حرية الرأي أنها حقٌ طبيعي للمرء ، ولكنَّه حقٌ يتخد صفة التكليف اللازم ، والرسالة الواجبة الأداء ..

ذلك ، وحرية الرأي هي حارس العدالة في الشعب ، والسياج الذي يكتفِّي الحاكم أن يستبدَ بأمور الناس .

ولا قيام لحكم الطاغية إلَّا على الأذهان المسوخة والأفكار الراكدة البلياء ، والحجر على ذوي الرأي أن ينظروا إلى الأمور إلَّا من الزاوية التي يراها لهم الطاغية .. وقد أدرك «فرعون مصر» قدِيمًا تلك الحقيقة ، فأعلن إلغاء حرية الرأي بقوله :

﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا آهَدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾<sup>(١)</sup> أي أنه اعتمد تعطيل مَلَك الرأي فيهم ، فلا يسمح أن يكون لهم رأي في الأمور غير ما يرى هو فيها .

وذلك من مَسْخِ الموَاهِب ، وتغيير خلق الله ، وصميم أمر الشيطان .

### احتمال الفساد والفرقـة

ولكن ما عاقبة أن يصبح كل منا حرًّا في تفكيره ، وميوله ، وشخصيته واتجاهه في الحياة؟ .

الآ يجوز أن يفضي بنا ذلك إلى ضرب من البلبلة ، والفرقـة ، والتدابر ، ونبـتلى بالشـح المطاع ، والهـوى المتـبع ، وإعـجاب كـل ذـي رـأـي بـرأـيه؟ .

(١) غافر : ٢٩ .

إن تلك المبادئ تكون مأمونة العاقبة لو أنَّ طبيعة الإنسان مفطورة من الخير المحسَّن الذي لا يشوبه الاستعداد للشر .. أمَّا وهو يحمل في طبيعته خصائص الحَمَّا المتن إلى ما يحمل من سر الروح العلوى ، فإنَّ إطلاق تلك المبادئ بلا قِيد هو إطلاق لقوى الشر تعيث في الأرض فساداً ، فيكثر فيها السخفاء والماجنون ، ويقلُّ التعاون ، وتنتشر المنكرات ، ويصعب جمع أفراد الأمة في رأي عام ، وخطة تكفل وحدتها ومصلحتها .

### ضمان الصلاح والوحدة

لهذا نرى الآية الكريمة تقرُّ الشروط وتضع القيود التي تنفي عنَّا شَرَّ تلك المبادئ ، وتكتُلُ خيرها وبرَّها ، وذلك إذ يقول سبحانه :

**﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾**

**﴿إِنَّمَا تَكُونُوْا يَاتٍ بِمُكْرَهٍ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَقِدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>**

فإذا كان لكل إنسان وجهته الخاصة ، فيجب أن تكون لتلك الوجهة غاية معينة تنظم سيرها ، وتحكم أمرها ، ولا نستطيع أن نتصور اتجاهًا للمرء ليس له غاية مقصودة أو غرض منشود إلا أن يكون أبله أو مجنوناً .

ولا ينزع أحدٌ في أن الغاية التي يصلح بها اتجاه المرء - ولا يصلح له اتجاه سواها - هي الخير ، فذلك مقرر في كل فطرة ، وكل فلسفة رشيدة ، وكل دين ، ولذا يأمرنا الله سبحانه بقوله : **﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** .

أى فاجعلوا الخير غايتكم في كل وجه تتباعثون إليه .

إذا تقرر الهدف كانت وحدة الأمة .

إذا كان الخير هو الغاية ، كان الصلاح لا محالة .



. ١٤٨ : البقرة (١)

إحساس المرء بنفسه إذا زاد عن حدّ يحجبه عن الآخرين ويحصره في عالمٍ خاصٍ به.

ولا يزال ماضياً في تكبير شأنه وتهوين غيره ولا تزال نفسه تعجبه وتنسج حول فكره غلالة سميكة من الغرور والشراهة.

ولا تزال "أنا" تنمو فيه ويتضاعف ورمها وتضخمها، حتى يقول "أنا ركيم الأعلى".

إن حب الذات، والعيش في إفرازاتها - ولو كانت حريراً كالذى تفرزه دودة القرمز منه حتماً بالاختناق وهو اختناق أدبي وإن وصل صاحبها إلى قمة المجد والسلطان.

محمد الغزالى

## اصنع من الليمونة الملحقة شراباً حلواً

الصبر - كما عرّفه علماؤنا : حبس النفس على ما تكره .

وهذا تفسير حسن إذا عنينا به مواجهة الشدائـد البغيضـة بثبات لا نكوصـ معـه ،  
وعـقل لا يـفقد توازـنه واعـتدـالـه .

غـيرـ أنـ حـبسـ النـفـسـ عـلـىـ ماـ تـكـرـهـ إـذـاـ عـنـيـنـاـ بـهـ دـوـامـ الشـعـورـ بـمـراـرـةـ الـوـاقـعـ ،  
وـطـولـ الإـحـسـاسـ بـمـاـ فـيـهـ مـنـ سـوءـ وـأـذـىـ ،ـ قـدـ يـنـتـهـىـ بـإـلـاـنـسـانـ إـلـىـ حـالـ مـنـكـرـةـ مـنـ  
الـكـآـبـةـ وـالـتـبـلـدـ .

ورـبـماـ انـهـزمـ الصـبـرـ أـمـامـ الـمـقـارـنـاتـ التـىـ تـعـقـدـهـ النـفـسـ بـيـنـ مـاـ نـابـهـاـ وـمـاـ كـانـتـ تـحـبـ  
وـتـشـتـهـىـ ،ـ كـمـاـ قـالـ الشـاعـرـ :

أـقـولـ لـنـفـسـيـ فـىـ الـخـلـاءـ ،ـ أـلـومـهـاـ :ـ لـكـ الـوـيلـ ،ـ مـاـ هـذـاـ التـجـلـدـ وـالـصـبـرـ؟ـ

وـهـذـهـ نـهـاـيـةـ الإـحـسـاسـ الـخـضـ بالـأـلـمـ ،ـ وـالـخـبـطـ فـىـ ظـلـمـاتـهـ دونـ التـمـاسـ نـورـ يـهـدـىـ فـىـ  
دـيـاجـيـهـ ،ـ أـوـعـزـاءـ يـنـقـذـ مـنـ مـأسـيـهـ!!ـ

وـالـإـسـلـامـ يـعـملـ عـلـىـ تـحـوـيلـ الصـبـرـ إـلـىـ رـضـاـ فـىـ الـمـجـالـ الـذـىـ يـصـحـ فـيـهـ هـذـاـ التـحـوـلـ ،ـ  
وـلـنـ يـتـمـ تـذـوقـ النـفـسـ لـبـرـدـ الرـضـاـ بـإـصـدارـ أـمـرـ جـافـ ،ـ أـوـفـرـضـ تـكـلـيفـ أـجـوفـ ،ـ كـلـاـ ،ـ  
فـالـأـمـرـ يـحـتـاجـ إـلـىـ تـلـطـفـ مـعـ النـفـسـ ،ـ وـاسـتـدـرـاجـ لـشـاعـرـهـ النـافـرـةـ ،ـ وـإـلـاـ فـلـاـ قـيمـةـ لـأـنـ  
تـقـولـ :ـ أـنـاـ رـاضـ،ـ وـنـفـسـكـ طـافـحةـ بـالـضـيقـ وـالـتـقـرـزـ!!ـ

وـأـوـلـ مـاـ يـطـلـبـهـ الـإـسـلـامـ مـنـكـ أـنـ تـتـهـمـ مـشـاعـرـكـ حـيـالـ مـاـ يـنـزـلـ بـكـ .ـ

فـمـنـ يـدـرـىـ؟ـ رـبـ ضـارـةـ نـافـعـةـ صـحـتـ الـأـجـسـامـ بـالـعـلـلـ ،ـ رـبـ مـحـنـةـ فـىـ طـيـهاـ مـنـحـةـ .ـ

مـنـ يـدـرـىـ؟ـ رـبـاـ كـانـتـ هـذـهـ الـمـتـاعـبـ التـىـ تـعـانـيـهـ بـاـبـاـ إـلـىـ خـيـرـ مـجـهـولـ ،ـ وـلـئـنـ أـحـسـنـاـ  
الـتـصـرـفـ فـيـهـ لـنـحـنـ حـرـيـونـ بـالـنـفـاذـ مـنـهـاـ إـلـىـ مـسـتـقـبـلـ أـطـيـبـ .ـ

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكُونُ هُوَ شَيْئاً وَهُوَ خِرْكَةٌ  
وَعَسَىٰ أَن تُجْبَوْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ كُلُّهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

إنَّ أكثراً نَّا يتبرَّم بالظروف التي تحيط به ، وقد يضاعف ما فيها من نقص وحرمان ونكَّد ، مع أنَّ المتابِع والآلام هي التربة التي تنبت فيها بذور الرجولة . وما تفتَّقت موهاب العظماء إلا وسط ركام من المشقات والجهود .

وفي هذا يقول «ديل كارنيجي» : (كلما ازدادت إيجالاً في دراسة الأعمال العظيمة التي أنجزها بعض النوايغ ، ازدادت إيماناً بأن هذه الأعمال كلُّها ما تمت إلا بداعف من الشعور بالنقص ؛ هذا الشعور هو الذي حفزهم إلى القيام بها واجتناء ثمراتها . نعم ، فمن المحتمل أنَّ الشاعر «ملتون» لم يكن يقرض شعره الرائع لو لم يكن أعمى ، وأنَّ «بيتهوفن» لم يكن ليؤلف موسيقاه الرفيعة لو لم يكن أصمّ ..).

إنَّ هؤلاء المصايبين لم يجسّموا مصابיהם ثم يطوفوا حولها مُعولين مُنتحبين ، ولم يدعوا ألسنتهم تلعق ما في واقعهم المزّ من غضاضة ، كلاً .

لقد قبلوا الواقع المفروض ، ثم تركوا العنان لموهبهم تحوّل محنته إلى منحة ، وتحوّل ما فيه من كدر وطين إلى ورود ورياحين .

وتلك هي دعائم العظمة ، أو هذا هو تحويل الليمونة الحامضة إلى شراب سائع ، كما يقول «كارنيجي» أو كما نقل عن «إيرسون» في كتابه «القدرة على الإنجاز» حيث تساءل : (من أين أتتنا الفكرة القائلة إنَّ الحياة الرغدة المستقرة الهدائة الخالية من الصعب والعقبات تخلق سعداء الرجال أو عظماءهم ؟ إنَّ الأمر على العكس ، فالذين اعتادوا الرثاء لأنفسهم سيواصلون الرثاء لأنفسهم ولو ناموا على الحرير ، وتقلّبوا في الدَّمَقْس . والتاريخ يشهد بأنَّ العظمة والسعادة أسلمتا قيادهما لرجال من مختلف البيئات ؛ بيئات فيها الطِّيب وفيها الخبيث ، وفيها التي لا تميز بين طِّيب وخبيث .

في هذه البيئات نبت رجال حملوا المسؤوليات على أكتافهم ، ولم يطرحوها وراء ظهورهم ..).



وليس كل امرئ يُؤتى القدرة على تحويل قسمته المکروهة إلى حظ مستحب ذي جَدوى ، فإن عُشاق السُّخْط ومدمى الشکوى أفشل الناس في إشراب حياتهم معنى السعادة إذا جفت منها ، أو بتعبير أصح إذا لم تجيء وفق ما يشهون .

أما أصحاب اليقين وأولو العزم فهم يلقون الحياة بما في أنفسهم من رحابة قبل أن تلقاهم بما فيها من عنَّت .

وكما يفرز الجسم عصارة معينة لمقاومة الجراثيم الهاجمة يفرز هؤلاء معانٍ خاصة تمتزج بأحوال الحياة وأغيارها فتعطيها موضوعاً وعنواناً جديدين .

واسمع إلى ابن تيمية وهو يقول - مستهيناً بتنكيل خصومه : إن سجنى خلوة ، ونَفِيَ سِيَاحَة ، وَقُتِلَ شهادة .. !!

أليست هذه الفواجع أقصى ما يصنعه الطغاة؟  
إنها عند الرجل الكبير قد تحولت إلى نعم يستقبلها بابتسام لا باكتئاب .

وقريب من هذا المسلك القوى ما رواه «ديل كارنيجي» عن سيدة نُقلت مع زوجها الضابط إلى صحراء موحشة ، فضاقت ذرعاً بمعيشتها ، وهُمَّت بترك رجلها وحده والعودة إلى أهلها ، قالت هذه السيدة : (ولكن خطاباً ورد إلى من أبي تضمن سطرين ، سطرين اثنين سأذكرهما ما حبّيت لأنهما غيراً مجرّى حياتي وهذا هما :

من خلف قضبان السجن تطلع إلى الأفق اثنان من المسجونين ، فاتجه أحدهما ببصره إلى وَحْل الطريق ، أما الآخر فتطلع إلى نجوم السماء .

قالت السيدة : وقد تلوت هذه الكلمات وأعدت تلاوتها مراراً ، فخجلت من نفسي وعوّلت أن أطلع إلى نجوم السماء .

من قديم عُرف تفاوت الهم باختلاف الطاقات في الإِفادَة من الشدائِد ، والكسب من الظروف الحرجَة .

أو كما قال «وليام بوليتشو» : ليس أهم شيء في الحياة أن تستثمر مكاسبك ، فإن أي أبله يسعه أن يفعل هذا ، ولكن الشيء المهم حقاً في الحياة هو أن تحيل خسائرك إلى مكاسب ، فهذا أمر يتطلّب ذكاء وحِذْقاً ، وفيه يكمن الفارق بين رجل كيس ورجل تافه ) .

وهذا حق ، وانظر إلى هذه الأمثلة لتحويل الخسائر إلى مكاسب :  
عندما فقد عبد الله بن عباس عينيه ، وعرف أنه سيقضى ما بقى من عمره مكفوف البصر ، محبوساً وراء الظلمات عن رؤية الحياة والأحياء ، لم ينطِ على نفسه ليندب حظَّه العاشر .

بل قبل القسمة المفروضة ، ثم أخذ يضيف إليها ما يهون المصاب ويبعث على الرضا فقال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِيْ نُورَهُمَا  
قَلْبِيْ ذَكْرٌ ، وَعَقْلِيْ غَيْرُ ذَيْ دَخْلٍ

وقال «بشار بن برد» يردد على خصومه الذين نددوا بعماته  
فليس بعار أن يقال ضريرُ  
فإن عمي العينين ليس يضريرُ  
وإنى إلى تلك الثلاث فقيرُ  
وعيّرنى الأعداء ، والعيب فيهمُ  
إذا أبصر المرء المروءة والتحقى  
رأيت العمى أجراً ، وذخراً وعصمةً

ولا شك أن تلقى المتابع والنوازل بهذا الروح المتفاءل ، وهذه الطاقة على استئناف العيش والتغلب على صعابه ، أفضل وأجدى من مشاعر الانكسار والانسحاب التي تجتاح بعض الناس وتقضى عليهم .

وانظر到 بين كلام «ابن عباس» و«بشار» ، وبين ما قاله «صالح بن عبد القدس» لما عمى :

على الدنيا سلام ، فما لشيخٍ  
يموت المرء وهو يُعَدُّ حيَا  
يُنَيِّنِي الطبيبُ شفاء عيني  
إذا ما مات بعضُك فابك بعضاً

ضرير العين في الدنيا نصيبُ  
ويُخْلِفُ ظنهُ الأملُ الكذوبُ  
وما غير الإله لها طبيبُ  
فإنَّ البعضَ من بعضِ قريبٍ

ونحن نحسُ الرقة لهذا الفؤاد الجريح ، غير أنه خير لصاحبِه أن ينهض ويسير ، ويضاعف الإنتاج في الحياة من مواهبه الأخرى ، كما فعل الرجالان قبله .



## العمل بين الأثرة والإثار

غريزة حب النفس أصلية في بني آدم ، ولا مدعى عن الاعتراف بها ثم مراقبة سيرها في الحياة حتى لا يشتد عن سوء الصراط .

وليست هذه الغريزة شرّاً محضاً كما يبدو للنظر العاجل ، فإنَّ نشاط العمran على ظهر الأرض يعود قبل كل شيء إليها .

والقانون النفسي العتيق القائم على حب اللذة وكراهية الألم ، القائم على طلب المنفعة الخاصة ورفض الضرر ، هو سرُّ الاتصال الدائم في مواكب الحياة والاتساع المستمر في دائتها .

بل لعله سرُّ التقدم العلمي المطرد ، والكشف والتى نقلت العالم من طور إلى طور .

وحبُّ النفس إن يك طبيعة الناس في الدنيا فعليه التعويل كذلك في إحرار الآخرة ، والزحزحة عن النار ودخول الجنة .

وليس ضعفةً بالمرء - كما يزعم الزاعمون أن يعبد الله ابتلاء جنته أو خشية ناره ، إنَّ ذلك كمال عظيم وسلوكٍ كريم .

ولا تخدعنى عن هذه الحقيقة شطحات الصوفية وخيالاتهم الحائرة .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّنِي عَذَابٌ يَوْمًا عَظِيمٍ ﴾ (١)

إنما تُحذرُ هذه الغريزة وتُتقى عاقبها عندما تمرض ، وعندما تتورّم وتتضخم ، ويعانى صاحبها منها العنت ، ويعانى منها الظلم والبطأ .

إحساس المرء بنفسه إذا زاد عن حدّه يحجبه عن الآخرين ، ويحصره في عالم خاص به .

ولا يزال ماضياً في تكبير شأنه وتهوين غيره .

(١) الزمر: ١٣ .

ولا تزال نفسه تعجبه ، وتنسج حول فكره غلالة سميكة من الغرور والشرابة .

ولا تزال «أنا» تنمو فيه ، ويتضاعف ورمُها وتضخُّمها ، حتى يقول : «أنا ربكم الأعلى !!» .

إنَّ حب الذات ، والعيش في إفرازاتها - ولو كانت حريراً كالذى تفرزه دودة القز - منتهٍ حتماً بالاختناق .

وهو اختناق أدبيٌ وإن وصل صاحبه إلى قمة المجد والسلطان!!  
و«أنا» دائماً - شارة القصور الأدبي ، والتصرف البهيمى .

والأنانيون في كل مجتمع لعنةٌ ما حقه ، تخترق في سعيها الفضائل والمصالح ، وتذوب في مرضاتها الأفراد والجماعات .

ولا بأس أن نستطرد قليلاً هنا لذكر أن قوله «أنا» قد تكون آية على تحمل التبعات الضخمة .

وقد تكون مقصودة لذكر حقيقة يجب أن تتقرر في الأذهان .

وهي في هذه المجالات أقرب إلى الإيثار منها إلى الأثرة .

بل لا صلة لها بالمعانى الضئيلة التي تُعرف بها ، وذلك كما في الآية الكريمة :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾<sup>(١)</sup>

وكمما في قول الرسول ﷺ : «أنا النبيُّ لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» .

فأنا في هذه المناسبات صيحة القوة لنصرة الحق ، وفاتحة العمل لدعم الإيمان ، والتعهد بأداء الواجب وإن نهضت تكاليفه ، والشعور الحادُّ بأن المرء قبل غيره مفروض عليه أن يقوم بما نُدب إليه .

وفي الحديث أيضاً : «إِنَّ أَخْشَاكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» فأنا هنا ليست ترجمة غرور واستعلاء ، ولا يمكن بتَّةً أن تومئ إلى هذه المشاعر ، وإنما هي تحديد للمصدر الذي يؤخذ منه الحق وقتبس منه الأسوة الحسنة ، وينظر إلى ما عداه على أنه تنكُّر والتواء .

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٨ .

«أنا» التي يقولها امرؤ في مجال الطمع غير «أنا» التي يهتف بها رجل في مجال الفزع ، وبين الاثنين بعْد المشرقين .

والواقع أنَّ الأثرة يجب أن تعالج منذ الطفولة المبكرة ، حتى تنبت الناشئة وهي تنظر إلى نفسها وإلى غيرها نظرة لا جَنَف فيها ولا قُصور .

وقد قلنا في كتابنا الأخرى : إن الإسلام جعل «الأخوة» العامة نظاماً عادلاً تُصان به الحقوق والواجبات ، ويتم فيه تبادل العاطفة على نحو يرقى بالإِنسان ، ويجمع بين ما ينشده لنفسه وبين ما يجب عليه للآخرين .

ولعلَّ من خير ما قيل في آداب الأخوة ما نقله صاحب «قوت القلوب» : «ليكنْ صاحبك من إذا خدمته صانك ، وإن قعدتْ به مؤونةٌ مانك ، وإن مددتَ يدك بخير مدَّها ، وإن رأى منك حسنة عدَّها ، وإن رأى منك سيئة سلَّها ، وإن سأله أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلتْ بكَ نازلة واساك ، وإن قلتَ صدق قولك ، وإن تنازعتمَا أثرك .

إن صديقك هو من يسدُّ خللَك ، ويستر زلَّلك ، ويقبل عَلَّلك ، ومن حقَّ الصديق عليك أن تتجاوز له عن ثلات : عن ظلم الغضب ، وظلم الھفوة ، وظلم الدَّالة» .

وقد حكى «ديل كارنيجي» في كتابه قصصاً كثيرة يريد من سُوقها انتزاع الأثرة من النفس ، والزجَّ بالإِنسان في دائرة الحببة الشاملة والأخوة العامة ، وتدريب المرء على أن يكون فعَالاً للخير مقبلاً على الناس بالبرِّ والرحمة والتكريم ، ثم قال : (أحوال الكثيرين من يقرأون هذا الفصل سيقولون لأنفسهم : هذا الحديث عن الاهتمام بالناس وإسعادهم إنْ هو إِلَّا سخافة ، إنْ هو إِلَّا وعظ ديني متنَّك ، لا ياعم ، يفتح الله ، نفسي أولاً وليدذهب «الآخرون» إلى الجحيم .

إن كان هذا رأيك فليكن .. ولكنك إنْ حسبتَ أنَّك مصيَّب فكأنما تزعم أنَّ كل الأنبياء وال فلاسفة الذين تعاقبوا على مرَّ العصور كانوا مخطئين . وعلى أية حال إن كنت تتأيَّد عن تعاليم الأنبياء والمصلحين الدينيين فتعال نسأْل النصيحة اثنين من الملحدين ، ودعنا نبدأ بالأستاذ «هوسمان» بجامعة كامبردج . لقد ألقى في عام ١٩٣٦

محاضرة في جامعة كامبردج قال فيها: لعلَّ أعظم الحقائق التي وردت على لسان إنسان هي التي انطوى عليها قول السيد المسيح - عن ربه طبعاً - : من وجد حياته يضيئها ، ومن أضاع حياته من أجله وجدها .

نعم ، لقد سمعنا وعاظاً كثيرين يقولون مثل هذا القول ، ولكن «هوسمان» ليس واعظاً ، وإنما هو ملحد ، متشارِئ ، فكر في الانتحار أكثر من مرة ، وبرغم ذلك كله فقد أحسَّ أنَّ الرجل الذي يُقصُّ تفكيره على نفسه لا ينال من الحياة شيئاً يذكر ؛ بل أخرى به أن يكون شقياً تعسياً ، أمّا الرجل الذي ينسى نفسه في معاونة غيره فيصيب متعة العيش .

إذا لم يكن لقول «هوسمان» تأثير عليك فلنسأل النصيحة أعظم ملحد أمريكي في القرن العشرين ، وأعني به «تيودور دريزر» ، لقد سخر «دريزر» من الأديان جمِيعها ؛ ووصفها بأنها أساطير الأولين ، وقصص من نسج الخيال ، وقال عن الحياة : «إنها قصة يرويها أبله ، لا مغزى لها ، ولا معنى». ولكن «دريزر» برغم ذلك يقول : إذا شاء الرجل أن يستخلص من الحياة المتعة ، فعليه أن يساهم في احتلال المتعة للآخرين ، فإنَّ متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ، ومتعة الآخرين تعتمد على متعته) .



من المخزن أن تصل سمعة الوعظ الديني إلى هذا الدُّرُك ، حتى يضطر الموجّهون -  
كى يقنعوا الآخرين بسداد نصائحهم - إلى الاستدلال عليها بكلام أكابر الملحدين !!  
ولماذا؟ ليعلم الناس أنَّ الأمر ليس مَصْيَدة لاقتناص ثواب الآخرة .  
وليس استدراجاً لإطاعة أوامر الله .

لا ... إنَّ الأمر يقوم على حقيقة علمية يجب أن يستوي المؤمنون والكافرون  
في احترامها .

إذن فلنحبَّ غيرنا ، ولنجتهد في إسعاده ، فذلك أفضل طريق لراحة أنفسنا وضمان سعادتها ، وليس في ذلك استجابة لوعظ أو إرشاد .

ونحن نعلم أنَّ الأَثَرَ نَقْمة على أصحابها وعلى الناس ، وأنَّ الله عزٌّ وجل شرع لنا من التعاليم ما يُجنبنا نقائصها ، وما يجعل من البشر جماعات متكافلة متعاونة على

البر ، متواصلة بالمرحمة . فلنسمع إلى هدایات الله في هذا الشأن ، علّ ما بها من روعة وجلال يغنينا عن أقوال المحدثين الصغار أو الكبار .

إنَّ المسلم الكامل عضو نافع في أمته ، لا يصدر عنه إلَّا الخير ، ولا يُتوقَّع منه إلَّا الفضل والبر ، فهو في حركته وهدائه شعاع من نور الحق ، ومدد من روافد البركة واليمن ، وعون على تقريب البعيد وتذليل الصعب .

يسعى في هذه الحياة وقلبه مفعم بالمحبة ، ولسانه رَطْبٌ بالودِّ والمسالمة ، ويده مبوسطة بالنعمة بفقيتها على من يلقاه ، ويقدمها - من غير تكُلف - إلى سواه .

تلك هي طبيعة الإسلام ورسالة المسلم في هذه الحياة . قال رسول الله ﷺ : «على كل مسلم صدقة» . فقالوا يانبئي الله فمن لم يجد؟ قال : «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» . قالوا : فإن لم يجد؟ قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف» . قالوا : فإن لم يجد قال : «فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر ، فإنها - أى هذه الخصلة - له صدقة»<sup>(١)</sup> .

وهذا الحديث الكريم يقسم الناس درجات حسب مواهبهم ومنازلهم .

فالقوىُّ الجَلَد زكاة قوته وجَلَدُه أن يزيد في إنتاج الأمة ، وأن يسهم في نهضتها العامة ، وأن يصل نشاطه بنشاط أنداده ، فيتعاونون جمِيعاً على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

وهو بهذا العمل ينفع نفسه ، ويؤدي الضريبة التي تجب عليه للمجتمع الذي يحيا فيه ، تلك الضريبة التي عبر عنها الحديث الشريف بقوله : «على كل مسلم صدقة» فمن عجز عن هذا العمل الإيجابي الواسع فلن يعجز أن يكون عوناً لآخرين ، ومؤيداً للعاملين .

فإذا لم يرحم بنفسه أعنان الراحمين .

وإذا لم ينفع بقوته ساعد النافعين وشدَّ أزر المكافحين .

وذلك ما عَبَرَ عنه الرسول الكريم بقوله : «يعين ذا الحاجة الملهوف» .

(١) رواه البخاري .

وقد يكون المسلم في مرتبة دون هذه وتلك ، ليس له من بواطن الكمال ووسائل الترقى ما يجعله قويًا ينفع أو معيناً يشفع . فعليه عندئذ أن يلزم خاصة نفسه في فعل الخير ويترك الشر ، ويتمسّك بالخصلة الباقية له من شعب الإيمان ؛ فلعل هذا أن ينجو به ، كما دل على ذلك ختام الحديث : «**فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة**» .

هذه هي معالم السلوك الطيب كما شرحها رسول الإسلام ، تلمح فيها أن المؤمن خير كله ، يتلألق في جبينه الشرف ، وتلتسمس في سيرته المروءة ، ويُقبل عليه من يعرفونه ومن يُنكرونه ، وهم واثقون من نُبل خصاله وكرم خلاله .

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَا يُرْجِحُ خَيْرَهُ وَلَا يُؤْمِنُ شَرَهُ .

والمؤمن لن يكون كذلك أبداً، فصلته بالله عز وجل تجعله مرجواً الخير مأمون الشر، ورسالته في الحياة لا تجعله عضواً أشل ولا عضواً فاسداً، بل عضواً يحقق الصالح العام، ويرتقب في ظله الأمانُ ونجُوحُ المقصد.

وقد ضرب رسول الله مثلاً للمؤمن بالنخلة ، كل شيء فيها ينفع ، كأن المؤمن على اختلاف أحواله لن يكون إلا نافعاً ، وإن تفاوت مظاهر نفعه وتبينت آثارها ، ولعل في

ذلك تفسيراً للآية الكريمة : **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَسْجَرٍ وَطَيِّبَةً أَصْلَهَا ثَابِتٌ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴾** تَوْقِيْـ  
ـ أُكَـ لَهَا كَلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾١﴾

فالآية تشرح طبيعة المؤمن ونتائج صدق اليقين في سلوكه .

إنَّ فؤاده ينبع جياش بالإحساس والإفضال ، وحياته سلسلة موصولة الحلقات من فعل الخير ودعم المثل العليا وإبراز عناصر الفضيلة .

والجماعة المؤمنة يجب أن تكون صورةً لما وعنته تعاليم الإسلام من إعطاء خلل الخير، وإنكار خلل الشر، صورةً تجعل أهل الأرض جميعاً ينظرون إلى أمتنا فتعجبهم أحوالها وتزدهيهم أفعالها.

فإن الناس لا تُغريهم الأقوال المعسولة قدر ما تُغريهم الأعمال الجليلة ،  
والأخلاق الماجدة .

۲۴ - ۲۵ : ای اہمیں (۱)

رُوِيَ أَنَّ صَحَابِيًّاً وَقَعَ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ فَجُبِسُوهُ لِيُقْتَلُوهُ ، فَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ صَبَّىٌ مِّنْ أَهْلِ الْحَىٰ وَقَعَدَ فِي حَجْرِهِ ، وَكَانَتْ بِيَدِ الْأَسِيرِ مُوسَىٰ يَحْلِقُ بِهَا زَوَائِدُهُ ، فَتَلَفَّتْ أَمْ الصَّبَّىٰ مَذْعُورَةً ؛ وَقَدْ رَأَتْ وَلِيْدَهَا فِي حَجْرِ الْأَسِيرِ ، وَطَارَتْ بِلَبَّهَا الظُّنُونُ ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَرَزْعَةٌ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا الْأَسِيرُ فِي وَدَاعَةٍ وَرَقَّةٍ وَقَالَ لَهَا : «أَظَنْتَ أَنْ يَصِيبَ ابْنَكَ شَرًّا ، كَنْتَ لَأَفْعُلَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»<sup>(1)</sup> .

ذَاكَ هُوَ الْمُسْلِمُ الْحَقُّ . وَرُوِيَ أَنَّ «أَبَا ذِرٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ : «عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدْقَةً» . قَلَتْ : «يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَنْ أَيْنَ أَتَصْدِقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟» . قَالَ : «مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ : التَّكْبِيرُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمِ وَالْحَجَرِ ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى ، وَتُسْمِعُ الْأَصْمَىً وَالْأَبْكَمَ حَتَّىٰ يَفْقَهَ ، وَتَدْلِيلُ الْمُسْتَدِلِ عَلَىٰ حَاجَةِ لِهِ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا ، وَتَسْعِي بِشَدَّةِ سَاقِيكَ إِلَى الْلَّهْفَانِ الْمُسْتَغْيِثِ ، وَتَرْفَعُ بِشَدَّةِ ذَرَاعِيكَ مَعَ الْمُضْعِيفِ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»<sup>(2)</sup> .

فَانْظُرْ سَعَةَ الدَّائِرَةِ الَّتِي يَمْتَدُ إِلَيْهَا نَشَاطُ الْفَرَدِ الْوَاحِدِ فِي مَسَاعِدِ الْآخَرِينَ وَمَوَاسِيَّهُمْ .  
إِنَّ الْعَافِيَةَ إِذَا مَلَأْتَ بَدْنَ امْرَئٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْيِطُ بِهَا حَقَّوْا جَمَّةً ، وَيَفْرُضُ عَلَىٰ كُلِّ عَظِيمٍ وَعَصِيبٍ مَدْدَأً يَنْشَطُ عَلَيْهِ الْضَّعَافُ ، وَيَسْتَرِيحُ بِهِ الْمَصَابِونَ ..  
وَلَا غَرُوْ فَالْعَافِيَةُ رَأْسُ مَالِ ضَخْمٍ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَسْيَئُونَ اسْتَغْلَالَهِ وَيَحْقِرُونَ مَنَاهِلَهِ .

إِنَّ كَانَتْ هَذِهِ وَظِيفَةُ الْمُسْلِمِ الْوَاحِدِ فِي بَيْتِهِ الْمَحْدُودَةِ فَكَيْفَ تَكُونُ وَظِيفَةُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَيْنَ أَمَّ الْعَالَمِ أَجْمَعِ؟ إِنَّ أَدَاءَ حَقَّ اللَّهِ فِي هَذَا الْمُضْمَارِ النَّافِعِ أَسَاسُ النِّجَاحِ فِي الدُّنْيَا وَأَسَاسُ الْفُوزِ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «صَنَاعَ الْمَعْرُوفِ تَقِيُّ مَصَارِعِ السُّوءِ ، وَالصَّدَقَةُ تَطْفَئُ غَضْبَ الرَّبِّ ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَوْلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ» .



(2) مَسْنَدُ أَحْمَدَ .

(1) الْبَخَارِيُّ .

للحياة في الجسم علائم تدلّ عليها من إحساس ونبض وحرارة .  
وللإيمان في القلب علائم تدلّ عليه ، وتلفت إلى وجوده حيّاً يؤدي واجبه ،  
ويستعدّ لما يكُلّ به .

وقد نَبَّهَ رسول الله إلى مَعْلَمَ خطير من معالم الإيمان حين قال : «إذا سرّتك  
حسنتك وسأءلك سينتئك فأنت مؤمن» .

أجل ، فإن انتشار الصرد لخير تفعله وانقباضه لسوء ترتكه دليل على أن هناك معنى  
معيناً يسيطر عليك ، ومقاييساً خاصاً تضبط به ما تحب وما تكره من خلق أوسلوك .

أما الرجل الذي يواعد الدنيا غير متأنٍ بما يصدر عنه فهو رجل ميت الضمير ،  
والضمير الميت كالجسم الميت لا يتحرك لطعنة بله أن يهتز لوخزة !!

والإسلام يفترض أنَّ الخير في نفس المؤمن بعيد الغور كطبقات التربة الخصبة ،  
كلما ضربت الجذور فيها وَجَدْتُ عناصر موفورة بأسباب الحياة والنمو .

ومن ثَمَّ فالمؤمن فعال للخير عن عشق ، ماضٍ فيه على تشبيت ورسوخ .

أما الآخرون من أدعياء المجتمع ، ومتصنّعى الخير لضرورات طارئة ، فإن قلوبهم  
متحجرة قاسية ، وقد يكتسي هذا الحجر الجلدي بطبيعة من الغبار والأترية ، بيد أنَّ  
هذا الغبار المتراكم - مهما كثُر - لا تنبت فيه بذور ، ولا تصلح عليه زراعة !!

هكذا ضرب الله لنا أمثلة الأدعية والأصلاء في فعل الخير . فقال :

**﴿لَا يُبْطِلُوا أَصْدَقَاتِكُمْ بِالْمُنَّ وَالْأَذَى كَذَلِّي**

**يُفْعِلُ مَا لَوْرَأَهُ الْمَنَسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ فَتَلَهُ كَمَشَلٍ**

**صَفَوَانٌ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَأَبْلَى فَرَكَكُهُ صَلَدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى**

**شَغْعَتِهِ كَسْبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكُفَّارِنَ ﴿١﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ**

**يُفِيقُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا يَنْعَمُ مَرَضَاتِ اللَّهِ وَتَبَيَّنَتْ مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَشَلٍ**

**جَنَّةٌ يَرْبُوُهُ أَصَابَهَا وَأَبْلَى فَعَاثَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنَّمَّا يُصْبِهَا وَأَبْلَى**

**فَطَلَّ وَاللَّهُ عِنْدَهُمْ مَا عَمِلُونَ بَصِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>**

(١) البقرة : ٢٦٤ - ٢٦٥ .

كما ينزل المطر على الرخام فيغسل ما على سطحه ، ويكشف عن طبيعته ، يجئ  
الجزاء الأعلى فيكتسح ما على القلوب المتحجرة من تراب يشبهها بالأرض الخصبة ،  
وبذلك تبدو على يُبسها وجفافها وإقفارها من المعروف والفضل .

أما القلوب الأخرى فإنَّ أسرار البركة المودعة فيها ، وأمال البر والإحسان المرتقبة  
منها تجعل الجزء الأعلى يحل بها غياثاً عدقاً ترع به وتزدان .

فلنفعل الخير عن حبٍ مكين ، ولنطهره من علل المن والظهور ، ولنتحرر من  
الأغراض الصغيرة التي تجعل الرجل لا يعطي إلا ليكتسب نصيراً ، أو ليتخذ يداً .

### ﴿۳۴۳۴۳۴﴾

والأمر يحتاج إلى مراقب طويل كيما يخلص العمل من الشوائب التي تشينه ،  
فتتشبث «الأنانية» بالنفس كبير ، والتماس العوض العاجل على بذل المعروف شائع  
بين الناس ، وإن اختلفت مشاربهم في نوع هذا العوض ومقداره .

ولن يخطئك - وأنت تلمح مسالك الناس - أن ترى طغيان الذات - لا حب الذات -  
كامناً وراء الكثير من الأعمال والأحوال ، وإن اجتهد أصحابها في إلباسها صوراً  
بعيدة عن الريبة والجور .

والاضطراب الاجتماعي الذي نعانيه إنما ينبع من هذه العين الحمئة ، فإنَّ  
فقدان التعاون ، وقلة الاتكتراث بشؤون الجماعة ، وتأخير الاهتمام بالبلد الذي نحيا  
فيه والأمة التي نرتبط بها والرسالة التي ننتمي إليها ، كل ذلك أマارة على ضعف  
اليقين ونجمون النفاق .

وقد وصف الله عز وجل المنسحبين من معركة أحد وصفاً يكشف عن داء الأنانية  
المتغلغل في نفوسهم فقال :

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهْمَنُوهُمْ أَنفُسُهُمْ يُظْنَوْنَ  
بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِيقَةِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ  
الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (١)

(١) آل عمران : ١٥٤ .

فهؤلاء قوم أعجبتهم أنفسهم وحدها وأراؤهم وحدها ، فإذا لم يسمع لهم ، وإذا لم ينزل الآخرون على رأيهم ، فلن تراهم إلا ساخطين ناقدين .

ومن هؤلاء من يربط رأيه بهدى المنفعة التي تعود عليه ، فإن امتلأت يداه صاحب حاماً ، وإن نسي أوتونوسى انقتل يصخب ويحتاج ويتلمس المطاعن .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْبِسُكَ فِي الصَّدَقَاتِ إِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضْوًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوهُمْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿١﴾

وجمهور كبير من الناس يعيشون في حدود مطالبهم الخاصة ، فإذا كانت لهم حاجة اشتد إحساسهم بها ، وطال إلحاحهم في قضائهما . ولا يزالون يسعون وراء الذي لهم ، - أو بتعبير أدقّ - ما يرون أنه لهم حتى يدركوه عن آخره ، بل يزيدون ويغالون .

أَمَا إِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ فَهُمْ يَذْهَلُونَ عَنْهُ، وَقَلَّمَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا إِذَا طُلِبُوا بِهِ وَأَزْعَجُوا  
إِلَيْهِ، فَإِذَا أَدَّوْهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ أَدَاءٌ ناقصٌ مُبْتَسِرٌ.

هذا لون من الأثراء الجشعة الجائرة ذكر القرآن بعض صوره في قوله عز وجل :

وَيْلٌ لِّلْمُطْفَقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفِنُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا  
كَالُوهُمْ أَوْ زَوَّهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَذَّلِّنَ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مُبْعَثُرُونَ ﴿٤﴾  
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

وهذه الأثرة التي تظهر في ضعف الإيمان بالحق والجزاء ، كما تظهر في بخس مكial أو ميزان ، تظهر فيما هو أكبر وأجل .

وقد ذكر القرآن صورة أخرى لها في الرجل يقبل الحكم له لأنّه مَغْنِمٌ ، ويرفض الحكم عليه لأنّه مَغْرِمٌ ، غير ناظر لعدالة أو مصلحة عامة :

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرَقْتَ مِنْهُمْ مَوْعِدَهُنَّ ﴾١٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمُ الْحُقْقُ يَأْتُو أَلَيْهِ مَذْكُونُينَ ﴾١٩﴾ أَفَقُلُوا هُم مَرْضٌ أَمْ أَنَّا نَبْرُو...﴾ (٢)

(١) التوبه: ٥٨ . (٢) المطففين: ٦ - ١ . (٣) النور: ٤٨ - ٥٠ .

إنَّ هذا النوع من الخلق الرديء يسىء إلى المجتمع الإسلامي إساءة بالغة .  
فإنَّ الشخص الذي لا تهيجه إلا منافعه الخاصة ، ولا يكتثر للمصلحة العامة  
شخص تشقي به البلاد والعباد .

وكم تُضارِّ الدولة من موظف يستغرق انتباهه كله حديث المرتبات والزيادات ، ولا  
يهم أدنى اهتمام بحديث العمل الواجب .

إنَّ لا يشعر إلا بما يحسبه حقاً له . أما ما ارتبط بذمته من تكاليف ، واقترن بهمَّته  
من مطالب وأعمال فهو لا يدريه .

وما على هذا تبني أمة ، أو يقوم مجتمع .

والمجتمع الزكيُّ يقوم على رجال يعرفون حقَّ الله ، وحقَّ الجماعة عليهم ، ويقوم  
بانشغال هذا وذاك بأداء ما عليهما من واجب ، فإنَّ الشمرة الدانية في هذا المجتمع أن  
يصل إلى كل امرئ حقَّه الطبيعيُّ دون ضَجَرٍ أو جدل .

والأنايون عندما يسلطون أفكارهم الضيقة على الدين يسخون نصوصه ، ويحرّفون  
الكلِّم عن مواضعه ، فهم يفهمونه ثواباً بلا عمل ، وثمرة بلا غرس ، أو عقاباً يقع على  
الآخرين وحدهم ، هيئات أن يمسُّهم منه لفع !!

أجل فإنَّ المخصوصين في حدود أنفسهم وأثرَتهم ومنافعهم الذاتية تتعكس نصوص  
الدين مشوهة في أفكارهم ، فليسوا يفهمون منها إلا ما يشهون .

سألني بعضهم : أليس مصيرنا الجنة نحن المسلمين مصدق قول رسول الله : «من  
قال لا إله إلا الله دخل الجنة»<sup>(1)</sup> .

فنظرت إليه وقدَّرت المسافة بين عمله وأمله فوجدتها بعيدة بعيدة .

ورأيت أنه لا يحفظ من الإسلام إلا ما يظنُّه عوناً على كسله .

المتسول الذي تغيب عن ذهنه آيات القرآن كلها ، فلا يعى منها إلا آية واحدة :

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالَهَا﴾<sup>(2)</sup>

(1) البخاري . (2) الأنعام : ١٦٠ .

فهو يقرأ الآية ليستدرّ بها الأكفّ ويجمع الأموال .

قلت : ألا تعرف من سُنّة رسول الله إلّا هذا الحديث وحده؟

إنَّ رسول الله إلى جانب ما رويت يقول : «لا يدخل الجنة قاتٍ»<sup>(١)</sup> .

ويقول : «لا يدخل الجنة قاطع رحم»<sup>(٢)</sup> .

ويقول : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر»<sup>(٣)</sup> .

ويقول : «ليس منا من غشنا»<sup>(٤)</sup> .

ويقول : «ليس منا من لطم الخدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية»<sup>(٥)</sup> .

ويقول : «ليس منا من خبب - أى أفسد - امرأة على زوجها»<sup>(٦)</sup> .

ويقول : «ليس منا من لم يوقر كبارنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعلنا حقه»<sup>(٧)</sup> .

أفسيتَ هذه السننَ كُلَّها لأنَّها تدلُّك على ما ارتبط بعنقك من واجبات ولم تَعِ إلا  
ما حسبته حقاً لك وهو الجنة ، فأنتَ تطلبه بلا ثمن؟!

وهذا الصنف من الناس ضعيف الإِحساس بأخطائه ، فإذا أُكره على الشعور بنقيضه  
اقترفها اعتقاد أنَّ في استطاعته تكفير سيئاته كلها باعتذار تافه ، أو حسنةٌ خفيفةٌ .

إنَّ أولى الألباب لَمَّا دعوا الله أن يغفر ذنوبهم ، كان من إيجابته لهم أن قال :

﴿فَالَّذِينَ هَا جَرَوْا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِهِ وَقَاتَلُوا وَقُتُلُوا لَا كُفَّرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخُلُنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾<sup>(٨)</sup>

(١) البخاري .

(٤) مسلم .

(٣) الترمذى .

(٢) البخاري .

(٨) آل عمران : ١٩٥ .

(٧) الترمذى .

(٥) الترمذى .

أَمَّا الحُمْقى فِيهِمُ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ خَطِيئَاتِهِمُ الْكَبْرِيَّ تَذُوبُ مِنْ تَلَقَّاهُ  
نَفْسَهَا ، دُونَ أَنْ تَعْالَجَ بِالدَّلَّكِ وَالتَّطْهِيرِ وَالإنْقَاءِ ، وَمَا يَسْتَبِعُهُ ذَلِكُ مِنْ جَهْدٍ  
مُضْنٌ وَسَهْرٌ طَوِيلٌ .

أَعْرَفُ مِنْ مَطَالِعَاتِي الْكَثِيرَةِ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأَثَارِ مَا يَقْرَنُ الْمَغْفِرَةَ الْعَامَةَ بِعَمَلٍ قَدْ يَبْدُو  
فِي ظَاهِرِهِ سَهْلًا لِلْأَدَاءِ ، كَتْسَاقْطُ الذَّنْوَبِ مَعَ قَطْرَاتِ الْوَضْوَءِ مَثَلًاً ، فَلَا يَضْطَرِّبُ  
فَهْمُكَ فِي قِيمِ الْأَعْمَالِ لِهَذِهِ الظَّواهرِ .

وَتَأكِيدُ أَنَّ الْثَوَابَ الْجَزِيلَ لَا يُسَوقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَمَلِ كَالْوَضْوَءِ ، إِلَّا إِذَا صَاحِبَهُ  
مِنْ عَمَقِ الإِيمَانِ وَصَدْقَ الْإِخْلَاصِ وَجَمَالِ الْاحْتِسَابِ مَا يَجْعَلُ صَاحِبَهُ أَهْلًا لِأَنَّ  
يَبْذُلَ النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى .

إِنَّ الدِّينَ حُقُوقٌ وَوَاجِباتٌ ، وَإِنَّ الدُّنْيَا حُقُوقٌ وَوَاجِباتٌ .

وَكُلُّ عَقدٍ ذِي بَالٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ فَهُوَ يَنْطُوِي عَلَى حُقُوقٍ وَوَاجِباتٍ .

فَأَدَّ وَاجِبَكَ ، وَأَشْعَرْ بَعِيْبَهُ عَلَى كَاهْلَكَ ، وَلَا تَلْتَمِسْ مِنْهُ الْمَهَارَبَ .

فَإِذَا وَفَيْتَ بِمَا عَلَيْكَ ، فَانتَظِرْ حَقَّكَ ، أَوْ اطْلُبْهُ كَامِلًا فَلنْ يَعِيْبَكَ أَحَدٌ .

أَمَّا أَنْ يَنْطَلِقَ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا مُتَطَلِّعًا شَعَارَهُ : « هَلْ مِنْ مُزِيدٍ » مِنْ غَيْرِ كَفَايَةٍ  
وَلَا اسْتِحْقَاقٍ ، فَهَذِهِ هِيَ الْكَارَاثَةُ .

وَمُثْلُ هَذَا الْمُسْلِكِ لَا تُضْمِنْ بِهِ دُنْيَا ، وَلَا يَصْحُ بِهِ دِينٌ .



## نقاء السر والعلانية

علاج الأمور بتغطية العيوب وتزويق المظاهر لا جدوى منه ولا خير فيه ، وكل ما يُحرزه هذا العلاج الخادع من رواح بين الناس أو تقدير خاطئ لن يغير شيئاً من حقيقته الكريهة .

ومن هنا لم يحفل الإسلام بالظواهر إذا كانت ستاراً للتشويه مَعِيبٌ ، أونقص شائنٍ ، فما قيمة المظهر الحلو إذا كمن وراءه مخبر مرّ؟!

من قديم غالى العرب بجمال الحقيقة ، ولم يسمحوا للعنوان - وإن لم يكن كفأها - أن يخدش من قدرها ، فقال قائلهم :

إذا المرء لم يدنسْ من اللؤم عرضه      فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل!!  
على حين حَقَّروا جمال الملامح إذا كانت النفس خبيثةً ، والخلق وضيعاً ،  
قال الشاعر :

علي وجه مي مسحة من ملاحة  
ألم تر أن الماء يكدر طعمه  
وتحت الثياب الخزي لو كان باديا  
وإن كان لون الماء أبيض صافيا؟

من أجل ذلك لم يعتد الإسلام بتكميل الإنسان وتجمله إلا إذا قام هذا التسامي على نفس طيبة ، وصحيفة نقية ، وفؤاد زكي ، وضمير أصي من داخله ، فله سنَا يهدى صاحبه إلى الصراط المستقيم .

الجمال عمل حقيقي في جوهر النفس ، يচقل معدنها ، ويذهب كدرها ، ويرفع خصائصها ، ويعصمها من مزالق الشر ، وينقذها من خواطرسوء ، ثم يبعثها في الحياة كما تنبعث النسمة اللطيفة في وقدة الصيف ، أو الشعاع الدافئ في سبرة الشتاء ...

وعندما تبلغ النفس هذا المستوى ترتد وساوس الشيطان عنها لأنها لا تجد مستقرًا فيها ، بل لا تجد مدخلًا إليها .

إنَّ المرء يتَجاوب مع معانٍ الخير والشر الطارئة عليه من الخارج ، كما يتَجاوب جهاز الاستقبال مع الموجات الطوال أو القصار التي تُرسَلُ إليه .

فبحسب وضعه وانضباط آلاتِه على جهة مُعيَّنة تكون طبيعة الإِذاعة التي تصدر عنه .

كذلك الإنسان إذا طابت نفسه أو خبست .

إنه في الحالة الأولى يحيا في جوًّ من الخير تنحسر دونه موجات الإِثم والعصيان ، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُ لَمِنْ لَّهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَلَى الَّذِينَ يَوْمَ يَوْكُونُ ﴾  
﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

أما في الحالة الأخرى فإنَّ المرء يستجيب لدُوافع الجريمة التي تُلْعِنُ عليه ، وتسوقه إلى مصير كئيب ، وذلك قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ  
تَؤْزِيْهِمْ أَزْأَلَهُمْ فَلَا يَعْلَمُونَهُمْ إِنَّمَا عَدُوهُ عَدًا ﴾<sup>(٢)</sup>

وقد طلب الله من عباده أن ينقُوا سرائرهم من كل غشٍّ ، وأن يحفظوا بواطنهم من كل كدر ، وأن يتحصنوا من كيد الشيطان بضاعفة اليقظة وإخلاص العمل ، وصدق التوجُّه إليه جلَّ شأنه . وأنزل سورة كاملة تدعو إلى الوقاية من الهوا جس الوضيعة والخواطر المظلمة ، وتحفظ على المرء إشراق روحه ونقاوة جوهره . وإليك السورة كاملة :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَكِّلِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ  
الْوُسُوْسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ  
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٥﴾<sup>(٣)</sup>

هذه الاستعادة تصوّر لجأ المؤمن إلى الله يحتمي بقوته ويستجير بعزّته ، أن يُبقي عليه جمال نفسه غير مشوب بوسوسة شيطان ، ولا معيبٍ بنية غدر أو خَتَلٍ أو شرٍ لا أحد من الناس .

(٣) سورة الناس .

(٤) مريم : ٨٣ - ٨٤ .

(٥) النحل : ٩٩ - ١٠٠ .

والاستعادة لا بدّ منها من عمل .

فإذا قال الفلاح : أَعُوذ بالله من القحط ، فما يُقبل منه ذلك إِلَّا إذا كان يقوله وهو يحرث أرضه ، ويسقى زرعه ، ويتعهد جهوده حتى تبلغ نهايتها .

وإذا قال التلميذ : أَعُوذ بالله من السقوط ، فما يعنيه هذا إِلَّا إذا أقبل على دروسه يستذكرها ، وعلومه يحصلها ، و المعارف المشتتة يصل قاصيها بداناتها .

وإذا قال المسلم : أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فما يجديه هذا إِلَّا أن يكون مقاوماً لإغراء الشر ، مدافعاً للسيئات التي تعرض له ، دائم التحقيق مع معانى العبادة المفروضة عليه .

أمّا أن يقول : أَعُوذ بالله وهو مُخلدٌ إلى الأرض يتبع هواه ، فذلك ضربٌ من التناقض ، لا ينطلى على عالم الغيب والشهادة .

الإسلام في عالم النفس جمال ينفي القبح ، ونظام يطارد الفوضى .

والعظمة الحقيقة أن يستقر المرء في دخيلة نفسه على حال من السكينة واليقين ييأس منها الشيطان أن يقذف في روعه بنكر .

انظر إلى الريح العاصف ، إنه يهب على الصحراء فيشير فيها الغبار .

ويهب على الماء فيغضّ وجهه ، ويحرك لجهه .

ولكنه يُناوش الجبال الشمّ فلا ينال منها منلاً .

والإنسان إذا كان أمره فرطاً ، فإنّ وساوس الشيطان تشير داخل نفسه زوابع لا ينتهي لها دوار ولا عكار .

أمّا يوم يحزم أمره ، وينتظم الإيمان شئونه كلّها ، فهيهات أن يهتز لهجمات الأ بالسة .

وإصلاح النفس لا يتم بتتجاهل عيوبها أو بإلقاء ستار عليها .

وتحميّلها لا يكون بإقامة إهاب تضرّ تكمّن وراءه شهوات غلاظ وطبع فجّة .

الحسن المحبوب أن يستوي الظاهر والباطن في نصاعة الصحيفة واستقامة السيرة .

﴿وَذَرْ رَوْأَظِهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيِّئُونَ﴾

﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾<sup>(1)</sup>

(1) الأنعام : ١٢٠

ويجب أن نعلم بأن اكتمال الخصائص الإنسانية الفاضلة لا يتم طرفة ،  
ولا ينشأ اتفاقاً .

بل هو نتيجة سلسلة من الجهود المتلاحقة ، والبرامج المدروسة ، والإشراف الدقيق .  
إنَّ الملَّاكَاتِ العظيمَةِ تكُونُ فِي النَّفْسِ كُمُونَ الْجَمَالِ وَالْعَذُوبَةِ وَالْحَلْوَى فِي  
الْبَذُورِ وَالْبَرَاعِمِ .

وكما تتضارف الحرارة والمياه وضرورب العناية على استخراج أطابع الشمر من هذه  
الأصول المطوية الضامرة ، تتضارف عناصر البيئة الصالحة والتربية الراسخة على تفتیق  
المواهب العليا في الإنسان ، وإنصاج ما يولد فجأةً في أيام الطفولة وعهود الحداة  
الأولى ، حتى يبلغ مداره ، ويصل إلى مستواه .

وكثيراً ما تُعطب الشمار ويقلّ المحصول لفساد الجو الذي أحاط بالزرع .

وكثيراً ما تفسد الأجيال وتلتهم نضارتها الآفات لقصور المربيين والمعلمين عن تهيئة  
الجو الذي تنبت فيه الناشئة نقية الفطرة مصونة النماء .



على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَهْبِطُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ إِلَّا إِنْسَانًا تَعُودُ إِلَيْهِ الْإِحْسَانُ  
فِي شَيْوَنِهِ كُلُّهَا .

وتقنَّ من ضبط نفسه وإحكام أمره وتسديد خطاه .

ومشى على الصراط المستقيم لا تهزمه وساوس الشر ، ولا ترده عن غايته  
غمزات الشياطين .

يقول الله في عبده الصالح يوسف :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَدَ رَءَاهُنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجَّرِي الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>

أي مثل ما آتى من أفضاله جزاء اكتمال رجولته وصدق نيته وشرف سيرته ، يؤتى به  
من يقتدون به في إحسان العمل وإجمال السلوك .

والمربيون الأوائل من علماء الإسلام لهم جهاد هائل في قيادة النفوس إلى الحق ،  
وتخليصها من غرائز السوء التي تشقق بها إلى الخضيض .

(١) يوسف : ٢٢ .

وحسُّهم في هذه المجالات الراقية بلغ من الدقة شائعاً لا نعرف له نظيراً .  
وهم يُهيبون بالإنسان أن يرتفع ، ويناشدونه في حرارة وإخلاص أن  
يقاوم ذرائع السقوط .

ويذكرون أنه يملك - من فطرته الأصيلة - ما يستطيع به الاستعلاء .

ومن الآداب التي ذكروها نلمح أنهم لا يعرفون التدين إلا يقظة في العقل ، ونبلاً  
في العاطفة ، وسيادة لا تلتحقها ضعة ، وتحليقاً لا يُدْنِيه إسفاف .

لقد وضعوا طرائق<sup>(١)</sup> للرياضة النفسية تُعدُّ من أبدع الدساتير في عالم الأخلاق ،  
وهم يوصون مُدمَنِ الشهوات بـ ملاحظة الأمور الآتية ، وهي كفيلة بـ تخلص أسير الهوى  
من براثن الشيطان عندما يغريه بـ مواجهة المعصية :

الأول : عزيمة حر يغار لنفسه وعليها .

الثاني : جُرعة صبر يحمل نفسه على مرارتها ساعة الإغراء .

الثالث : قوة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة . والشجاعة كلُّها صبر ساعة ،  
وخير العيش ما أدركه العبد بصبره .

الرابع : ملاحظة حسن موقع العاقبة ، والشفاء بتلك الجرعة .

الخامس : ملاحظته أنَّ ما ينشأ عن الهوى من ألم أشدُّ مما يحسه المреء من لذَّة .

السادس : إبقاءه على منزلته عند الله تعالى . وفي قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له  
من لذَّة مرفقة الهوى .

السابع : إيثار لذَّة العفة وعزَّتها وحلاؤتها على لذَّة المعصية .

الثامن : فرحة بـ غلبة عدوه ؛ وقهره له ، ورده خائباً بـ غيظه وغمّه وهمه ؛ حيث لم  
ينل أمنيته .

التاسع : التفكير في أنه لم يُخلق للهوى ، وإنما هُيئ لأمر عظيم لا يناله إلا  
معصية الهوى .

(١) الآداب المذكورة بعد للعلامة ابن القيم نقاً عن التصوف الإسلامي لزكي مبارك .

العاشر : أن يكره لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسنَ حالاً منه ؛ فإنَّ الحيوان يميّز  
طبعه بين موضع ما يضره وما ينفعه فيؤثر النافع على الضار ، والإنسان أعطى  
العقل لهذا المعنى .

الحادي عشر : أن يسير بفكرة في عواقب الهوى ، فيتأمل كم أفاقت عليه معصيته  
من فضيلة ، وكم أوقعته في رذيلة ، وكم أكلة منعت أكلات ، وكم من لذة فوت  
لذات ، وكم من شهوة كسرت جاهًا ، ونكست رأساً ، وقبحت ذِكْرًا وأورثت ذمًا ،  
وألزمت عارًا لا يغسله الماء ، غير أن عين الهوى عمياً .

الثاني عشر : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من يهواه ، ثم يتصور حاله بعد قضاء  
الوطر ، وما فاته وما حصل له .

الثالث عشر : أن يتصور ذلك في حق غيره حقَّ التصور ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ،  
فحكمُ الشيء حُكمُ نظيره .

الرابع عشر : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله ودينه  
يخبرانه بأنه ليس بشيء .

الخامس عشر : أن يأنف لنفسه من ذلٌّ طاعة الهوى ، فإنَّ ما أطاع أحد هواه إلا  
وجد في نفسه ذلاً ، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكِبُرُهم ، فهم أذلُّ الناس بواطن ، قد  
جمعوا بين الكِبْر والذلِّ .

السادس عشر : أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ، وبين نيل اللذة  
المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة ، فليعلم أنَّه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

السابع عشر : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإنَّ الشيطان إذا رأى من  
العبد ضعف عزيمة ، وسقوط همة ، وميلًا إلى هواه ، طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام  
الهوى وساقه حيث أراد . ومتى أحسَّ منه بقوَّة عزم وشرف نفس ، وعلو همة ، لم  
يطعم فيه إلا اختلاساً وسرقة .

الثامن عشر : أن يعلم أَنَّ الْهُوَى مَا خَالَطَ شَيْئاً إِلَّا أَفْسَدَهُ ، فَإِنْ وَقَعَ فِي الْعِلْمِ أَخْرَجَ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ ، وَصَارَ صَاحِبَهُ مِنْ جَمْلَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الزَّهْدِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى الرِّيَاءِ وَمُخَالَفَةِ السُّنَّةِ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْحُكْمِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى الظُّلْمِ وَصَدَّهُ عَنِ الْحَقِّ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْقِسْمَةِ خَرَجَتْ عَنْ قِسْمَةِ الْعَدْلِ إِلَى قِسْمَةِ الْجُحْرُ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْوَلَايَةِ وَالْعَزْلِ أَخْرَجَ صَاحِبَهُ إِلَى خِيَانَةِ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ حِيثُ يُولِّي بَهْوَاهُ وَيُعَذِّلُ بَهْوَاهُ . وَإِنْ وَقَعَ فِي الْعِبَادَةِ خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ طَاعَةً وَقُرْبَةً ، فَمَا قَارَنَ الْهُوَى شَيْئاً إِلَّا أَفْسَدَهُ .

التاسع عشر : أن يعلم أَنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ مَدْخَلٌ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا مِنْ بَابِ هُوَاهُ ، فَإِنَّهُ يُطِيفُ بِهِ لِيَعْرِفَ أَيْنَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ حَتَّى يَفْسُدَ قَلْبَهُ وَأَعْمَالَهُ ، فَلَا يَجِدُ مَدْخَلًا إِلَّا مِنْ بَابِ الْهُوَى ، فَيُسَرِّى مِنْهُ سَرَيَانُ السُّمْمِ فِي الْأَعْضَاءِ .

العشرون : أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّ مُخَالَفَةَ الْهُوَى تُورِثُ الْعَبْدَ قُوَّةَ فِي بَدْنِهِ ، وَقُوَّةَ فِي لِسَانِهِ ، وَأَنْ أَغْزِرَ النَّاسَ مِرْوَةَ أَشَدِهِمْ مُخَالَفَةَ الْهُوَاهُ ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالْهُوَى وَالْعُقْلُ يَعْتَلُجَانِ ، فَأَيَّهُمَا قُوَّى عَلَى صَاحِبِهِ طَرْدَهُ وَتَحْكُّمَهُ ، وَكَانَ الْحُكْمُ لَهُ . وَأَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ جَعَلَ الْخَطَأَ وَاتِّبَاعَ الْهُوَى قَرِينَيْنِ ، وَجَعَلَ الصَّوَابَ وَمُخَالَفَةَ الْهُوَى قَرِينَيْنِ .

الحادي والعشرون : أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الْهُوَى تَخْلِيطٌ وَمُخَالَفَتَهُ حَمْيَةٌ ، وَأَنَّهُ يُخَافُ عَلَى مَنْ أَفْرَطَ فِي التَّخْلِيطِ وَجَانَبَ الْحَمْيَةَ أَنْ يَصْرُعَهُ دَاؤُهُ . وَأَنَّ الْهُوَى رِقٌ فِي الْقَلْبِ ، وَغُلٌ فِي الْعَنْقِ ، وَقِيدٌ فِي الرَّجُلِ ، وَمُتَابِعَهُ أَسِيرٌ ، فَمَنْ خَالَفَهُ عَتَقَ مِنْ رِقِهِ وَصَارَ حَرَّاً ، وَخَلَعَ الغُلَّ مِنْ عَنْقِهِ ، وَالقِيدُ مِنْ رِجْلِهِ ، وَاسْتِطَاعَ مُسَائِرَةَ الصَّالِحِينَ .

## ﴿۳۴۳۴۳۴﴾

## بين الإيمان والإلحاد

لقيت نفراً من الشبان الملحدين - وهم للأسف منتشرون في هذه الأيام انتشار الحلفاء والحسائش الضارة في أرض لا صاحب لها - وحاورت بعضهم أبغى استكشاف ما في نفسه ، فوجدت فكرتهم عن الله أشبه بفكرة اللقيط عن أبيه لا يعرفه ولا ينصحه !!  
ووجدت جمهورهم تفكير بهذا الإله عن تقليد أعمى غرور بليد . !!  
فهم يحسبون أن العلم والإيمان ضدان .

وإن الارتقاء الثقافي يصحبه حتماً إقصاء الدين من الطريق !!

ثم هم يَرَوْن أنفسهم - وإن لم يدرسوا شيئاً طائلاً عن علوم المادة - قد أصبحت لهم مكانة العلماء الذين فجروا الذرة . فهم يصطنعون نظرتهم نفسها عن الحياة وحالقها كما تُحكى لهم لا كما هي على حقيقتها ، ومن ثمَّ فهم يتبعون الأحسنَ الأحسنَ من قصور في العلم وسوء في التقليد !!

أعرف واحداً من هؤلاء ما نظر يوماً في مرصد للأفلاك ، ولا دخل يوماً معملاً للكيمياء ، ولا غمس يده في تجربة خطيرة من التجارب الكونية ، ومع هذه الجهة فهو ملحد ، لأنَّه من العلماء ، والعلماء لا إيمان لهم إلا بالمادة .

ويمكنك أن تضم إلى هؤلاء الأغوار طائفة أنصار المعلمين .

وهي طائفة عرفت بعض الحق وجهلت بعضه الآخر .

ولم تترى لتستكمِل معرفتها ، بل أصدرت حكمها الخاسِم على ضوء ما عرفت فقط .  
وتصوَّر كيف تكون فوضى التقاضي لو أنَّ القضاة أصدروا أحكامهم بعد الاستماع  
لنصف روايات الخصوم ونصف دفاع المحامين !؟

كذلك فعل أولئك الملحدون !! فقد أعلنا كفرهم بعد أنصبة محدودة من الدراسة  
التي نقلَّت إليهم بعض خصائص الأشياء ، وكشفت لهم بعض آفاق الوجود ، وحكت  
لهم بعض فصول القصة .

وهذا النوع من الكفر أعقد من صاحبه الأول لأنّه أوغل في باب الغرور والتقليل .  
 قال «فرانسيس بيكون» : (إنَّ قليلاً من الفلسفة يجذب بالعقل إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في الفلسفة خلائق أن يعود بالمرء إلى الدين) .  
 وقال : «ديلي كارنيجي» : (إنَّ لاذكر الأيام التي لم يكن للناس حديث فيها سوى التناقض بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة) .

### ٣٣٣٣٣٣

وأراني مضطراً إلى تقرير حقيقة قد تغرب عن بال كثيرين ، هي أنَّ هناك فارقاً بين الإيمان بالله كما وقع في نفوس لفيف ضخم من المفكّرين والعلماء ، وبين الانتماء إلى دين من الأديان المعروفة - خصوصاً في الغرب .  
 فإنَّ العلم المجرد هدى ألوف العلماء إلى الله ، ووقفهم أمام قدرته الرائعة مبهورين .  
 وكذلك فعل التفكير السليم عند كثير من الساسة والقادة .

بيَدَ أنَّ أولئك الذين خالجتهم إحساس قوي بأنَّ للعالم ربّا جليلاً ، استراحوا إلى هذه المرحلة من مراحل الإيمان ، وكرهوا استكمال زادهم الروحى مما يعرفون من أديان .  
 وهم معذرون في هذا التوقف إلى حدّ ما ، ففي أي طريق يسرون لطلب المزيد من معرفة الله !؟

إنَّهم إن كانوا هوداً أو نصارى لن يجدوا في كنائسهم ولا في صحائفهم ما يُغرى بتزييد من علوم الدين .

إنَّ مضات عقولهم أبانت لهم جانباً من جلال الألوهية المبدعة للوجود ، فلم يزجُون بأنفسهم في مشكلة لا تُسِيغها عقولهم أبداً ؟ وهي أنَّ هذه الألوهية مكونة مثلاً من ثلاثة أقانيم : أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس !؟  
 إذن فليقفوا عندما عرفوا .

ولينشتوا سلوكهم في الحياة على ما يطمئنون إلى صحته من تجارب وأفكار ، بعيداً عمّا يقوله أولئك الكهان والرهبان .

وأذكر أنَّ الكاهن كُلْف بزيارة «الماريشال جورنج» في أيامه الأخيرة ، بعد ما سجنه الحلفاء تمهيداً لشنقه ، أخذ يؤدى واجبه الديني في تعزية القائد الألماني المقهور .

وما عساه يقوله راهب نصرانيٌّ يؤمن بصلب عيسى فداء عن البشر وخطاياهم؟!  
على أية حال لقد شرع يتكلم ، حتى قاطعه «جورنج» بقوله : يا أبناه ، أنا مؤمن  
بالله ، وأعتقد أن المسيح رجل نبيل .

تلك عقيدة الرجل ، إنَّه هو وألوف من الساسة والقادة والعلماء والعظماء يؤمنون  
بالله ، وهذا حقٌّ ، ويؤمنون بأنَّ المسيح إنسان نبيل وهذا حقٌّ .

أما ما عدا ذلك فلديهم صدود عن قبوله كما يُصدِّر المراء عن طعام يعاشه .  
فليبتعد عنه في صمت ، إذ لا ضرورة في النَّعْي عليه ما دام ليس هناك  
إكراه على ازدراده .

وجمهرة العلماء والمفكِّرين في العالم الصليبي على هذا الغرار .  
أما العلماء اليهود فمعروفيتهم بالله يصحبها شعور غامر بجنسهم المضطهد .  
ولديهم بقايا من توحيد الله لم يشبها التثليث الذي اعتنقه النصارى .  
وهؤلاء العلماء يعتقدون في قرارة أنفسهم أن كنائس النصارى تقوم على عبادة رجل  
وُلد لغير رشدة ، جاءت به أمه عن اتصال حرام !!  
وأغلبهم يحمل من الإلْفَك والضَّعْفِيَّة ما يجعله شرًّا مستطيراً على الناس .  
وأقلهم من هذبَه العلم ، وكفكف ما في طبعه من قسوة وحقد .  
والملهم أنَّ الإيمان بالله بديع السموات والأرض لم يزل - كما كان - قائماً بالأنفس ،  
ولم يزل صوت الفطرة العالى ، وإن أخفته أحياناً ما يحيط به من إضافات ضالة .  
وهذا الإيمان طرف الحقيقة التي بلغت تمامها في الإسلام .

والرجال الذين تجيش مشاعرهم به ، هم في تلك اللحظات المتألقة أقرب إلى  
الإسلام منهم إلى أي دين آخر .

وقد أخذ الله على هؤلاء أنهم يُحسنون معرفته في لحظات شدَّتهم .. ثم ينسونه  
عندما تدركهم العافية :

﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنُتمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَّنَّ بِهِمْ  
بِرْتَحَلَّ طَيِّبَةً وَرَجَوْهَا جَاءَتْهَا بِمُخْعَنٍ عَاصِفٍ وَجَاءَهُمْ مَوْجٌ مِّنْ كُلِّ  
مَكَانٍ وَطَنَوْا إِنَّهُمْ لَا يُحِيطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ  
يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ يُغْرِيُهُمُ الْحَقُّ ﴿٢﴾

والواقع أنني استقصيت حالات كثيرة جداً لعلماء الغرب ومفكريه ، فاستيقنت أنَّ  
في نفوسهم إيماناً حسناً ، وأنَّ معرفتهم بالله تجري في نسق أبعد من ضيق اليهودية  
وتعقيد النصرانية وأدنى إلى سماحة الإسلام وبساطته .

ولكن هؤلاء يكرهون الإسلام والمسلمين مع ذلك . !!

وهم معذرون في هذه الكراهة إلى حد ما ، فأهل الإسلام حجابٌ غليظٌ  
دون تعاليمه .

وتقهقرهم البالغ في كل ميدان يصد عامة الناس عن إحسان الظن به .

ورسالة محمد نفسها - من الناحية العلمية البحث - لم تُعرض عرضاً يُرى الناس  
جوهرها كما جاء من عند الله . !!

ولو أنها عُرِضَتْ كذلك لوجدت تجاوباً هائلاً مع الخاصة الذين يبنون إيمانهم على  
منطق العقل ، ويحررونه من مواريث الخرافة ، ولوجدت تجاوباً كذلك مع العامة الظماء  
إلى ينابيع ثرَّةٍ بضرور التوجيهات والوصايا .

وذاك كله ما احتشد احتشاداً في القرآن الكريم وسنة محمد ﷺ .

### ٣٦٣

إنَّ الألوف التي وهَّت صلتها بالدين في أقطار الغرب ، وتجهَّمت للبيع والكنائس  
ليست كافرة بالله ، ولا خارجة على سنن الفطرة ما دامت تتوجه إليه وفق فهمها البسيط .

إنها تَوَدَّ من أعماقها لو توثقت صلاتها بالله عن طريق صحيح تشعر فيه  
بالراحة والقرار .

إنَّ المفتاح الذي أُدِيرَ فيها لم ترَكِبْ أسنانه بطريقة تواءم مع طبيعة القفل المغلق ،  
فبقي الباب مقفلًا لأنَّ المفتاح المخلوب لم يصنع شيئاً .

(١) يونس: ٢٢ - ٢٣ .

ولو أنَّ هذه القلوب العطاش إلى اليقين والسكينة وجدت مفتاحها الأصيل  
لانفرج الباب الموصد ، ولنهلت هذه الأفئدة المحرومة من نطاف الإيمان الصافي  
ما يروى غليلها .

على أن أصحاب النفوس الكبيرة لم يقفوا مكتوفى الأيدي أمام أزمة «الحق» التي  
تحتاج بلا دهم . فبحثوا عن الله وحده ، ومدُوا حبالهم إليه وحده ، ولم يرُوا في غيره إلا  
بشرًا مثلهم ولو كان عيسى نفسه .

وبذلك تأسَّس إيمان صحيح - وإن يك محدوداً - بعيداً عن الكهانات وطقوسها  
وتعاويذها وتماثيلها

وهذا الإيمان لا يسمى إلحاداً وإن لم يَدِنْ بالتوراة والإنجيل والقرآن ، لأنَّه يجهل الأخير ،  
أو يعرفه على غير وجهه ، ولأنَّ الأوَّلين لا ينسجمان مع طاقته العقلية والنفسية الواسعة .

### ❀❀❀❀❀

وعلى هذا الأساس الذي مهَّدناه نتمشَّى مع «ديل كارنيجي» وهو يقول :  
( لقيت «هنري فورد» قبل وفاته ، فتوقعَت أن أرى عليه سيماء رجل منهك القوى من  
فرط الجهد الذي بذله في إنشاء مؤسسة تجارية من أضخم المؤسسات في العالم ، غير أنَّي  
فوجئت حين وجدته على درجة كبيرة من الرزانة والهدوء ، وكأنَّه آية في الاتزان والطمأنينة .  
برغم بلوغه الثامنة والسبعين من عمره .

فلما سألته : هل عانَى من القلق شيئاً؟ أجاب : كلاً ، فإنَّى أعتقد أنَّ الله - سبحانه -  
قدير على تصريف الأمور ، وأنَّه - تعالى - في غير حاجة إلى نصيحة مني ، ولهذا فأنا  
أترك له تصريف أموري بحكمته جلَّ شأنه ، فعلام إذن يتولاني القلق؟! ) .

هل كان «فورد» زميلاً لابن عطاء الله السكندرى في هذا المنطق الممتلىء بالتسليم  
والثقة فيما تجبيء به الأقدار؟!

إنَّ كان المستر «فورد» لم يعرف ابن عطاء الله ولم يأخذ عنه ، فإليك خلاصة لكلام  
هذا العالم المسلم تلمح فيه قوة الشبه بين المنطقين ، على تباعد الديار والأعصار!!

قال ابن عطاء الله يحضر على التسليم لله ، ويحضرى آداب التجدد<sup>(١)</sup> :

الأول : علمك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أنَّ الله كان لك قبل أن تكون لنفسك .

فكمَا كان لك مدبرًا قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك .

فَكُنْ كَمَا كُنْتَ لَهُ ، يَكُنْ لَكَ كَمَا كَانَ لَكَ .

الثاني : أن تعلم أنَّ التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها .

الثالث : علمك بأنَّ القدر لا يجري على حسب تدبيرك ، بل أكثر ما يكون هو ما لا تدبر ، وأقلُّ ما يكون ما أنت له مدبر .

الرابع : علمك بأنَّ الله تعالى هو المtowerي لتدبير ملكته ، علوها وسفلها ، وغيبها وشهادتها ، وكما سلمت له تدبيره في عرشه وكرسيه وسمواته وأرضه ، فسلم له تدبيره في وجودك بين هذه العوالم .

وسيثبتُ إلى الذهن حتماً بعد الاستماع إلى هذه النصائح أنَّ الإنسان لكي يتم يقينه يجب أن يتجرد من حَوْله وطَوْله وأن ينخلع من قواه وأن يهمل الأسباب وأن ينتظر من تدبير الله بعدئذ أن يقضى له ما يشتهى . وهذا خطأ محضر ، وما إليه قصد ابن عطاء الله ، ولا به عمل «مستر فورد» .

فإنَّ شعور الإنسان بحوله ضرورة .

ونهوضه للأسباب المعتادة حقٌّ .

ولذلك يستدرك ابن عطاء الله بعد كلامه السابق فيقول : (إن التسبيب لا ينافي التوكل) .

(١) عن التصوف الإسلامي .

انظر إلى قوله ﷺ : «لَوْ تُوكِّلُتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقًّا تُوكِّلُهُ لِرِزْقِكُمْ كَمَا يُرْزِقُ الطَّيْرَ ،  
تَغْدُو خَمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا»<sup>(١)</sup> ، تراه يدلُّ الْأَمْرُ بِالْتَّوْكِلِ ، لَا عَلَى نَفْيِ الْأَسْبَابِ ،  
بَلْ إِنَّهُ يَدْلِلُ عَلَى إِتِيَانِهَا بِقَوْلِهِ : تَغْدُو ، وَتَرُوحُ !! فَقَدْ أَثَبَتَ لَهَا غُدْوًا وَرَوَاحًا .  
وَهَذَا سَبَبُهَا الَّذِي تَحْيَا بِهِ وَتَعِيشُ عَلَيْهِ .

ونقول نحن : إن الإسلام يرفض كل تشكيك في حرية الإرادة .  
ويرد بعنف كل توهين للطاقة العظيمة التي مُنْحَها الإنسان كيما يكده في هذه  
الدنيا ، ويرتقب نتائج كدحه .

غير أننا عندما ننظر إلى شؤوننا على ضوء الواقع لن يفوتنا أن نلحظ ضيق الدائرة  
التي نعمل فيها بقدرنا وإرادتنا بالقياس إلى الدائرة الواسعة التي تعمل فيها القدرة  
العليا ، والإرادة العليا .

والأسباب التي تتعلق بها محاكمة بمحاجلات رَحْبة لـ سلطان لنا عليها  
في أغلب الأحيان .

ومن ثم فلنكشف غورنا بما نملك ، ولا نحاول بنفح الفم أن نغالب عصف الرياح .  
ذلك ما ينشده دعاة التجريد ، أن تستمسك بالأسباب ، وأن تستريح إلى ما  
يصنع الله بعد .

### ٣٤٣٣٣٣٣٣

على أننا مضطرون إلى أن نلقى هذه النصائح بقليل أو كثير من الخدر .  
فإن كلمة «خفف السير» قد تقال لسائق عجل يندفع إلى الأمام بسرعة ربما تودي به .  
أما إذا وُجِّهَت الكلمة لقاعد يلعب ، أو ماشٍ مُتممِّلٍ فهى لغوٌ قبيحٌ .  
والأمريكان المسعورون وراء حطام الدنيا يُقطِّنُهم الفشل ، ويبطِّرُهم الظفر ، محتاجون  
إلى كلام «فورد» و«ابن عطاء الله» وغيرهم .  
أما الوانون المتراخون من أهل الشرق فلهم كلام آخر أحسن سياقاً ، وأفعل أثراً .  
وأقطار الشرق الإسلامي الآن مزيج من الصنفين المتناقضين .

(١) تيسير الوصول .

يوجد فيهم من يقال له : اعمل لتحيا ، ومن يقال له اهدأ لتحيا .

وإلى البكائين على ما فات ، المتأسفين وراء تحقيق المعجزات ، الدائرين حول محور من أنفسهم يصارعون المُنى وتصارعهم دون الانتهاء إلى قرار . إلى هؤلاء نوجه كلمة «وليم جيمس» : «إنَّ بيننا وبين الله رابطة لا تنفص ، فإذا نحن أخضتنا أنفسنا لإشرافه - سبحانه وتعالى - تحقق أمنياتنا وأمالنا كلها» .

أما القاعدون في ظلام الركون إلى الأقدار فإنهم يُضربون - باسم الله - كى ينهضوا إلى ميدان العمل .



ومن الناس من يحترم الإيمان ، ويسعى لإشاعته في المجتمعات ، لأن الإيمان حق ، بل لأن آثاره في النفوس والجماعات مستحبة .

ولذلك يقول : لو لم يكن هناك إله لوجب أن نجعل للناس إليها يطلبون رضاه ، ويحافظون عذابه .

فإليمان عند هؤلاء ضرورة اجتماعية لحفظ الأمن وترويض العوام .

وهم لذلك لا يكترون لِكُنْهِ هذا الإيمان ، ولا لتعلقاته .

ليكن ما يكون ما دام يؤدى نتائجه القريبة .

وهذا تفكير سخيف ، وإزراء بحقيقة الدين وقيمه ، بل استهانة بالحقيقة نفسها وبأقدار عارفيها .

فإنَّ الاعتراف بوجود الله يجب أن يكون خصوص العقل والفؤاد للأدلة التي استبيان صحتها ، ولا محيس عن المصير إليها والتسليم بها .

أما إذا تظاهرت الدلائل على أنه لا إله هنالك ، فإنَّ ربط العامة أو الخاصة بوهم كبير يُعد خدعة سمعجة .

ونحن نحملُ الحياة والأحياء عن هذا اللون من الخداع ، ونرى أن يفتح البشرُ أعينَهم على الحق وحده .

فإليمان بالله الواحد ليس لعبة سياسية ، أو تشريعياً استثنائياً .

كلا ، إنَّ الحقيقة التي ضلَّ عنها الغافلون ، أو المستغلُون .  
والنور الذي أغلقت دونه أجفان العميان .

أما الرجال الذين رُزقوا صفاء الفطرة ، ونقاء الفكر ، فلن يتبعوا عن الله أبداً .  
إنَّ هذا الإيمان الوثيق معدن قلْما تخلو منه نفس عظيمة .

وهو على اختلاف مراتبه وألوانه السناد الروحي الأمين الذي يهرب إليه في الشدائـد  
ويُعتمد عليه في حمل الأعباء وملاقاة التوب .

وربما سبق إلى الوهم أنَّ أغلب ذوى الأسماء اللامعة - أعني في ميادين الجد -  
قليلو الذخر من هذا العنصر النفيس .

وقد يروج لهذه الفريـة بعض الصـحـافـيينـ الذين لا دـينـ لهمـ .

وذلك باطل . فكثير جداً من كبار الرجال لهم في الله عقيدة صلبة ، وإن شـابـ  
صلابتـها تصـوـرـ سـاذـجـ أوـ خطـأـ مشـهـورـ علىـ ماـ بـيـنـ آـنـفـاـ .

قال «ديـلـ كـارـنيـجـيـ» : (أعـرفـ رـجـالـاـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ الدـيـنـ نـظـرـتـهـمـ إـلـىـ شـئـ مـقـصـورـ  
عـلـىـ النـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ وـالـوعـاظـ ،ـ وـيـتـبـاهـوـنـ بـأـنـهـمـ «ـرـجـالـ»ـ يـسـعـهـمـ أـنـ يـخـوضـواـ المـعـارـكـ بلاـ  
سـنـدـ وـلـاـ مـعـيـنـ .ـ

فـماـ أـشـدـ الـدـهـشـةـ التـىـ تـتوـلـأـهـ حـينـ يـعـلـمـونـ أـنـ مـعـظـمـ «ـرـجـالـ»ـ أـعـنىـ الـأـبـطـالـ  
الـشـهـورـينـ .ـ يـضـرـعـونـ إـلـىـ اللهـ كـلـ يـوـمـ أـنـ يـؤـازـرـهـمـ وـيـعـاـونـهـمـ .ـ

خذ مثلاً البطل «ـجاـكـ دـمبـسـيـ»ـ .ـ لـقـدـ أـخـبـرـنـيـ بـأـنـهـ لـاـ يـأـوـيـ إـلـىـ مـضـجـعـهـ قـبـلـ أـنـ يـتـلـوـ  
صـلـواتـهـ ،ـ وـلـاـ يـتـنـاـولـ طـعـامـاـ حـتـىـ يـحـمـدـ اللهـ الذـىـ وـهـبـهـ إـيـاهـ ،ـ وـأـنـهـ لـاـ يـفـتـأـ يـرـدـدـ الـصـلـواتـ  
وـالـدـعـوـاتـ فـىـ أـثـنـاءـ تـدـرـيـبـهـ عـلـىـ الـمـلـاـكـمـةـ ،ـ وـقـبـلـ كـلـ مـبـارـأـةـ يـخـوضـهـاـ .ـ

وـحدـثـنـيـ «ـأـدـوارـدـ اـسـتـيـتـنـيـوسـ»ـ المـدـيرـ الـأـعـلـىـ لـشـرـكـةـ جـنـرـالـ مـوـتـورـزـ وـ«ـوزـيرـ خـارـجـيةـ  
ـأـمـريـكاـ اـسـبـقـ»ـ أـنـهـ كـانـ يـصـلـىـ وـيـتـهـلـ إـلـىـ اللهـ أـنـ يـهـبـهـ الـحـكـمـةـ وـالـسـدـادـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ .ـ

وـعـنـدـمـاـ كـانـ الـبـطـلـ «ـأـيـزـنـهـاـوـرـ»ـ فـىـ طـرـيقـهـ إـلـىـ (ـأـورـوـبـاـ)ـ طـائـرـاـ لـيـتـوـلـىـ قـيـادـةـ جـيـوشـ  
ـالـحـلـفـاءـ فـىـ الـحـرـبـ الـأـخـيـرـةـ ،ـ كـانـ الشـئـ الـوـحـيدـ الذـىـ اـصـطـحـبـهـ مـعـهـ هـوـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ !!ـ

ـوقـالـ لـىـ الـبـطـلـ الـجـنـرـالـ «ـمـارـكـ لـارـكـ»ـ .ـ إـنـهـ كـانـ يـقـرـأـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ خـلالـ سـنـيـ  
ـالـحـرـبـ كـلـ يـوـمـ ،ـ ثـمـ يـرـكـعـ عـلـىـ رـكـبـتـيـهـ وـيـدـعـوـ اللهـ !!ـ

لقد أدرك هؤلاء الأبطال أنَّهم ليسوا وحدهم في الحياة ، وأنَّهم فقراء إلى هذا الإله القادر الرحيم كي يصحبهم في دنياهم بتوفيقه ورعايته ، كما تفضل عليهم - وهم في عالم الغيب - بنعمة الإيجاد والخلق) .

### ﴿كُلُّهُمْ سَائِلٌ، وَأَنْتَ مَجِيبٌ﴾

وحقiq بالناس أن يفزعوا إلى الله كلما حزبthem شدة ، أو رابتهم أزمة ، فمَنْ غيره - جل شأنه - يستطيع سدَّ خلتهم ، وإشباع نهمتهم ، وردَّ طمأنينتهم :

**كُلُّهُمْ سَائِلٌ، وَأَنْتَ مَجِيبٌ** تلك نعمتك ، ما لها من نفاد  
يَبْدَأْهُ من الحق كذلك ألاًّ نجهل هذا الذي نسائله ، وألاًّ نتقرَّب إليه بأسلوب  
يمقته ، وألاًّ ننسب إليه عن خطأ أو عدم ما هو برب منه .

كان المشركون قديماً يعبرون عن عاطفتهم نحو الله بهذه الكلمات :  
**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ** . لبيك لا شريك لك لبيك ، إلَّا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك !!  
فجاء الإسلام ليصحح هذا التعبير ، ويُغيِّر الفهم الذي أوحى به .

مع استبقاء العاطفة الأصيلة التي تربط البشر بخالقهم الأعلى ، وتسويقه إلى ساحتها راغبين راهبين ، فغيَّر العبارة على النحو الآتي : **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ** ، **لَبَّيْكَ لَا شريكَ لك لَبَّيْكَ** . إنَّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريكَ لك !!  
إنَّ تصحيح الاعتقاد والعبادة هو الهدف الأول للإسلام .

فقد كانت الأم الأولى تعرف الله معرفة يشوبها القصور والخطأ :

**﴿وَمَا يُؤْمِنُ بِكُثُرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ﴾**

فلم يكن بدًّ من إزاحة هذا الجهل ، ودحض تلك الشبهات .  
والمؤسف أن النصارى يتوجهون إلى الله كما رأيت ، ولكنَّهم يجعلون معه إلهاً آخر ،  
أو آلهتين آخرَين !!

ومن ثمَّ تضطرب وجهتهم وتتجوز أدعيةهم .

ويسألون الله وهو يقصدون عيسى ، أو يسألون عيسى وهو يقصدون الله .

(١) يوسف: ١٠٦ .

مع أَنَّ عِيسَى وَمُحَمَّداً وَغَيْرَهُم مِّنَ الْمَرْسُلِينَ لَيْسُوا إِلَّا بَشَراً ضِعَافًا يَفْتَقِرُونَ إِلَى فَضْلِ اللَّهِ ، وَيَقْفَوْنَ بِبَابِهِ وَهُمْ رَاجُونَ ثَوَابَهُ وَخَاشُونَ عَقَابَهُ .

إِنَّا نَكَرْهُ الْإِلْهَادَ الَّذِي جَعَلَ مِنَ الْأَجِيَالِ الْحَاضِرَةِ قَطْعَانًا تَحْيَا فِي الْعَالَمَيْنِ ، وَهِيَ مُنْتَكِرَةٌ لِرَبِّ الْعَالَمَيْنِ .

وَكُلُّ مَا نَبَغَى أَنْ يَحْلِ مَكَانَ هَذَا الْإِلْهَادِ الْمُعْتَمِ إِيمَانٌ يَنْهَضُ عَلَى الصَّوَابِ ، وَيَتَأَلَّقُ فِيهِ نُورُ الْحَقِّ .

وَالْتَّوْحِيدُ الَّذِي يُلْحِظُ الْإِسْلَامُ فِي تَقْرِيرِهِ ، وَيَحْضُرُ الْبَشَرُ عَلَى فَهْمِهِ وَالْأَخْذِ بِهِ لِيُسَمِّي بَدْعَةً جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ، كَلَّا ، إِنَّهُ تَوْكِيدُ الدُّعُوَةِ الْأُولَى الَّتِي هَتَّفَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ أَجْمَعُونَ ، وَإِبْرَازُ الْأَصْلِ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ دِيَانَاتُهُمْ كُلُّهَا .

وَالْكُتُبُ وَالرَّسَائِلُ الَّتِي مَاتَرَازَ بَيْنَ أَيْدِي النَّصَارَى إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا تَشِيرُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِشَارَةً تَنْطِبِقُ مَعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ أَتَمُ الْأَنْطِبَاقَ .

فَفِي سَفْرِ «الْتَّشْنِيَةِ» إِصْحَاح٤ عَدْد٣٦ : «لَتَعْلَمُ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ إِلَهٌ لَيْسَ أَخْرَى سُواهُ» وَذَلِكَ كَقُولُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>

وَجَاءَ فِي هَذَا السَّفْرِ : «رَدَّدَ فِي قَلْبِكَ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ إِلَهٌ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِ وَفِي الْأَرْضِ مِنْ أَسْفَلِ» ، وَهَذَا كَقُولُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ :

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ أَحَدٌ كَيْمٌ  
الْعَلِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يُمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

وَجَاءَ فِي هَذَا السَّفْرِ أَيْضًا : «أَسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلَ ، الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ» . وَإِسْرَائِيلُ هُوَ يَعْقُوبُ الَّذِي جَمَعَ أَوْلَادَهُ وَهُوَ يَحْتَضِرُ لِيُسْتَوْقَنُ مِنْ بَقَائِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ :

﴿أَمْ كُنْتُمْ شَهِدَاءَ إِذْ حَاضَ  
يُعَقُّبُ الْمُؤْتَمِرُ إِذَا قَالَ لِيَتَبَيَّنُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ  
وَإِلَهُ أَبَاهَا إِلَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾<sup>(٣)</sup>

(١) مُحَمَّدٌ : ١٩ . (٢) الزُّخْرُفٌ : ٨٤ - ٨٥ . (٣) الْبَقَرَةُ : ١٣٣ .

وجاء في سفر أشعيا ، إصحاح ٥ : ٤ «أنا ربٌ وليس آخر ، لا إله سواي» ، وجاء فيه أيضاً : «أنا الأول ، وأنا الآخر ، ولا إله غيري» ، وهذا كقول الله :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ۱  
 ﴿مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْكُمُ وَيَنْهَا وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ۲  
 هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ ۳﴾

وجاء فيه أيضاً : «لأنى أنا الله وليس لي شبيه» ، وذلك كقول الله في كتابه :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٢)

ولم يخل العهد الجديد من بقایا حق يعلق العباد بباريهم الأعلى ، وتقفهم في مجال العبودية الخضة على اختلاف أسلوباتهم وألوانهم .

لا يفضل أحد الآخر إلا بمدى ما يكنته من إخلاص ، ويترافق به من قرب إلى الله الواحد القهار .



ولقلة التنزية وفسو الجهل بالله كانت المشاعر العامرة بالتوحيد المطهرة من أدران الشرك أحب شئ إلى الله .

وكلما ظهرت في الدعاء آثار لإجلال الله والاعتراف بعظمته المفردة وكماله المطلق ، كان ذلك أقرب إلى القبول وأدنى إلى الاستجابة .

روى أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : «اللهم إني أسألك بائني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». فقال النبي للرجل : «لقد دعوت الله بالاسم الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب» (٣) .

(٢) الشورى : ١١ .

(١) الحديد : ١ - ٣ .

(٣) الترمذى .

أجل ، ألا ترى الرجل قد اضطرمت فى نفسه عقيدة ضللت عنها ألف مولفة من الناس؟ أين من التنزية الذى يملاً فؤاده شرك جماهير تحسب أن الله ابناؤه وتحسب أن له صاحبة؟!

وكذلك شجع رسول الله كل دعوة ينصح فيها ما يجب لله من تمجيد ، وما يستحقه تبارك وتعالى من ثناء وحمد ، وما يُشعر بفقر العالم كله إليه وقيامه به ، مثل : «يابديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام . يا أرحم الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، يا حى يا قيوم» .

ومن الأدعية التى يتفرق فيها رواء الإعزاز والأخلاق ما روى : «اللهم إنى أسألك بعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، واسمك الأعظم ، وجذك الأعلى ، وكلماتك التامة» .

وما روى أيضاً : «اللهم إنى أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك ، الذى إذا دعيب به أجبت ، وإذا سئلت به أعطيت ، وإذا استرحمت به رحمت ، وإذا استفرجت به فرجت ..» .

وهذه الأدعية باب واسع ، يرجع إليها فى مظانه من شاء الاستزادة .



هل ندع نفوس الناس تناسب فى فجاج الحياة وحدها ، وتتوغل فى متاهاتها ، دون مولى يرعاها ، ودون نصیر يعتصدها؟  
إن الإنسان مهما دعى القوة ضعيف .

ومهما انفرد بنفسه فسوف تكتنفه الوحشة والخيرة .

وما أكثر المسارب والمشعبات التى يصل المرء إليها ثم لا يدرى : أئتها يأخذ؟ وأئتها يترك؟

وهو إن ضل الطريق يوماً فى معضلة واجهته فقد يظل يتعرّف السير أياماً أوأعواماً من غير أن يبلغ غاية يستقر عندها .

لأنه يضرب ابتداءً على غير هدى؟!

ما أفقرنا إلى من يلهمنا الصواب ، ويهدينا إلى الحقَّ كلما اشتبهت علينا الأمور .

وإِنَّ إِنْسَانًا مُعَرَّضًا لِلَّأَمَمِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ فِيهِ ، إِنَّهُ كَمَدِينَةٍ مُفْتَوِحَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تُذَكَّرَ فِي أَيِّ وَقْتٍ ، وَمِنْ أَيِّ جَهَّةٍ .

وَالْمَرءُ إِذَا نَظَرَ إِلَى بَدْنِهِ وَجَدَ أَنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ فِيهِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَنْفَذًا لِمَرْضٍ عُضَالٍ يَبْعَثُهُ عَلَى الْأَنْيَنِ الْعَالِيِّ .

وَإِذَا نَظَرَ إِلَى شَأْنِهِ كُلَّهُ وَجَدَ أَنَّ أَيَّ أَمْرٍ مِنْ أَمْوَارِهِ يُمْكِنُ أَنْ يَنْقُلِبَ عَلَيْهِ لِيَجْرُّ وَرَاءَهُ الشَّقَاءَ الطَّوِيلَ .

ما أفقرنا إلى استدامة النعمة ، واتقاء النّقمة ، والاسترواح في الحياة إلى ما يجعل الله في الحياة من يُسرٍ وبركة وسكونية !!  
إِنَّ هَذَا كُلَّهُ هُوَ مَا تَكْفِلُهُ الصَّلَاةُ لِلْمُؤْمِنِ .

إِنَّ الْإِسْلَامَ نَظَمٌ وَقَفَاتٌ كَرِيمَةٌ يَنْاجِيُ الْإِنْسَانَ فِيهَا رَبُّهُ عَدَةَ مَرَاتٍ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ .

فِي هَذِهِ الْوَقَفَاتِ يَكَلِّمُ الْإِنْسَانَ رَبَّهُ ، فَيُعْتَرَفُ أَوَّلًا بِحَمْدِهِ وَمَجْدِهِ ، ثُمَّ يُسَأَّلُ بَعْدَ ذَلِكَ هُدَىَّةً تَحْفُّ النَّعْمَةَ وَيَجْاْنِبُهَا السُّخْطُ .

فِي هَذِهِ الْوَقَفَاتِ يَقْفَى الْإِنْسَانُ أَمَامَ رَبِّهِ يَسْتَعِينُهُ وَيَسْتَرْضِيهِ .

يَقْفَى أَمَامَ ذِي الْعِلْمِ الشَّامِلِ لِيَكُمَلَ لَهُ قَصْورُ مَعْرِفَتِهِ .

وَأَمَامَ ذِي الْقُدْرَةِ الْهَائِلَةِ لِيَكُمَلَ لَهُ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ حَتَّىَ لِضَعْفِ قَوَاهُ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي حَدِيثٍ قَدِيسٍ - : « قَسْمَتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنِ عَبْدِي نَصْفَيْنِ . فَإِذَا قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ : حَمَدَنِي عَبْدِي . وَإِذَا قَالَ : الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، قَالَ : أَثْنَيْ عَلَىَّ عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ : مَجَدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : إِلَيْكَ نَعْبُدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِينُ ، قَالَ اللَّهُ : هَذَا عَهْدٌ بَيْنِي وَبَيْنِ عَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : أَهْدَنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، قَالَ اللَّهُ : لِعَبْدِي مَا سَأَلَ »<sup>(1)</sup> .

(1) أَحْمَد.

إن الركض في ميادين الحياة بقدر ما يجلل البدن بالغبار والعرق يجعل الروح بالغيوم والأكدار .

والمرء - إثر كل شوط طويل - يحتاج إلى ساعة يلم فيها شعثه ، ويعيد النظافة والنظام إلى ما تعكر وانتكث من شأنه كله .

ولم يست الصلاة إلا لحظات لاسترجاع هذا الكمال المفقود أو المنشود .

عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ يقول : «الصلوات الخمس كفارة لما بينها . أرأيت لو أن رجلاً كان يعمل ، وكان بين منزله وبين معمله خمسة أنهار ، فإذا أتى معمله عمل فيه ماشاء الله فأصابه الوسخ أو العرق ، فكلما مرّ بنهر اغتسل ، ما كان ذلك يبقى من درنه؟ فكذلك الصلاة ، كلما عمل خطيئة فدعا واستغفر غفر له ما كان قبلها»<sup>(١)</sup> .

وأهٌ من سعار المادة الذي يلفح الوجه في معركة الخبز ! .

إن البشر يقتربون هذه الساحة المائحة وغرائز الأثرة أيقظُ ما تكون في دمائهم ! . إن حواجزهم وحواجز أسرهم وأرحامهم هي التي يرون في أثناء هذا السباق الطويل . أما التراحم والإيثار والبر فقلّمها تبدو صورها النبيلة لأعينهم .

وترك الناس تصرعهم هذه المشبوبة قتل لكل ما في الإنسانية من فضائل .

فلا عجب إذا شرع الله الصلاة للناس كيما تنجيهم من هذا السعي بين الحين والحين . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ملكاً ينادي عند كل صلاة : يابني آدم ، قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتكم فأطفئوها»<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية : «تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا»<sup>(٣)</sup> .

(١) البراز .

(٢) الطبراني .

وفي الحديث تصوير لما ي الواقعه العامة من صفات وذنوب في معايشهم المضطربة المشابكة ، وما تلطّفه الصلوات وتُرتبه من هذه الجبهة والجنوب .

الصلاوة تسام يرفع المرء إلى السماء كلما أخذ إلى الأرض ، ويصله بالله كلما قطعه عنه أسباب الغفلة والذهول .

وللننقل هنا ما رواه «ديل كارنيجي» عن الدكتور «ألكسيس كاريل» مؤلف كتاب «الإنسان ذلك المجهول» وأحد الحائزين على جائزة «نوبل» قال : (لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا . !!

وقد رأيت - بوصفي طبيباً - كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم ، فلما رفع الطبّ يديه عجزاً وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم .  
إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع ، ومولد ذاتي للنشاط .

وبالصلاحة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود حين يخاطبون «القوة» التي لا يفني نشاطها .

إننا نربط أنفسنا - حين نصلى - بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون ، ونسأّلها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة ، بل إن الضراوة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه هذه الضراوة بأحسن النتائج ) .

وهذا الكلام هو عندى خير تفسير لقول الله عزّ وجلّ :

﴿وَلَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ  
دُعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَتْ جِبُوًا لَّوْمَنُوا بِلَعْنَهُمْ رِشْدُونَ﴾<sup>(١)</sup>

أى خير يكسبه الإنسان إذا استيقظ من منامه فكان أول تفكيره الاتصال بربه ، والاستعانة به ، والاستمداد منه !؟

إنّه ينال ضماناً من السماء أن يقضى سحابة نهاره وهو في حِرْز منيع !!  
أجل ؛ لقد أصبح فأرضي ربّه ولاذ به ، وطلب حمايته .

والله عزّ وجلّ أحقٌ من يعطي الأمان من استأمنه ، وأن يمنح جواره من استجار به .

(٢) مسلم .

. ١٨٦ (١) البقرة :

وفي الحديث : «من صَلَّى الصبح فهو في ذمَّةِ الله ، فلا يطلبكم الله من ذمته بشيء ، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يَكُبُّه على وجهه في نار جهنم»<sup>(٢)</sup> .  
هذا إعلان من الله للناس أن يكرموا رجلاً بدأ يومه بالصلاوة ، ثم غدا إلى عمل ، فغدت معه كلامة الله ورعايته .

وفي رواية عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : «من صَلَّى الصبح فهو في ذمَّةِ الله تبارك وتعالى ، فلا تُخفروا الله تبارك وتعالى في ذمته ، فإنه من أخْفَرَ ذمته طلبَه الله حتى يَكُبُّه على وجهه» .

وقيل : إنَّ الحجاج أمَر سالم بن عبد الله بقتل رجل ، فقال سالم للرجل : أصليت الصبح ؟ فقال الرجل : نعم ؟ قال : فانتطلق ، فقال له الحجاج : ما منعك من قتله ؟ فقال له سالم : حدثني أبي أنه سمع رسول الله يقول : «من صَلَّى الصبح كان في جوار الله يومه» .

فكـرـهـتُ أـنـ أـقـتـلـ رـجـلـاـ قـدـ أـجـارـهـ اللهـ<sup>(١)</sup>

والناظر في بعض العبارات التي تصوّر صلة الله عزّ وجلّ بعباده المخلصين له ،  
يجد أن الله لم يدخلهم في جواره ، بل إنه نزلهم منزلة نفسه ، وجعل إيماءهم عدواً  
عليه - تقدست ذاته - .

ومن ثمَّ يقول في حديثه القدسى : «من عادَ لى ولِيَا فقد آذنته بحرب»<sup>(٢)</sup> .  
ومسوالات الله تعنى مزيداً من التعلق به واللّجأ إليه بالصلاحة ، وبغيرها من  
الفرائض والنواقل .

وقد يبلغ هذا التكريم الإلهي لمن يرتبطون بالله في حياتهم وشؤونهم كلّها لأن الله يلتحقهم به ، وينسبهم إليه ، ويجعل معاملتهم كأنها معاملة له هو .

قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ  
لَمْ تَعْدُنِي !! قَالَ : يَارَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ : مَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي  
فَلَانَا مَرَضٌ فَلَمْ تَعْدُهْ ؟ أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عَدْتَهُ لَوْ جَدْتَنِي عِنْدَهْ .. يَا ابْنَ آدَمَ

(١) مسلم .

(٢) أحمد .

(٣) البخاري .

استطعْتُكَ فلِمْ تطعْمنِي؟ قال : ياربَّ كِيفَ أطعْمكَ وَأنتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعْتُكَ عَبْدِي فَلَمْ تطعْمَهُ؟! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أطعْمْتَهُ لَوْجَدْتَ ذَلِكَ عَنْدِي .. ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقِيْتُكَ فلِمْ تَسْقِنِي؟! قال ياربَّ كِيفَ أَسْقِيْكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قال : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَمَا إِنْكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عَنْدِي»<sup>(١)</sup> .

وهذا الحوار العجيب بَيْنَ الدَّلَالَةِ فِي مَدِى إِعْزَازِ اللَّهِ لِقَوْمٍ مِّنَ النَّاسِ لَا تَرَال صِلَاتِهِمْ بِاللَّهِ تَسْتَوْقَدُ حَتَّى يَعْدَ اللَّهُ كَرَامَتَهُمْ مِّنْ كَرَامَتِهِ وَمَكَانَتِهِمْ مِّنْ مَكَانَتِهِ .  
عَلَى أَنَّ أَيَّ إِنْسَانٍ مِّنْهُمَا ارْتَقَتْ عِنْدَ اللَّهِ دَرْجَتُهُ فَهُوَ لَيْسَ بِمُنْجَاهَةٍ مِّنْ مَتَاعِبِ الْجَهَادِ وَأَكْدَارِ الْحَيَاةِ الْحَافِلَةِ بِأَفَانِينِ مِنَ الْغُشْمِ وَالْجَحْودِ .

أَتَرِيْ عَمَرُ بْنُ الْخَطَابَ أَعْدَلُ حَاكِمٍ عَرَفَتْهُ الدُّنْيَا كِيفَ قُتِلَ مُتَهَمًا بِظُلْمٍ؟  
إِنْ كَانَ الرَّجُلُ الْكَبِيرُ قَدْ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ، فَإِنْ عِيَادَتُهُ فِي جَرَاحَتِهِ الْقَاتِلَةِ كَأَنَّهَا عِيَادَةُ اللَّهِ نَفْسِهِ .

وَكَذَلِكَ مَا أَصَابَ الْمُسْلِمِيْنَ الْأَوْلَيْنَ مِنْ أَزْمَاتِ الْحَصَارِ الْخَاتِقِ الَّذِي ضَرَبَهُ الْمُشَرِّكُونَ عَلَيْهِمْ ، وَعَرَّضُوهُمْ فِي لَأْلَوَانِ الْجُوعِ وَالْعَطْشِ ، وَأَجْلَاؤُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا وَرْقَ الشَّجَرِ حَتَّى تَقْرَرَّتْ أَشْدَاقُهُمْ .  
إِنَّهُ لَيْسَ جُوعَ تَسْؤُلٍ كَمَا يَفْهَمُ الْحَمْقَى ، وَلَكِنْ جُوعَ كَفَاحٍ وَتَضْحِيَةٍ .

قَدْ تَقُولُ : فَمَا فَائِدَةُ حَسْنِ الْعَصْلَةِ بِاللَّهِ وَسَعَةِ الرَّعَايَاةِ الَّتِي يَبِسْطُهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُحِبِّينَ وَأَوْلِيَاءِ الْمَقْرِبِينَ إِذَا كَانُوا لَمْ يَنْجُوا مِنْ بِرَاثِنَ الظُّلْمِ ، وَلَمْ يَفْلُتُوا مِنْ حَبَائِلِ الْغَدْرِ؟!  
وَأَيْنَ سِيَاجُ الْعُنَيَاةِ الْعُلِيَا حَوْلَ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلَى الَّذِينَ قُتِلُوا شَرًّا قُتْلَةً؟ وَهَذَا التَّسْأُلُ لَا يَقْدِحُ فِيمَا قَرَرْنَا آنَفًا .

وَكُلُّ مَا يَوْجِبُهُ أَنْ نَصْحَحَ مَفَاهِيمَ الْحَيَاةِ الْكَبِيرَةِ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ حَتَّى لَا يَضْلُّوا فِي فَهْمِ ظَواهِرِهَا .

ما رأىُ أُولئِكَ الْمُتَسَائِلِينَ إِذَا عَرَفُوا أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَدْعُو قَبْلَ وَفَاتِهِ بِأَيَّامٍ أَنْ يَرِزِّقَهُ اللَّهُ الْإِسْتِشَهَادَ؟  
وَأَنْ تَكُونَ شَهَادَتُهُ لَا فِي الْجَبَهَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الَّتِي يَدْوِرُ الْقَتَالُ فِيهَا مَعَ فَارِسٍ ، وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنْ جَبَهَاتِ الْقَتَالِ الْأُخْرَى مَعَ الْرُّومَانِ؟ لَا .. بَلْ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ ، أَيِّ فِي الْمَدِينَةِ نَفْسُهَا ..

لِكَانَ الرَّجُلُ كَانَ يَحْدِدُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَؤْثِرُ أَنْ تَجْبِيَءَ بِهَا مُنِيَّتَهِ!!

(١) مسلم .

إنَّ عمر وأمثاله من كبار الرجال يعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ، ويعرفون الوظيفة المضنية التي يقوم بها أولو العزم في غرس الإيمان والخلق والعدالة ، وفي خلع الحشائش السامة والعوسم الشائكة الذي ينتشر في تربة هذه الأرض البائسة ويملؤها بالظلمات والظلمات .

إنَّ هؤلاء الرجال يعرفون وظائفهم وينهضون بآثقالها في طمأنينة وسرور .

وما يلقونه في حياتهم من حرمان لا يؤودهم .

وما يختتم حياتهم من مصارع لا يُفزعهم .

بل قد يكون أمنيتهم على نحو ما دعا عمر بن الخطاب ، ومثل ما روى عن سقراط بعد الحكم عليه بالقتل مسماً :

سقراط أعطى الكأس - وهي منيَّة - شفتى محب يشتته التقبيل  
يجب أن نوضح أطراف هذا القدر الذي يبدو فاجعاً ثقيلاً ، فنؤكد أنه لا يدلُّ على  
أية شارة من شارات السخطة أو القسوة ، وأنَّ الله إِذْ سمح به - تمشياً مع السنن الكونية  
التي أنشأ الحياة عليها - ينفذه جلَّ شأنه وهو أرضى ما يكون على عبده وأرغبه ما  
يكون في الإحسان إليه .

وتتأمل قوله عزَّ وجلَّ في حديثه القدسى : «من أهان لى ولِيَا فقد بارزنى بالمخاربة  
وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددى في قبض نفسِ عبدِ المؤمن ، يكره الموت ،  
وأكره مساءته ، ولا بدَّ له منه»<sup>(١)</sup> .

يا عجباً !! ما هذا الحنوُّ البالغ ، وهذا العطف الساينغ؟!

الموت حقٌّ ما منه بدُّ ، والله يريد إنفاذ قضائه الختم .

لكنَّ العبد يكره الموت .

والله لا يحب أن يشعر عبده بأنَّ إساءةً جاءته من عند ربِّه .

فانظر إلى هذا التصوير في إيقاع القضاء ، وما تنضح به عبارة : «ما ترددتُ في شيء  
أنا فاعله ترددى في فعل هكذا ..» .

إنَّ كلَّ ما يدلُّ على قسوة أو سخط مُنتَفِ بَتَّةً من جانب الله فيما تتعرض له حياة  
الأبطال والأمجاد من كباتن وألام اقتضتها طبيعة النَّسق العالى الذي يحيون فيه .

(١) البخارى .

وهو لواء الأمجاد - من الناحية الأخرى - يستقبلون أقضية الله بتسليم وبشاشة .

ويكفى أن يلحظوا مجئها من الله لتتبدل وعورتها سهولة ، ومرارتها عذوبة .

فهى أمام الأنوار المعتادة كأنها أرzae لا تُحتمل .

وأما هى بالنسبة إلى من سيقت إليهم فأعراض خفاف أول طاف .

لو أن أهل الإقدام ينظرون إلى الح توف نظرة الجبناء إليها ما ثبت منهم أحد ، لكنهم يحتقرن ما أعظمها هؤلاء ، فيُقبلون بينما هؤلاء يولون الأدبار .

كذلك أهل الإيمان ينظرون إلى الأحداث الضخمة على ضوء علاقتهم بالله ، فما يملكون فرع أو يضطرب لهم فكر .

إذا توجسوا من خطر فوق طاقتهم فزعوا إلى الله كما يفرز الطفل إلى أحضان أبيه ، يتّقى به المكروه وينشد لديه الحماية .

وفي الحديث : كان النبي إذا حَزَّهُ أَمْرٌ فزع إلى الصلاة<sup>(١)</sup> .

ويقول «دييل كارنيجي» : (ترى لماذا يجلب الإيمان بالله والاعتماد عليه - سبحانه وتعالى - الأمان والسلام والاطمئنان؟

سأدع «وليم جيمس» يجيب عن هذا السؤال : إنَّ أمواج المحيط المصطحبة المتقلبة لا تعكِّر قط هدوء القاع العميق ، ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذي عمّق إيمانه بالله خليق ألاّ تعكِّر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة .

فالرجل المتدین حقاً عصيٌ على القلق ، محتفظ أبداً باتزانه ، مستعدٌ دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف .

فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق؟ .. ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون؟ لا يقعدنَّ بك عن الصلاة والضراعة والابتهاج أنك لست متدينًا ..



(١) البخاري .

والصلاه فى الإسلام تعنى شيئاً، أحدهما خاص ، والآخر عام :

أحدهما هذه الوجبات الروحية الموزعة على آناء الليل وأطراف النهار متضمنة أفعالاً شتى من قراءة ، وتسابيح ، وخشوع ، وتنزيه ، وركوع ، وسجود ، وقيام ، وقعود ، وفق ما رسم لها الشارع من صور وهيئات .

وهذه الصلاة ركن فى الإسلام لا يُعفى مؤمن من أدائها ، وهى لقلبه ويقينه كالغذاء لجسمه .

فمن حافظ عليها صحيحاً دينه ، وربما إيمانه ، وترشح لغفران الله ورضوانه .

ومن تهاون بها مع علمه بحقها وثمرتها تعرض للضياع والهلاكه .

قال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات افترضهنَّ الله ، من أحسن وضوءهنَّ وصلاؤهنَّ لوقتهنَّ ، وأتمَّ رکوعهنَّ وسجودهنَّ وخشوعهنَّ كان له على الله عهدٌ أن يغفر له . ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»<sup>(١)</sup> .

أمّا من أهملها عن جُحْد واستهانة فهو أقل من أن ينسب إلى إيمان أو يحترم له دين .

وقد تعنى الصلاة الدعاء المطلق .

كلما ساورت الإنسان حاجة ، أو أفلقه هم ، أو هدده مرض ، أو أزعجه أزمة هرع إلى الله يستنجد به ويسأله الرحمة والعافية .

والإسلام مشحون بثبات الأدعية التي أحصت تقريراً كل ما يعرض للإنسان من رغبة ، أو يرهب من محذور ، أو يستزيد من نعمة .

وقد وضع هذه الأدعية المفصلة كلها بين يدي الإنسان ، ليجأر بها إلى الله كلما جاش بفؤاده شعور .

والجميل أنَّ الله يحبُّ من عبده أن يطلب منه ما يبتغي ، وأن يسأله من فضله كيف شاء .

بل إنَّ الله يحدِّر الإنسان من الاكتفاء بقواه الخاصة .

(١) أبو داود .

فإإنَّ هذا القصور يحرم صاحبه بركات العناية العليا ، ويُسجنه طول حياته في حدود ضعفه وجشه .

وفي الحديث القدسي :

«يا عبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلَّا مِنْ هُدِيَتِهِ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدُكُمْ .

يا عبادِي كُلُّكُمْ جائعٌ إِلَّا مِنْ أطعْمَتْهُ ، فَاسْتَطِعْمُونِي أطعْمَكُمْ .

يا عبادِي كُلُّكُمْ عارٍ إِلَّا مِنْ كسوَتِهِ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ .

يا عبادِي إِنَّكُمْ تخطئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فاستغفروني أغفر لكم» .

رأيتُ هذا الإِلْحَاجَ فِي رَدِّ الإِنْسَانِ التَّائِهِ إِلَى رَبِّهِ لِيَتَزَوَّدَ مِنْهُ ، وَيَسْتَقْوِيْ بِهِ ، وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ..

إِنَّهُ مَا يُحْرِمُ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْمَبْذُولِ إِلَّا شَقِّيْ مَسْكِينَ .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «لا تُعْجِزُوا فِي الدُّعَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup> .

وقال : «الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِمَادُ الدِّينِ ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup> .

وقال : «إِنَّ اللَّهَ حَسِيْرٌ كَرِيمٌ ، يَسْتَحِيْ - إِذَا رَفَعَ الرَّجُلَ إِلَيْهِ يَدِيهِ - أَنْ يَرَدَّهُمَا صَفْرًا خَائِبَتِينَ»<sup>(٣)</sup> .

وقال : «سُلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلُ ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انتِظارُ الْفَرِجِ»<sup>(٤)</sup> .



(١) مسلم .

(٢) الحاكم .

(٣) أبو يعلى .

(٤) الترمذى .

سمر من عبقريات مرغتها في الوحل خصومات  
خسيسة !!

إن وقائع الحياة أعطى مما نتمنى ، ودسائس الحاقدين  
ومكايدهم ومؤامراتهم لا تنتهي حتى تبدأ .

إن الحال في كل زمان تحتاج إلى أداد سريعة من  
المساندة أو العزاء لتعيد إلى المهووبين ثقتهم  
بأنفسهم وتشجعهم على المضي في طريقهم دون  
يأس أو إعياء ..

إنهم في حاجة لأن يقال لهم : لا تأسوا ، فإن ما  
تتوجسون من نقد أو تجاهل هو كفأء ما أُتيتم من  
طاقة ورسوخ .

محمد الغزالى

## روحانية الرسول

للنفوس المعتادة لحظات تصفو فيها من كدر ، وترقٌ من غلطة ، وترقى إلى مستوى يحلق بأفكارها ومشاعرها إلى جو نقىٌّ طهور .

لكنها لا تلبث طويلاً حتى تهبط إلى أفقها الداني ، لتعيش فيه أكثر وقتها ، ولترمق سُوَيغات الكمال التي تعيشه ، وكأنها ألق عارض ، أو معنى نضح من عالم بعيد .

وللنفوس العظيمة مجالٌ أرحب مدى ، وأطولٌ امتداداً ، تشرف فيه على الحياة ولها فكر أوعى ، وشعور أقوى .

وتنستقيم على نهج من السلوك الرفيع قلماً تزلُّ عنه .

فهي كالطير الذي ألف الذرا لا ينحط دونها إلاً لاماً .

إذا هبط مما يبقى إلاً ريشما يرفف بجناحيه صُعداً إلى حيث يعيش .

كذلك خلق الله الناس ، وكذلك درجوا منذ الأزل .

فهم بين عامة مغلولين في قيد من مطالبهم المحدودة ، وربما انفكوا عنه حيناً .

وبين خاصةً أمكنهم الخلاص من أغلب هذه القيود ، وربما تشبت أحدها بأقدامهم فأرهقهم حيناً .

إذا كان شأن العامة أنزل رتبة من شأن الخاصة ، فإن هؤلاء الممتازين أنفسهم ، يقع بينهم من التفاوت في الخير والفضل ما يشبه التفاوت بين أبعاد الكواكب .

بعضها يفكّ الناس في الوصول إليه ، لأنـه - وإن بعد - قريب .

وبعضها تنقطع الأوهام دونه ، لأن الشقة إليه لا يقطعها إلا الخيال الشرود .

والفارق بين عظاماء الناس لا يدركها حصر .

وقد اقتضت حكمة الله أن يختار حملة الوحي الأعلى من الصفة المنتقة بين هؤلاء الخاصة ، وهي صفة مبرّزة في كل شيء .

فلو أقيمت سباق عامٌ بين أولى الموأب الناضجة ، والقرائح القوية ، والمعادن الصافية ،  
والأبدان النقية ، لكان أنبياء الله - وحدهم - أصحابَ السبقِ فيه .

إنَّ الأنبياء رجال لا يُدانيون في ذكائهم ، وصلابة عزائمهم ، وبُعد هممهم ، وسعة  
فطنهم ، وإدراكيهم الشامل لحقائق النفوس وطبعات الجماعات .

ومن الخطأ الجسيم أن تحسب أولئك المرسلين على قدر ما من «الطيبة» والسداجة ،  
رشحهم لقيادة بعض الناس في عصور التخلف والبساطة .

كلا ، كلا ، فإنَّ زعامة الأمم في القديم والحديث لا تنعقد صيًّداً إلَّا لرجال أتوا من  
المقدرة النفسية ما يوطئ لهم الأكتاف ، ويجمع حولهم الآلاف .

وقد أومأ القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله :

﴿وَإِذْ كُرِّرَ عَبْدُنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيُوْقَبَ أُولَى الْأَيْمَدِيِّ  
وَالْأَبْصَرِ ﴿١١﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَا هُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٢﴾ وَلَا تَهُمْ  
عِنْدَنَا مِنَ الْمُصْطَفَينَ الْأَخْيَارِ﴾ (١)

فهل فقهت أسرار العظمة في أطواء هذا الوصف الموجز ؟ أولى الأيدي والأبصار !!  
 أصحاب القوى الفارهة ، والأبصار النيرة .

أصحاب الإقدام الذي لا يشوبه عَجْزٌ ، والنظر الذي لا يشينه جهل .

إنهم مستخلصون من أجيال الدنيا ، كما تستخلص أطابيب البستان النَّفَر في هدية  
مستحبة ، قد يُترك فيها الجميل إلى ما هو أجمل منه .

ذاك هو معنى الاصطفاء .

❀❀❀❀❀

في ماضي الحياة ، وحاضرها ، ومستقبلها ، كان الوحي الإلهي - ولا يزال - العاصم  
الذي يمسك الأرض أن تزول ، والحضارات أن يتلبس فيها الرشد بالغنى .

ولن يخطئك - وأنت تَرْمُق سَدَنَة هذا الوحي المبارك - أن تستجلِّي هامة سماء تَوَجَّها  
الحلال والأدب ، وزانها اليقين والصدق ، برَّزَت بين هداة السماء بروزاً كاد يحجب ما حوله .

(١) سورة ص : ٤٥ - ٤٧ .

مَنْ هُؤلَاءِ الدُّعَاءُ الْكَرَامُ؟ . وَمَنْ ذَلِكَ الْعَلَمُ الْبَاسِقُ؟ .

هُؤلَاءِ النَّبِيُّونَ الَّذِينَ وُكِلُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَهْدِوَ النَّاسَ رَدْحًا مِّنَ الزَّمْنِ فِي الْعَصُورِ الْأُولَى .  
أَمَا هَذَا النَّبِيُّ الْمُتَفَرِّدُ ، فَقَدْ كُلُّفَ أَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ الْدَّهْرَ كُلَّهُ ، وَأُرْسَلَ بِكِتَابٍ يَبْقَى  
بِيَنِيهِمْ ، مَا بَقِيَ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ !! .

وَسَطَ أَوْلَئِكَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ تَلْمِحُ - فِي خَشْوَعٍ وَتَوقِيرٍ - مُحَمَّدُ بْنُ  
عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ ، وَمُلْتَقِيِ الْعَقَائِدِ وَالْفَضَائِلِ التَّى نَاطَ الْقَدْرُ بِهَا  
صَلَاحَ الْأُولَى وَالآخَرِينَ ،

إِنَّهُ الْمُثُلُ الْعُلِيَا كُلُّهَا فِي إِطَارِ مِنَ الْلَّحْمِ وَالدَّمِ ، تَسْتَطِعُ أَنْ تَعْرِفَهُ فِي يَسِيرٍ مِّنْ  
الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، وَمِنْ الْحِكْمَةِ الَّتِي يَتَفَجَّرُ بِهَا مِنْطَقَهُ .

بَيْدَ أَنْكَ لَنْ تَسْتَطِعَ الاتِّصالَ بِهِ إِلَّا إِذَا نَشَدْتَ لِنَفْسِكَ الْمُثُلَ الرَّفِيعَةَ  
الَّتِي تَحْيَا فِي سِيرَتِهِ .

أَمَا الْوَاقِفُونَ مَعَ أَنفُسِهِمْ فِي بَدَائِيَّةِ الشَّوْطِ ، فَهُنَّ هَاتِهِاتٌ أَنْ يَرْتَبِطُوا بِهِ .

الْعُصَاهُ الَّذِينَ يَبْغُونَ التَّوْبَةَ ، وَالْجَهَّالُ الَّذِينَ يَطْلَبُونَ الْعِلْمَ ، وَالْحَاطِئُونَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ  
عَنْ قَرْارٍ ، وَالْقَاصِرُونَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ وَرَاءَ الْكَمَالِ ، أَوْلَئِكَ جَمِيعًا فِي جَهَادِهِمْ لِبَلوغِ  
أَهْدَافِهِمْ سُوفَ يَعْرُفُونَ الْكَثِيرَ عَنْ «مُحَمَّدًا» لِأَنَّهُمْ سَيَهْتَدُونَ بِأَيِّهِ ، وَيَنْتَفِعُونَ بِنَصْحِهِ .

وَلَنْ يَعْرُفَ «مُحَمَّدًا» أَبْدًا مِّنْ سَفَهِ نَفْسِهِ ، وَحَقَرَ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ .

إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْقِيَادَاتِ الرُّوحِيَّةِ الْكَبْرِيَّةِ أَنَّهَا تَقْدِحُ زِنَادَ النِّشَاطِ الإِنْسَانِيِّ فِيمَنْ  
اقْرَبَ مِنْهَا ، وَتَطْلُقُ قَوَاهُ الْكَامِنَةِ لِيُخْدِمَ الْحَقِيقَةَ الْكَبْرِيَّةَ فِي حَدُودِ مَا أُوتِيَ .

وَإِذَا كَانَ الْزُّعْمَاءُ الْقَوْمِيُّونَ يَتِيحُونَ فَرَصَاً وَاسِعَةً لِخَدْمَةِ الْوَطَنِ مَثْلًا عِنْدَمَا يَهْبِطُونَ  
لِلنَّهُوضِ بِهِ وَإِعْلَاءِ شَأنِهِ ، فَالْقَادِهُونَ الْرُّوحِيُّونَ يَهْيَئُونَ لِأَتِبَاعِهِمْ وَحَوَارِيُّهُمْ فَرَصَاً وَاسِعًا  
لِإِحْرَازِ الْكَمَالِ ، ثُمَّ لَغَرَسُهُ فِي دُنْيَا النَّاسِ ، لَتَحْلُوَ بِهِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَعْلُوَ .

وَمَنْ ثُمَّ قَلَنا : لَا يَعْرُفُ مُحَمَّدًا بِئْلَيْهِ مِنْ احْتِبَسَ فِي سِجْنِ الدُّنْيَا ، أَوْقَدَ عَنْ  
نَصْرَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ .

وينابيع الحياة العاطفية والفكيرية في نفس الرسول الكريم «محمد بن عبد الله» تجلى من معرفته الساطعة بالله ، وذكره الدائم له ، وأخذه بنصيبيه الضخم من معانى الكمال في أسمائه الحسنى .

ذلك أن الله خلق آدم على صورته ، واستخلفه في هذه الأرض ليكون نائباً عنه ، ومكّنه منها ، بل كلّه أن ينشط في استغلال خيرها وامتلاك أمرها ، ووصاه أن يحترم أصله الإلهي العريق ، فلا يتخلّى عنه إلى نزعات الطّين ، ووساوس الشياطين .  
يجب أن يكون عالماً ماجداً ، قادرًا كريماً ، رحيمًا مُنعمًا وهاباً ، إلى آخر ما ترمز إليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال وشارات العظمة والجمال .

والعالم - من أزله إلى أبده - لا يعرف إنساناً استغرق في التأمل العالي ، ومشى على الأرض وقلبه في السماء كما يعرف في سيرة محمد بن عبد الله عليه السلام .

إنه خير من حرق في نفسه وفي - الذين حوله - حياة الإنسان الكامل .  
الإنسان الرباني المستخلف في ملکوت الله لينقل إليه أطرافاً من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة .

وفي المواريث العقلية والعاطفية التي تركها هذا النبي الكريم ترى كل العناصر التي يستطيع بها أي إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة في هذه الحياة  
انظر إلى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارة :

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن زيد بن أرقم أن النبي عليه السلام كان يقول دُبُر صلاتِه :

«اللهم ربنا ورب كل شيء .

أنا شهيد أنك ربٌ وحدك لا شريك لك .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أنَّ محمداً عبدك ورسولك .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أنَّ العباد كلهم أخوة .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة .

يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، اسْمِعْ وَاسْتَجِبْ .

الله الأكبير الأكبير ، نور السموات والأرض .

الله الأكبير الأكبير ، حسبي الله ونعم الوكيل .

الله الأكبير الأكبير» .

إنَّ ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحة هذا الجيشان المنساب في كل دعوة ، تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استكناً في صدره من روعة ومحبة وإجلال .

إنه في ظاهره ترداد للفظ واحد ، وهو في باطنه تعبير عن معانٍ متجددٍ من الولاء والهياق .

ويستوقفك في هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبي لشخصه بالرسالة بين توحيد الله والإقرار بأنَّ العباد كلُّهم إخوة .

ما معنى أن يقول محمد لربِّه : «أشهد أنَّ محمداً عبدُك ورسولُك»؟

ذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة للناس كافة ، مهما كذبوا بها وتنكروا ب أصحابها .

إنَّ الرجل الذي يحسُّ بأنَّ العالم أجمع يستغرب بعثته ، وأنَّ قوى الشر فيه تحاول زحزحته ، وأنَّها قد تفلح أحياناً في الكيد له وإشعاره بالعزلة والضعف ، إنَّ هذا الرجل يرى من الطبيعي أن يشهد لنفسه بالحق لتكون هذه الشهادة المتكررة رداً بليناً على المرجفين والمكذبين .

وهي تحجيء بعد أن يقذف الروح الأمين في قلبه شهادة أخرى من الله ومن الملائكة

الأعلى ، تؤكد هذه الحقيقة : ﴿لَكُنَّ اللَّهُ يَشْهُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيَعْلَمُ  
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهُدُونَ وَكَفَ إِلَى اللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١)

وإنَّك لتسمع دوىَ الوحي وهو يرسل هذه الشهادة مرة أخرى ، فتحسن في نبراتها زمرة صاحب الحق وهو يحابيه المفترين ويخرجهم من باطلهم ، ويمضي في ذكر ما عنده من صدق بين ، وأدلة دامجة :

(١) سورة النساء ، آية : ١٦٦ .

﴿قُلْ أَمْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَدَةً﴾

قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بِمَا بَيْنَ أَيْدِيهِ وَبِمَا بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لَا نَذِرٌ كُمْ بِهِ وَمَنْ  
بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَآءُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهُدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ  
وَحْدَهُ وَإِنِّي بِرِّيَاءٍ وَمَا تُشَرِّكُونَ﴾ (١)

﴿۝۝۝۝۝﴾

والشاهد في سيرة رسول الله - ﷺ - أن حدة الانتباه الذهني تسودها كلها .

فأمثانا قد يثور انتباهه لبواهث مفاجئة ، ثم تركد مشاعره لزوالها .

أما هذا النبي الكريم فهو في نهاره مستجمع الفكر مرکزه ، لا يكاد يمسه فتور  
أو ذهول عن شيء ، دق أو جل .

فإذا نام نضحت هذه الحساسية الشديدة على حالته النفسية ، فهو في رقاده  
يقظان القلب .

ونبهة النهار ويقظة الليل تقوم على هذا الاتجاه المستمر إلى الله ، والتشبث  
العجب بذكره .

إذا أوى إلى فراشه قال : «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ،  
وَالْجَاءَتْ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مُلْجَأً وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ . أَمْنَتُ  
بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَيْكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» (٢) .

انظر إلى هذا التفاني في مرضاه الله ، ثم إلى هذا الختام الذي يعلن فيه الرسول  
إيمانه بنفسه وكتابه .

إنه - كما أبنا - عزيمة وإصرار .

وهو كذلك إقرار من الداعية أنه أول من يصدع بواجبات دعوته ، وأول من يلبي  
مطلوب رسالته ، وأول من يطيع أمر الله ، وينفذ حكمه ، ويقيم حدة ويعلى شعائره .

روى ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل  
يتهجد قال :

(١) الأنعام : ١٩ . (٢) البخاري .

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ قَيْمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .  
 وَلَكَ الْحَمْدُ ، لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .  
 وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .  
 وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ ، وَالجَنَّةُ الْحَقُّ ،  
 وَالنَّارُ الْحَقُّ ، وَالنَّبِيُّونَ الْحَقُّ ، وَمُحَمَّدٌ الْحَقُّ ، وَالسَّاعَةُ الْحَقُّ» .

«اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ أَمْنَتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ؛ وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ ، وَبِكَ  
 حَاصَمْتُ ؛ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا  
 أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقْدَمُ وَأَنْتَ الْمُؤْخَرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (١) .

ونحن فيما نألف من تجاربنا نرى أن حياة التأمل المغض والمناجاة الحلوة ، لا تخلص  
 لصاحبتها إلا بعيداً عن الناس ، وفي نجوة من لغوحهم العريض ، وشئونهم التافهة .

ومن ثمَّ فهي لا تُعرَفُ إلا لأصحاب الأبراج العاجية ، والصوماع القصبية من الأدباء  
 المترفعين ، أو العباد المنقطعين .

والحقُّ أَنَّ للجمahir ظللاً كثيفاً ، ومطالب وأهواء لا تنتهي .

وقلما يبصر نفسه من يُلقى بنفسه في غمارهم الموار .

إِلَّا أَنَّ الدارسين لحياة النبي العظيم «محمد» ﷺ يرَوْنَ في مسلكه ما يخالف هذه  
 العادة المأثورة عن بعض الممتازين من الناس .

فهو قد عالج من قضايا المجتمع ومشكلات الأفراد ، وأحوال الأصدقاء والخصوم ،  
 ودقائق الحرب والسلم ، وبلا من أطوار النفوس ، وتقلب المشاعر ، واختلاف الأفهام ما  
 لم يتع مثله لبشر آخر .

ومع ذلك فإنَّ صفاءه النفسيَّ ، وتوقدِه العقلِيَّ لم تشُبهما شائبة .

كان يترك أثره العميق في الآخرين ، ولا يتأثر هو بما في نفوسهم من ضيق  
 وانحصار . إنه موجَّه يدفع ولا يندفع .

(١) البخاري .

ورقىًّا معنوياته جزء من صميم ذاته ، لا يمكن أن يختلف عنه ، أو تتفاوت قيمته بين ارتجال وإعداد .

أما كثير من العظماء فارتقاهم الأدبى عَرَضُ اكتسبوه بوسائل معينة ، وضوابط خاصة .

وهم على حق إذ يتوجّسون من ضياعة ، أونقص حرارته ، مع مخالطة الجهل والدهماء .

لكنك ترى هذا النبيَّ الجليل بين أفواج الأعراب ، وصخب الجماعات المختلفة يرسل كِلْمَة الرتيب فلا تدرى بأيهما تعجب؟ .

برقة الروح الذى يصاحب عباراته ، أم بروعة التنسيق الذى يؤلف بين ألفاظه؟! .  
وكلا الأمرين لا يقترب منه إلَّا صاحب قلم ينشد الصفاء لنفسه ، والهدوء لفكره ، ثم بعد ذلك يكتب فى رَوْيَةٍ وأنةٍ ومهلٍ .

ولاريب فى أن مصدر هذا العلوُّ الدائم ، والقوة المصاحبة هو ما أشرنا إليه آنفاً من اتصال قلبه برب الأرض والسماء ، وجريان فكره فى نسقٍ لاتدركه الخاصة بله الدهماء .



وطبيعى أن يعيش صاحب هذه الرسالة طيلة عمره مُبِراًً من كل عيب منزهاً عن أية ملامة .

لا يؤثر عنه فى سره وعلنه ورضاه وسخطه إلَّا ما تهوى العلا .  
ما من كبير إلَّا وله سقطة ، حتى لقد تواضع الناس أن يغتفر بعضهم لبعض هنات أوسيئات لا بدَّ أن ي الواقعوها .

لكن هناك صنفاً من الناس ليس فى شرابهم قدَّى قطُّ .  
هم المصطفَونَ الأخيار من عباد الله .

وفى الطليعة الوضاءة من هذا النَّفَر النَّقِيِّ إمامٌ فَدَّ ، ورحمة مُهْداة ، ونبيٌّ معصوم .  
هو محمد بن عبد الله .

صلوات الله عليه فى الأولين والآخرين .



## بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك

رذيلة الحسد قديمة على الأرض قدم الإنسان نفسه .

ما إن تكتمل خصائص الع神性 في نفس ، أو تكتاثر موهاب الله لدى إنسان حتى ترى كلَّ محدود أو منقوص يضيق بما رأى ، ويطوى جوانحه على غضب مكتوم ، ويعيش منعشاً لا يريحه إلا زوال النعمة ، وانطفاء الع神性 ، وتحقق الإخفاق .

وقد كنتُ أظنُ أنَّ مسالك العظماء ، وأنماط الحياة المترفة التي تميَّز تفكيرهم ومشاعرهم هي السبب في كراهية الساقطين لهم وتبُّرُّهم بهم .

ثمٌ تبيَّنتُ خطأ هذا الظنّ ، فكم من موهوب لا تزيده مَجَادِته إلا تقرباً إلى الناس وعطافاً عليهم .

ومع ذلك فإنَّ التعليقات المرة تتبعه ، وكذلك التشويه المتعمَّد لأنَّ أثاره الطيبة ، والتضخيم الجائر لأخطائه التافهة !!

فما السر إذن ؟

السر أنَّ الدميم يرى في الجمال تحدياً له ، والغبي يرى في الذكاء عدواً علينا عليه ، والفاشل يرى في النجاح إزراءً به ، وهكذا .. !!

فماذا يفعل النوافع والمبرّزون ليريحوا هذه الطبائع المنكوبة؟ .

إذا محسني اللاتي أدى بها      كانت ذنوياً ، فقل لي : كيف أعتذر؟  
وقد رأى أحد العلماء أن يضع حدًّا نفسيًّا لهذا العراق بين أولى الفضل والمحروميين منه ، فقال :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم      قبلى من الناس أهل الفضل قد حسداها  
فدام لى ولهم ما بى وما بهمُوا      ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

وليت الأمر ينتهي باستجابة هذا الدعاء .

إنَّ وقائع الحياة أعتى مانتصمى ؛ ودسائس الحاقدين ومكايدهم ومؤامراتهم لا تنتهى حتى تبدأ .

وهم يصلون في أحيان كثيرة إلى ما يشتهون من سوء .

وكم من عقريات مرغتها في الوحل خصومات خسيسة !! .

إنَّ الحال في كل زمان تحتاج إلى أمداد سريعة من المساندة أو العزاء لتعيد إلى المهوبيين ثقتهم بأنفسهم ، وتشجعهم على المضي في طريقهم دون يأس أو إعياء .

وذلك لكثرة ما يصيبهم من تعويق المثبتين وإيذاء الناقمين والشامتين .

أجل ، إنَّهم في حاجة لأن يقال لهم : لا تأسوا ، فإن ما تتوجّسون من نقد أو تجاهل هو كفاء ما أُوتِيتُم من طاقة ورسوخ .

قال «ديل كارنيجي» : (كثير من الناس يجدون تشفيًّا في اتهام شخص يفوقهم ثقافة أو مكانة أو نجاحاً ، مثل ذلك أتنى تسلمتُ رسالة من سيدة تصبُّ فيها جام نقمتها على «جنرال وليام بوت» مؤسس «جيش الخلاص» .

و كنتُ قبل ذلك قد أذعتُ حديثاً في الراديو أمتداح فيه الرجل وأثنى على جهوده .

وقد كتبتُ إلى هذه السيدة تقول : «إنَّ الجنرال بوت احتلس ثمانية ملايين دولار من المساعدات التي جمعها للفقراء والمساكين ..

والحقُّ أنَّ التهمة سخيفة ، وهذه المرأة ما كانت تستهدف الواقع ، وإنما كانت تبغي النيل من رجل عظيم ، رجل أرفع منها بمراحل .

وقد أقيمتُ برسالتها في سلَّة المهملات ، وحمدتُ الله على أنَّني لستُ زوجاً لهذه المرأة !

فإنَّ الرسالة لم تزدني علمًا بالجنرال «بوت» كما تبغي كاتبتها ، وإنما زادتني علمًا بالكاتبة نفسها ، فكما قال «شوبنهاور» : ذرو النفوس الدنيئة يجدون المتعة في البحث عن أخطاء رجل عظيم .

قال : وقلَّما يصدقُ المرء أن رئيساً لجامعة كبرى يمكن أن يُسلِّك في عداد ذوى النفوس الدنيئة .

ولكن المدير السابق لجامعة «ييل» وهو «تيمونى داويت» وجد متعة كبيرة فى سوق الاتهامات المغرضة المكذوبة ضد الرئيس «توماس جيفرسون» العظيم ، محرر وثيقة الاستقلال !!).

### ٣٣٣٣٣

إنَّ «مدير جامعة» منصب علمي جليل ، وجدير بمن يلُونه أن يكونوا آياتٍ في النُّبل والسموٌّ ، لا قادة لحملات التضليل والافتراء .

ولكن الروابط مفكوكة بين كِبَر الوظائف وكِبَر النفوس .

وكم بين كبار الموظفين من رجال تصرفهم الأثرة وحدها ، ويُضريهم الاستعلاء وتنافع السلطان واجتياز المنافع واسترضاء الأتباع !!.

أمّا الصور الكالحة للحسد ، الطامسة للحق ، المرهقة للضمائر ، فهى بين أولئك الكبراء فى مناصبهم ، المرموقين بالتجلة والاحترام فى أغلب الأحيان .

ومنذ أربعة عشر قرناً ظهر «محمد بن عبد الله» فى العرب .

وكان أصحاب الرياسات الدينية المجلّة من الأخبار والرهبان قد أحسّوا نباءً ، والتّفوا به ليستوّثقوا من صدق دعوته وصحة رسالته .

ولم يحتج الأمر إلى طول تخيّص ، فسرعان ما أيقن القوم أنّهم أمّام رسول من رب العالمين ، يجب أن يؤمّنا به ، وأن ينضمّوا إليه .

بِيَدِ أَنَّهُمْ طَوَّا أَنفُسَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَكَرِهُوا - عَنْ تجاهُلٍ لَا عَنْ جَهَلٍ - أَنْ

يذكروها بِلَهَ أَنْ ينشروها !! ﴿الَّذِينَ إِذَا نَهَيْنَاهُمْ عَنِ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ قِرْيَاتَهُمْ لَيَكْتُمُونَ لَهُ وَهُوَ يَعْلَمُهُنَّ﴾<sup>(١)</sup>

ولمَ ذلك الكتمان؟ حفيظةُ ذوى النفوس الدينية عندما تلمح دلائل العظمة والمجد قد ساقتها الأقدار إلى إنسان !!.

هو الحسد .. !!

ولستُ أعرف منظراً أشوه ولا أقبح من كاهن أو واعظ يتحدّث عن الله بلسانه ، ومن وراء أردitiه الفضفاضة ووظيفته الدينية نفسٌ ترتع فيها جراثيم الأنانية الصغيرة والتطّلع الخسيس .

. ١٤٦ (١) البقرة :

﴿ وَدَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَبِ لَوْ يُرِدُونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ  
كُفَّارٌ كَحَدَّا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ أَمْ يُحْسِدُونَ النَّاسَ عَلَى مَاءِ اتَّهَمُوهُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَنْهَاهُمُ الْأَجْرُ هُمْ  
الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِذْنَهُمْ مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ يُسَمَّا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسُهُمْ أَن يَكُرُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِغْيَارِ أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾<sup>(٣)</sup>

والغريب أنَّ الأخبار والرهبان مضوا في معركة الحقد - لا الحق - إلى نهاية الشوط .  
فاللُّبُوا أتباعهم الأغرار ضدَّ الدين الجديد ونبيه ، وأشاعوا حوله قالة السوء ، وأثاروا ب موقفهم  
حرباً طاحنة ما كان أغنى الدنيا عنها لو تطهرت النفوس من هذه الغَيْرَة الشخصية السيئة .  
وأظنُّ أنَّ الله اختار نبيه الأخير من الأميين اختصاراً للمتاعب التي تنشأ لو أنه  
اختير من آباء الكنيسة .

وهذا كلام أقوله بعدما بلوتُ العمل في البيئات الدينية بضع عشرة سنة .  
فلو كان «محمد» واحداً من أولئك المحترفين ، ثم اصطفته العناية من بينهم ليؤدي  
رسالة الصلاح والإصلاح ، لقال كاردينال عجوز : أنا أحسنُ منه !! .  
ولقال ثان : أنا أسبق منه في الخدمة .

ولقال ثالث : إن كان عالماً فليس إدارياً ، وإن كان إدارياً فليس بعالم مثلـى !! .  
ولقال رابع : إنه يخطيء في إقامة الطقوس !! .  
ولا تَهْمِه خامس بكلـذا ، وسادس بكلـيات !! .

(١) البقرة: ١٠٩ . (٢) النساء: ٥٤ . (٣) البقرة: ٩٠ .

ثم يجتمع عليه المتنافرون ، ليشنّوا دعوته ، ويحبطوا رسالته !! .

وقد كان الله قادرًا على أن يجعل عيسى واحداً من علماء اليهود ، ولكنه ترك بيتهم تغلب بأحقادها وبنزاعها على الرياسات والمطامع ، ثم جعل كلامه على لسان طفل ، يُنطقه الوحيّ وهو في المهد ، لعل الكهان الشيوخ يتَّعظون !! .

و«ديل كارنيجي» يوضح بعض خبايا هذه الغيرة الشخصية بقوله : (في سنة ١٨٦٢ كسب الجنرال «جرانت» لجيوش الشمال - في الحرب الأهلية الأمريكية - معركة حاسمة ، وبهذا غداً معبد الجماهير في يوم وليلة وتجابت أصوات هذا النصر في أوروبا نفسها .

ولم تكد تمضي ستة أسابيع على هذا الفوز حتى قُبض على «جرانت» وانتزع جيشه منه .

وبكى القائد المقهور من فرط الإذلال واليأس كما يبكي الطفل ، لكن لماذا قبض عليه؟ لأنَّه أثار حسد رؤسائه ، وأهاج غيرتهم ...).



إنَّ النجاة من ظلمات الحياة ومظالم الناس وأحقادهم ليس بالأمر السهل .

لابدَّ لها من أصوات يبعثها ربُّ الفلق الذي يستطيع وحده أن يمحو آية الليل بأية النهار !! .

وقد أمرنا الله أن نستعيذ به من شرور الحاسدين ، كما نستعيذ به من شر الليل الغاصق ، ومن صنوف الأذى كلُّها ، سواء حملتها هامةً أو دابةً أو إنسان .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ  
الْوَسُوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝  
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝﴾<sup>(١)</sup>

(١) سورة الفلق .

هذه الاستعادة ضرورة ، فالذين رُزقوا من النعم المادية أو الأدبية ما يغرى الآخرين بتنقصهم ، وسد منافذ الحياة والارتفاع أمامهم ، أحوج الناس إلى تأييد الله لهم ، كي يؤدوا رسالتهم ويُبرزوا موهبهم .

ومع أن أنبياء الله أكبر من أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم أمام سيل التكذيب والاتهام الذى يرميهم به الحاسدون والكافرون ، فإنهم احتاجوا فى كل لحظة إلى معونة الله وتشبيته ، حتى لا يؤثّر فيهم استخفاف أو تحفّر :

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفْنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>

﴿وَكُلَّا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخْرَوْأَمْنَهُ قَالَ إِنْ تَسْخِرْ وَأَمْنَا  
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فَسُوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيَهُ  
عَذَابٌ يُنْجِنِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ<sup>(٢)</sup>



(١) الروم : ٦٠ - ٣٨ - ٣٩ . (٢) هود : ٦٠ - ٣٨ - ٣٩ .

## كن عصيا على النقد ..

قلت في كتابي «خلق المسلم» بعد كلام عن فضيلة القوة : تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمken ، إنَّه يُضفي على صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كلَّه ، فإذا تكلَّم كان وائقاً من قوله ، وإذا اشتغل كان راسخاً في عمله . وإذا اتجه كان واصحاً في هدفه . وما دام مطمئناً إلى الفكرة التي تملأ عقله ، وإلى العاطفة التي تعمر قلبه ، فقلما يعرف التردد سبيلاً إلى نفسه ، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه . بل لا عليه أن يقول لمن حوله :

﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَا كَانُوكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ مُسْوِفًا تَعْلَمُونَ لَا يَعْلَمُونَ يَا تِبْيَهٌ عَذَابٌ يُنْجِزُهُ وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّفْيِضٌ﴾<sup>(١)</sup>

هذه اللهجة المقرونة بالتحدي . وهذه الروح المستقلة في العمل ، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق ، ذلك كله يجعله في الحياة رجل مبدأً متميز ، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره ، إن رأهم على الصواب تعاون معهم ، وإن وجدهم مخطئين نأى بنفسه واستوحى ضميره وحده .

قال رسول الله ﷺ : « لا يُكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّة ، يقول : أنا مع الناس ؛ إنَّ أَحْسَنَ النَّاسَ أَحْسَنَتْ ، وإنَّ أَسَاءَوْا أَسَاءَتْ !! وَلَكِنَّ وَطَنُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسَ أَنْ تَحْسِنُوا ، وإنَّ أَسَاءَوْا أَنْ تَجْتَنِبُوا إِسَاعَتَهُمْ »<sup>(٢)</sup> .

والحق أنَّ الرجل القوى يجب أن يدع أمر الناس جانبًا ، وأن يندفع بقواه الخاصة شافقاً طريقه إلى غايته ، واصبعاً في حسابه أنَّ الناس عليه لا له ، وأنهم أعباء لا أعون ، وأنه إذا ناله جُروح أو مسَّه إعياء فليكتم ألمه عنهم ، ولا ينتظر خيراً من بشّهم أحزانه .

وَلَا تَشْكُ إِلَىٰ خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ شکوی الجريح إلى الغربان والرَّخْم

(٢) الترمذى .

(١) الزمر : ٣٩ - ٤٠ .

وبعض الأقوياء تتحول عنده قلةُ الاكتراش بالناس ، وإساءة الظن بما يبدون من أراء ، أو يكتنون من مشاعر إلى عاطفة تفيض بالزراية وتمتلئ بالقصوة ، على نحو ما قال «المتنبي» :

ومن يعرف الأيام معرفتي بها      وبالناس رؤي رمحه غير راحم  
ونحن لا نقرُّ هذا الانحراف في إهدار القيم .

وكلَّ ما نوصى به ألاًّ تُعطى العامة فوق ما لها من حقوق عقلية أو خلقية ، فإنَّ مستويات الجماهير لا تتحكم في تقرير الحق ، أو تحديد الفضيلة .

بل تُؤخذ الحقائق والفضائل من ينابيعها الأصيلة دون مبالاة بالجاهلين لها أو الخارجين عليها ، وإن كانوا ألوفاً مؤلفة .

وعلى الرجال الكبار أن يبنوا سلوكهم فوق هذه الأسس ، فلا يتبرّموا بالنقد المثار ، أو يقلقا للكثرة الهجامية والشتائم .

قال «ديل كارنيجي» : (قابلت ذات يوم «جنرال سميدلى بتلر» الملقب بـ«شيطان الجنحيم» ، المعروف بأنه من أحزم القواد الذين تعاقبوا على بحرية الولايات المتحدة ، فأخبرنى أنه كان في صباه طموحاً إلى الشهرة الواسعة ، والجاه العريض ، وقوة الشخصية .

ولهذا كان يضيق بأقل ما يُوجّه إليه من نقد ، ويهيج لأتفه ما يمس الكرامة والكبراء .

غير أن الأعوام الثلاثين التي قضاها في البحرية غيرت طباعه ، وجعلته أمنع من أن ينال منه النقد .

قال لي : لطالما ذقت صنوفاً من الإهانة والإذلال ، وطالما رميت بآني كلب عقور ، وحيّة رقطاء ، وثعلب مراوغ .

ولطالما لعنى خباء في فن الشتم فلم يدعوا مقدعاً من ألوان السباب إلا رموني به !! . فهل ترانى أقيمتُ بالا إلى ذلك كله ؟ كلا .

ولو أُنْتَ سَمِعْتَ الْيَوْمَ وَاحِدًا يَسْبِّهُ لَمَا حَوَّلْتَ نَظَرِي إِلَيْهِ لَا عُرْفٌ مِّنْ عَسَاهُ يَكُونُ .

والجملة الأخيرة تشبه قول الشاعر العربي في تجاهل السفهاء :  
لو أَنَّ كُلَّ كَلْبٍ عَوَى الْقَمْتُهُ حَجْرًا لَأَصْبَحَ الصَّخْرَ مُثْقَالًا بِدِينَارٍ

إنَّ أَصْحَابَ الْحَسَاسِيَّةِ الشَّدِيدَةِ بِمَا يَقُولُ النَّاسُ ، الَّذِينَ يَطِيرُونَ فَرْحًا بِمَدْحُومِهِمْ ، وَيَخْتَفُونَ جَزْعًا مِّنْ قَدْحِهِمْ ؛ هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَتَحَرَّرُوا مِنْ هَذَا الْوَهَمِ ، وَأَنْ يَسْكُبُوا فِي أَعْصَابِهِمْ مَقَادِيرَ ضَخْمَةِ مِنْ الْبَرُودِ وَعَدَمِ الْمُبَالَةِ ، وَأَلَا يَغْتَرُوا بِكَلْمَةِ ثَنَاءٍ أَوْ هَجَاءٍ ، لَوْ عَرِفْتُ دُوَافِعَهَا وَوُرِّنَتْ حَقِيقَتَهَا مَا سَاوَتْ شَيْئًا .

وَهَبْهَا تَسَاوَى شَيْئًا مَا ، فَلِمَاذَا يَرْتَفِعُ امْرُؤٌ أَوْ يَنْخَفِضُ تَبَعًا لِهَذِهِ التَّعْلِيَّقَاتِ الْعَابِرَةِ مِنْ أَفْوَاهِ الْمُتَسَلِّلِينَ بِشَوْئِنَ الْآخَرِينَ؟! .

إِنَّ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي إِدْرَاكِ الْجَمَاهِيرِ لِلصَّوَابِ هُوَ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّاَ أَغْنَانَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١)

وقد وجد الكاتب الأمريكي نفسه مضطراً إلى الانصياع لهذه الحقيقة فقال :  
(لقد اكتشفتُ من سنوات أَنَّنِي وإن عجزت عن اعتقال أَلْسُونَةِ النَّاسِ حتى لا يطليقوها فِي ظُلْمٍ وَعَدْوَانٍ ، إِلَّا أَنَّهُ وَسْعَنِي أَنْ أَفْعَلَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِّنْ هَذَا . أَنْ أَتَجَاهِلَ لَوْمَ النَّاسِ وَنَقْدَهُمْ . . .).

ويقول : (إنِّي أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ النَّاسَ لَا يَشْغَلُهُمُ التَّفْكِيرُ فِي زِيدٍ أَوْ عُمْرٍ أَكْثَرَ مِنْ لَحْظَاتٍ ، فَهُمْ مُشَغَّلُونَ بِالتَّفْكِيرِ فِي أَنفُسِهِمْ مِنْذَ يَفْتَحُونَ أَعْيُنَهُمْ عَلَى الْيَوْمِ الْجَدِيدِ حَتَّى يَأْوُونَ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَأَنَّ صُدَاعًا خَفِيفًا يَلْمُ بِهِمْ لَهُ كَفِيلٌ أَنْ يَلْهِيَهُمْ عَنْ خَبْرِ مَوْتِي أَوْ مَوْتِكِ ..).

أَجَلُ ، هَذِهِ حَقِيقَةُ النَّاسِ الَّذِينَ نَهَمْتُ بِأَحْكَامِهِمْ عَلَيْنَا وَنَحْسَبُ لِرِضَاهِمْ وَسَخْطِهِمْ أَلْفَ حَسَابٍ .

(١) الأنعام : ١١٦ .

وحرى بنا - ونحن نزن آراء الناس - أن ننبه إلى الملابسات التي تجعل كثيراً منهم يوافق مثلاً ، أو يرفض ، بل يؤمن أو يكفر .

فإن عبد الله بن أبي - كبير المنافقين في الصدر الأول - ظل ينظر إلى الإسلام نظرة تجهم وقلق ، حتى إذا انتصر المسلمون في معركة « بدر » أسرع الرجل وشيعته إلى الدخول فيه بحجة أن « هذا أمر قد توجّه » يعني ثبت واستقراره بعد ما نال من نصر .

والذين يبنون احترامهم لأمر ما على أساس ما يقارن هذا الأمر من عناصر الغلب والظهور كثيراً جداً في الناس .

أما الذين يعتقدون الحق المجرد ولو أن خنته الهزائم ، ويغالون بنفاسته ولو مُرّغ في التراب ، فهو لاء غرباء في العالم .

ال العامة للأسف مع صاحب الدنيا ولو كان زنيماً .

والألسنة في إعلاء شأنه قلما تفتر رغبة أو رهبة .

ولذلك قيل : إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محسن نفسه :

والناس من يلْقَ خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولا مُخطئ الهَبَلُ

وقد كره النبي ﷺ ألا يتحرك الناس إلا تحت ضغط هذه الدوافع الدنيئة ، فقال : « بئس العبد عبد رغب يذله ، بئس العبد عبد رهب يضله » .

بيد أن مشاعر الرغبة والرهبة والمنفعة والحرمان ما تزال السر الدفين وراء كثير من النقد والرضاء والنقاوة والتأييد .

وقد كان « إبراهام لنكولن » حريصاً على أن ينتصر في المعارك التي خاضها ، لماذا ؟ لأنَ النصر سيقطع جميع الألسنة التي تناوشة .

أما إذا انهزم فلو نزلت الملائكة تعذر له ما قبلت الجماهير عذرها ، وكانت أسرع إلى تصديق خصومه وقبول الاتهامات التي وجّهت له بالحق أو بالباطل .

ولذلك يقول «لينكولن» : (لو أتتني حاولت أن أقرأ فقط لأردد على ما وُجهَ إلىَ من نقد ، لشغل هذا وقتى كله ، ولعطلنى عن أعمالى !! .

لكننى أبذل جهدى فى أداء واجبى ، فإذا أثمرت جهودى فلا شيء من النقد الذى وُجهَ إلىَ يهمنى بعد ذلك ، إنه سيختفى من تلقاء نفسه .

أما إذا خاب مسعى فلو أقسمت الملائكة على حسن نيتى ما أجدانى هذا فتيلًا ، حسبي فيما يتصل بآراء الناس أنى أديتُ واجبى وأرضيت ضميرى ) .

وبديهى أن المرء يلوذ بهذا الاستعلاء والاستغناة إذا دهمه سيل من هزات الحاسدين واتهامات الحاقدين ، وكان الحق معه .

أما الانتقاد الصحيح لما وقع فيه من أخطاء ، أو الاستدراك على ما فاته من كمال ؛ فيجب أن نقبله على العين والرأس .

ولو كان النقاد مدخلين للنية ، سيئى القصد .

فسوء نيتهم عليهم وحدهم ، وخير لنا أن ننتفع بما أجراه القدر على أسلتهم من تصويب .

ومن يدرى ؟ لعل ذلك الانتفاع يكون أغيب لذوقهم المريضة .

والعقل يتسمّع ما يقوله أعداؤه عنه .

فإن كان باطلاً أهمله فوراً ولم يأس له .

وإن كان غير ذلك تروي في طريق الإفاده منه .

فإن أعداء الإنسان يفتّشون بدقة في مسالكه ، وقد يقفون على ما نغفل نحن عنه من أمم شؤوننا .

وقد يقىل : رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوبى ، فمن أهدى إلينا عيوبنا قبلنا هديته في الحال ، ثم سارعنا إلى إصلاح ما بطن وما ظهر من نفوسنا ، حتى لا يبقى مجال لشانىء ، أو فرصة لناهز .



## حساب نفسك

ما من عمل مهم إلاً وله حساب يضبط دخله وخرجه ، وربحه وخسارته .  
إلاً حياة الإنسان ، فهى وحدها التى تسير على نحو مبهم لا يدرى فيه  
ارتفاع أو انخفاض .

هل يفكر أكثرنا أو أقلنا ، فى إمساك دفتر يسجل فيه ما يفعل وما يترك من  
حسَن أو سوء ؟ ويعرف منه بين الحين والحين رصيده من الخير والشر ؟ وحظوظه  
من الربح والخسارة ؟ ! .

لو أننا نخطب فى الدنيا خبط عشواء ، ونتصرف على ما يحلو لنا دون معَّب  
أو حسيب لجاز على تفريط وحمق أن نبعثر حياتنا كما يبعثر السفيه ماله ، وأن نذهب  
عن الماضى وما ضمَّ من تجارب ، وأن نقتحم المستقبل غير متَّهِبِين خطأ أو خطيئة !! .  
فكيف ولله حفظة يدوون مثلث الذرة ، ويعذون لنا قوائم بحساب طويل :

### ﴿وَوُضِعَ﴾

الْكِتَابُ فَرَقَ الْمُجْرِمِينَ  
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوْمَئِنَا مَا إِلَّا  
هَذَا الْكِتَابُ لَا يَعْنِدُ رُصَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا  
مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَنْظِلُونَ رَبِّكَ أَحَدًا ﴿١١﴾

أما يجب أن نستكشف نحن هذا الإحصاء الذى يخصنا وحدنا ؟ ! .

أما ينبغي أن نكون على بصيرة بمقدار ما نفعل من خطأ وصواب ؟ ! .

الحقُّ أنَّ هذا الإنطلاق فى أعماء الحياة دون اكتتراث بما كان ويكون ، أو الاكتفاء  
بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة أو الأعراض المخوفة ، الحقُّ أنَّ ذلك نذير شؤم .

وقد عَدَ القرآن الكريم من الأوصاف البهيمية التى يُعرف بها المنافقون الذين لا  
قياسة لديهم ولا يقين .

(١) الكهف : ٤٩ .

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾

﴿فِي كُلِّ عَامٍ مُّرَّةً أَوْ مَرَّتَنِ شَهْرًا لَا يَرْجِعُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وعلماء التربية في الإسلام متذمرون على ضرورة محاسبة المرء لنفسه تمشياً مع طبيعة الإسلام ، وإنقاذاً لقول رسول الله ﷺ : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم» <sup>(٢)</sup> . قوله : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» <sup>(٣)</sup> .

وقد كتب هؤلاء العلماء فصولاً مطولة في المراقبة والمحاسبة يمكن الرجوع إليها .

ويرى «ابن المقفع» أن يسجل الإنسان ما يصدر عنه جاعلاً الصفحة اليمني للحسنات واليسرى للسيئات .

وإن كان «دليل كارنيجي» يذهب إلى تدوين السيئات فحسب ، على أساس أن المرء يعنيه تلافى أخطائه ، والنجاة مستقبلاً مما وقع فيه آنفاً .

قال : (في أحد أدراج مكتبي ملفٌ خاص مكتوب عليه : «حماقات ارتكبتها» !! . وأنا أعد هذا الملف سجلًا وافياً للأخطاء التي وقعت فيها ، وبعض هذه الأخطاء أملتها ، والبعض الآخر خجلت من إملائته فكتبته بنفسي .

ولو أنت كنتم أميناً مع نفسك لكان الأرجح أن يمتلك مكتبي بأمثال هذه الملفات المليئة بالأخطاء والحماقات !! .

وعندما استخرج سجلًّا أخطائى ، وأعيد قراءة الانتقادات التي وجهتها لنفسي ، أحس أننى قادر على مواجهة أقسى وأعصى المشكلات مستعيناً بـ عبر الماضي الذى دَوَّنته .

لقد اعتدت أن ألقى على الناس تبعة ما أواجهه من مشكلات . لكن بعد أن تقدمت بي السن وازدادت حكمتى - فيما أحوال - أدركت أننى وحدى المسؤول عما أصابنى من سوء .

وفى ظننى أنَّ كثيراً من الناس يصلون إلى هذه النتيجة نفسها عندما يدرسون أنفسهم .

٢) الترمذى .

٣) المنذرى .

١) التوبه : ١٢٦ .

ولقد قال «نابليون» في منفاه بجزيرة القديسة «هيلانة» : لا أحد سواي مسؤول عن هزيمتي . لقد كنت أنا أعظم عدو لنفسي !! .

### ٣٦٣٥٣٤٣٤

في صدر شبابي الأول كنت دقيقاً في محاسبة نفسي ، و كنت أرسم برامج قصيرة الأجل للتطهير مما أحقره من خلال وأعمال ، وأذكر أنني استعنت بإحدى المفكّرات السنوية لإثبات الأطوار التي اتّصل بينها من الناحيتين الذهنية والنفسية ، وإن كنت فشلت آخر مرة في استدامة هذا الأسلوب .

ويرجع فشلي إلى أنني أطلب النتائج المستحبة بسرعة ، على حين أكون مُحاصرًا بظروف لا تسمح بذلك أبداً .

وقد مزقت هذه المفكرة في ساعة يأس لأنني نظرت في صفحاتها - و كنت أدون حالي بأمانة - فوجدت بها لا تشير إلى أي تقدم ، كانت أشبه بمُلْفٍ مريضٍ لا تتغيّر حالي مع عِظَم وعاء السهر .

وأحس الآن ، أنني أخطأت في الاستجابة لهذا اليأس ، لأنني نظرت للأمر من ناحية ضيقّة ، ناحية الحصول على نتائج معينة في أيام محدودة ، جاهلاً أو متّجاهلاً ما يكتنف النفس من وُعورة طباعها الرديئة ، ومن عوائق البيئة التي لا حصر لها .

كنت كالسبّاح الذي يعارك أنواع عاتية .

حسبه - إن وقف في مكانه - أنه لم يتّأخر ، وأنه لم يغرق .

وهذا ضرب من النجاح ، يتبعه مع الصبر الجميل إحراز النجاح الكامل .

وقد فاتني هذا الدرس وأنا شاب أتعلّم إلى الفضيلة والكمال ، وأتعشّق المُثُل العليا ، ذلك لأن في بلادنا أزمة طاحنة في المربيين الأخيار .

وحدث وأنا غلام في مرحلة التعليم الثانوي أن اجتاز قريتنا حديث عن الأشباح التي تظهر بالليل ، وشعرت بوجل يملّكني وأنا استمع إلى أنباء هذه الكائنات الخفية ، ثم أنكرت من نفسي هذا الفزع الذي لا ينبغي أن يخامر مؤمناً ، فإن المؤمن يخشى الله وحده .

وإذن فلاؤدب هذه النفس الهلوّ ، وبم؟ بإكراها على مواجهة ما تخاف . وبعد العشاء اخترقت وحدى أعماء الليل المخيم على البلد والحقول .

ودلفتُ إلى المقابر الموحشة الواقعة بعيداً عن العمران !! .  
وأخذت أنقل خطوئي بين دروبها الضيقه ، وعيناي تستشفان كل شيء حولى ،  
وقلبي لا يفتأ يدق .

وكانت رحلة شعرت من أعماقى بكرهى لها ، ولكن ما منها فى نظرى بد .  
لقد قررتُ أن أدخل هذه المقابر من طريق ، وأخرج من طريق آخر ، وأن أكرر هذه  
الجولة فى ليالٍ عده لأغالب فى نفسى هذا الخوف الذى لا يليق بي .  
لقد كنتُ فى ميدان الرياضة النفسية أتعسفُ الطريق أحياناً كثيرة لقلة المرشدين  
الذين يرعون الناشئة ، وندرة الثقافات التى تأخذ بناصيحتهم إلى الصراط المستقيم  
ومع ما خلفته فى أعصابى هذه المحاولات المضنية ، فلستَ أسفًا على ما بذلتُ من  
جهد ، أخطأت فيه أو أصبت ، فلأنَّ أشتط فى حساب نفسى أفضل من أن أدعها  
تنطلق من غير حساب .

### ٣٣٣٣٣

. وكان يمكن أن تكون مواريث التصوف فى ثقافتنا الإسلامية هادياً حسناً  
لوضع رقابة حصيفة على النفس ، تخلصها من آفاتها ، وتبلغ بها ما تطيق من آفاق  
السمو ، لو لا أنَّ كتب التصوفُ بحاجة إلى غربلة شاملة تفصل ما فيها من جوهر  
عما فيها من حسى .

فما أيسر أن يُوصف الداء فى هذه الكتب على أنه دواء !! .

ومن ثمَّ يختلط الدواء القاتل بالشفاء الصحيح .  
وتحتلط أقوال المجانين والسفهاء بحكم العارفين وال فلاسفة .

وقد كان «ديل كارنيجي» شبيهاً بحكماء التصوفة عندما نوه بضرورة محاسبة  
النفس فيما حكاه عن «ه . ب هاول» من رجال المال الأمريكيين ، فقد كان  
يخصّص مساء السبت من كل أسبوع لمراجعة ما كسب واكتسب ، والتأمل في كلٍّ  
مقابلة تمت ، وكل مناقشة دارت ، وكل عمل أنجز .

ثم يسأل نفسه : أى خطأ ارتكبه ، أى توفيق صادفه ؟ وهكذا .

قال : (ولعل «هاول» قد استعار هذه الطريقة فى «مراجعة النفس» من «بنيامين فرانكلين» ، إلا أن الفارق الوحيد بينهما أن هذا لم يكن ينتظر حتى تحل نهاية الأسبوع ، بل كان ينصب لنفسه هذه المحاكمة العسيرة كل مساء ، وقد اكتشف أن هناك ثلاثة عشر خطأ خطيرًا يقترفها على الدوام .

وهذه أهم ثلاثة ، منها : تضييع الوقت سُدَىً ، الانشغال بالتوفه ، والجدال مع الناس على غير طائل .

ورسخ في ذهن «فرانكلين» أنه مالم يتخلص من هذه الأخطاء فلن يتقدم في الحياة شيئاً يذكر .

ومن ثم عمد إلى تخصيص أسبوع لمحاربة كل نقائصه من نقائصه على التوالى ، وأفرد سجلاً يدون فيه يوماً بيوم أنباء انتصاره على نقائصه أو هزيمته أمامها .

وقد لبث الرجل في حرب ضد أخطائه أكثر من عامين ، فلا عجب أن غداً واحداً من أعظم رجالات أمريكا ) .



والحق أن ترويض النفس على الكمال والخير ، وفطامها عن الضلال والشر يحتاج إلى طول رقابةٍ وطول حساب .

إن عمارة دار جديدة على أنقاض دار خربة لا يتم طفرا ، ولا يتم عن ارتجال وإهمال .

فكيف ببناء نفس ، وإنشاء مستقبل؟! .

أترى ذلك يتم وليد غفلة وذهول؟! .

كلا ، لا بد من حساب دقيق يعتمد على الكتابة ، والمقارنة ، والإحصاء ، واليقظة .

فإذا شئت الإفادة من ماضيك ، بل من حياتك كلها ، فاضبط أحوالك وأنت تعهد نفسك .

اضبطها في سجل أمين يحصى الحسنات والسيئات ، ويغالب طبيعة النسيان في ذهن الإنسان .

## خاتمة

لكي تصور الحقيقة وتضبط حدودها ، يجب أن تعرف هذه الحقيقة وأن تعرف غيرها معها .  
قد تقول : «وما شأن هذا الغير؟!» .

ولماذا يخدش الجهل به حسن التصور للحق المجرد؟ .

والجواب أنَّ الصورة الكاملة لا بدَّ لها من حدود تنتهي إليها ، وعند النهاية المرسومة لهذه الحدود تبدأ حقائق مغايرة .

ولن تتميز معرفة الشيء إلَّا إذا عُرفت الأغيار المجاورة له أو المشتبه به ، ولذلك قال الأقدمون : «بضدِّها تتميَّز الأشياء» .

والناس في معاملاتهم المالية إذا باعوا عقاراً لم يكتفوا بذكره ، بل شرحوا حدوده الأربع ، وجعلوا من ذكر القطع المجاورة وبيان أصحابها سياجاً لضبط الحقيقة التي تعنيهم وحدها ، ولا يعنيهم غيرها إلَّا تبعاً لها .

وقد كان «عمر» حريصاً على تعريف الجاهلية للناس ، لا لأن تعريف الجاهلية دين ، بل لأن معالم الإسلام وموقع إصلاحه لا تستبين إلَّا إذا عُرفت الظلمات والمظالم التي جاء هذا الدين لتبدِّلها ومحو شاراتها .

قال «عمر» : «إنما ينحلُّ الإسلام عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية» !! .  
من هنا كان لزاماً على كل مشتغل بعلوم الإسلام أن يدرس الحياة كلها ، وأن يتعرف وجوه النشاط البشري - ومراميه القريبة والبعيدة .

إنَّ ضيق العَطَّان ، وسوء البصر بما يقع في الدنيا وما يُتوقع ، والانحصار في حدود الفكرة الخاصة ، والاقتناع بجانب من المعرفة دون جانب ، كل ذلك حجاب دون معرفة الإسلام والإفادة من تراثه الضخم في ميادين الثقافة والتربية ، والفقه والتشريع ، وسياسة الأفراد والجماعات .

والدراسات المقارنة هي في نظرى أجدى الوسائل للبحث عن الحقيقة ، والظفر بها .  
وأنَّى أهيبُ بالعلماء المنصفين أن يجيئوا بأبصارهم فيما بلغته الآداب والفلسفات من نتائج ، وأن يضمُّوا إلى هذه المعرفة دراسة الإسلام نفسه ، وهم بأيسر مقارنة متنهن إلى ضرورة نفع العالم بهداياته ، ومنع العوائق التي تصُدُّ الناس عنه .

وكلمة أخيرة إلى علماء المسلمين :

إن قصر باعهم في علوم الحياة هو أبشع جريمة يمكن أن ترتكب ضد الإسلام .  
هذا القصور إنْ أمسَّوا به في هذه الدنيا متخلَّفين ، فهم عند الله ورسوله أشدُّ تخلُّفاً وأسوأ عقبى .

إنَّ أنفسنا وببلادنا وحياتنا وأخرتنا في ظمآن هائل إلى مزيد من المعرفة والضياء .

# الفهرس

## الصفحة

## الموضوع

مقدمة

جدّد حياتك

عيش في حدود يومك

الثبات والأناة والاحتياط

هموم وسموم

كيف تزيل أسباب القلق؟

علم أثره العمل

آفات الفراغ

لا تدع التوافه تغلبك على أمرك

قضاء وقدر

بالحق أنزلناه وبالحق نزل

لا تبك على فائت

حياتك من صنع أفكارك

الثمن الباهظ للقصاص

لا تنتظر الشكر من أحد

هل تستبدل مليون جنيه بما تملك؟

أنت نسيج وحدك

اصنع من الليمونة اللحمة شراباً حلواً

العمل بين الأثرة والإيثار

نقاء السر والعلانية

بين الإيungan والإلحاد

روحانية الرسول

بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك

كن عصيّاً على النقد

حاسب نفسك

خاتمة

٣

١٢

١٩

٢٤

٣٢

٤٣

٥٠

٥٥

٦٠

٦٦

٨٠

٨٦

٩٠

٩٩

١٠٨

١١٦

١٢٣

١٣٤

١٣٨

١٥١

١٥٨

١٨١

١٨٩

١٩٥

٢٠٠

٢٠٥

مقدم لكم من جروب اروع الكتب على الفيس بوك



<http://www.facebook.com/group.php?gid=43499864388>

اخوكم : محمد المغازي

[moghazi@live.com](mailto:moghazi@live.com)

[www.moghazi.com](http://www.moghazi.com)

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهِدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ  
أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ

**ملحوظة:** لم نقم لا بالمسح الضوئي ولا بالكتابة كل ما قمنا به هو اعادة النشر الالكتروني وتسهيل وصوله للناس  
ولا نبغي من وراء ذلك الا إرضاء الله والمساعدة في نشر الثقافة للناطقين بالعربية